

سامية مصطفى غياش

تضيء بكتكاد

رواية

طبعة
2

كيان للنشر والتوزيع

تَكَادُ تُضِيءُ

رواية

سامية عيَّاش

الرواية الفائزة بجائزة الرواية العربية للشباب ٢٠١٠- مجلة ديوان العرب

اسم الكتاب: تَكَادُ تُضِيءُ

تأليف الكاتبة الفلسطينية: سامية عيَّاش

تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع: 2015/7877

الترقيم الدولي: 978-977-6376-76-2

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي



كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة –
الهرم

محمول: -01000405450 01005248794 – 01001872290 – أرضي:

0235688678

www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورةٍ
كانت ورقيةً أو إلكترونيةً أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من
الناشر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إهداء

إليكِ..

أنتِ التي تزهرين وتنضجين في القلب والذكرى،

إلى روحك: أسماء.. يا أخت الروح والدم

أهدي هذا الهديان

«يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ»

سورة النور- الآية ٣٥

على سبيل التقديم

الدكتور إبراهيم سعد الدين

مدير العلاقات الخارجية في ديوان العرب

هذه الرواية التي أشرفُ بالتقديم لها هي الفائزة -عن جدارةٍ واستحقاقٍ- بالجائزة الأولى في مسابقة "ديوان العرب" للرواية لعام ٢٠١٠. رأى المُحكّمون -بإجماع الآراء وعَبَرِ مراحل التحكيم المُختلفة- أنها مُغامرةٌ إبداعيةٌ مُتميّزةٌ حقًا، على صعيدي الشّكل والمضمون، بما يؤهلها لتصدّر واجهة المشهد. في الرواية موهبةٌ لامعة تتسم بالنُّضج والثَّراء، وامتلاكٌ كاملٌ لأدوات الكتابة من حيث البناء الدرامي وتقنية القصّ وأسلوب السرد ولُغة الحكي. وفيها وعيٌ بالتَّجربة الحياتية والروائية في آنٍ واحد، وحساسية مذهشة بتوظيف كلِّ عناصر التَّجربة في نسيج النّص بتألفٍ وتناغمٍ وانسجام. مُنذُ الإطلالة الأولى تُشعرُ أنّك بإزاء عملٍ روائيٍّ شديد الإحكام، يأخذك -عَبَرِ سبيلٍ من الذكريات والتّدايعات- إلى عالمه رويديًا، مازجًا الماضي بالحاضر، والثَّابت بالمُتغيّر، والآنيّ بالآتي، والذَّاتيّ بالعام، في سبيكةٍ ما أجملها! وما أنفَسَ مَعْدنها وأضفى جَوْهرها!

الجُرح الفلسطينيُّ هو لُحمةٌ وسُداءٌ هذه التَّجربة الروائية، يختلطُ فيه كابوس الاحتلال وجرائمه المُشينّة بالسَّجن الوَحشيّ والقَهْر اليوميّ والتَّجريد من الهويّة والافتئات على الحقيقة والتاريخ، وتَمْتزجُ فيه عذابات الشّتات والاعتراب بالبحث عن الوطن الصّائع والتُّراث المَطمورِ وذكريات الطفولة

والصِّبَا النابضة في شرايين الذاكرة. لكن -وهذه سِمةٌ أخرى من سِمَاتِ التَّمَيِّز-
رغم كُلِّ هذا التَّزْفِ الدَّائِمِ، والارتحالِ اللَّاهُثِ عَبرَ الزَّمانِ والمكان، والفَقْدِ
المُتَوَاتِرِ لِكُلِّ ما هو عَزِيْزٌ وأَثِيْر، والتَّشَوُّهُ الذي يُحْدِثُهُ واقع الاحتلال في
النَّفْسِ والروح والوجدان، فَإِنَّ ثَمَّةَ لِمَسَةٍ سِحْرِيَّةٍ تَجْذُبُكَ إِلَى الانغماس في
هذه التَّجْرِبَةِ، والالتحام بدقائقها وتفاصيلها، واستشعار المُتْعَةِ في التَّنَقُّلِ عَبرَ
وقائعها وأحداثها. إِنَّهُ سِرُّ الفَنِّ وَجَوْهَرُ الإبداع الأصيل، الذي يَجْعَلُنَا نَسْتَعِذُّ
مُعَايِشَةَ الأَلَمِ بِدَأْبٍ وإِصرارٍ على بلوغ الذُّرْوَةِ، فِشارِبُ الغِبطَةِ المُعْتَدِلِ -كما
تَقُولُ الشاعرة الأمريكية الشَّهيرة إميلي ديكنسون- لا يَسْتَحِقُّ اليُنْبوغُ.

ذاكرة

-١-

شاخ الطريق فجأة!

الطريق الواصل بين شرق الضفة وغربها، عجز تمامًا.

تلعثم بذاته أكثر من مرة، بدا من الداخل باهتًا، منغمسًا في لفظ الفظاظ
ببذخ، لكنك رغم كل هذا استعجلته وركبت رأسك، لملت خيبتك وأسرعت.

الطريق شاخ.

شعرت بأنفاسه تلهث كحمار محموم، وبترهل جلده المتلون كتذاكر الحافلات
المدعوكه غضبًا تحت الأرجل.. إنه ذات الطريق الذي تُقذف فيه كقمامة،
وكحزنٍ يفغر فاه على خرف ذاكرة تتعالى ثرثرتها!

كل شيء كما هو، مثقلٌ بذات الملامح، يجرّ شوكة خلفه، ويمضي ليوم آخر.

فلم أحسست اليوم أن عجزًا اعتري الطريق وهو كذلك مذ خلقت؟!

لم تجفل الدنيا كلها عند هذه النقطة من العالم، فتصبح بينك وبينها عداوة
ممرضة، تختصر حقدًا موغلًا في الروح؟!

ما الفرق بين هذا الحقد وذاك الذي شعرته وأنتِ تمدين يديك إلى يد والدكِ
دون أن تطالها؟

كم من الأسلاك الشائكة بعدت بينكما يومها؟ كلما تذكرته وخزكِ طعم الألم
المالح الذي ذرفته؟

كنتِ صغيرة، فكيف لذاكرة فتية أن تختزل حقداً كهذا؟!

أين البراءة التي قرأتها في الكتب المدرسية يا حنان؟ تلك التي تضمها
الألعاب البلاستيكية، والعرائس الصوفية والحكايات الناعسة؟

لماذا كبرتِ معكِ هذا الحقد؟

الألعاب الطفولية تحوّلت إلى لعبة «عرب ويهود».

تمحورت الحياة حول عرب يطلعون النار على اليهود بعصا خشبية مدقوق
فيها مسمار جيد لحبل يتعلّق حول الرقبة، وكان اللعب في النهاية يتحوّل
لشجارٍ حقيقي، ينتقل إلى الأهالي، فننعم بفترة حرمان من اللعب!

كنتُ أشتهي الطائرات الورقية بألوانها الحقيقية، وكلما صنعت واحدة كانت
تخرب قبل أن أطيّرها، تنفكّ قطعها، ثم أبكي حتى تقنعني أُمي أن خالي
سيصنع لي واحدة، كنتُ مهووسة بالأوراق التي يمكنها أن تطير بينما نمسكها
كي لا تفلت من أيدينا.. أن تطير يعني أنها قادرة على أن تصل إلى أبعد مما
أعرف، أن تتجاوز حدود القرية، إلى طرقات جديدة.. كلما راقبت طائرة
ورقية دندنت بالأغاني، ورقصت على قدم واحدة!

قبل أن أنام كانت تأتي جدتي الجوهرة -رحمها الله- لتحكي لي حكاية
العصافير والغربان، ثم أسألها بعث طفولي: لعبنا عرب يهود، ومحمد قال: إن
اسمها حربًا، ماذا تعني الحرب يا جدتي؟

لم أكن أعرف سبب تلك الإجابة المكتومة النازلة على شكل دموع!

قولي لي يا حنان، من علّمك كيف تكرهين إذن!

ولماذا تختلط صورة لعبة عرب ويهود بصور الطائرات الورقية التي لم
تستطيعي أن تصنعها إلا بالحلم؟!

والآن، ها هي الأعلام ذات النجمة السداسية الزرقاء تلوح خلال الأفق،
فتحسسين صدرك المحاط بخريطة فلسطينية فضية.

ستحكين صدرك بحواف الخريطة المثلثة، ستشعرين بألم يتسرب خفيًا إلى
الروح، ستبعدين منظر الأعلام وهي تنتشر وتتكاثر في المكان.

تنزلين من الحافلة وتصعدين أخرى بآلية، تجلسين قرب نافذة تغطت ببخار
الأنفاس من الداخل. كنتِ تتمنين أن يكون الجو بهذا البرد عندما غادرتِ
الضفة لتتزوجي، كنتِ سترسمين اسمه على نوافذ الحافلات الكثيرة التي
تنقلت بينها لو أنها امتلأت بالضباب كما هي الآن، بالرغم من تلك الأمنية التي
لم تتحقق حينها، كان سفرًا خفيًا، لذيذًا، مليئًا بالتفاؤل والأمل.

إنه المطر، هكذا ببساطة.

فهل حمل شتائي هذا اكتئابًا أتوارى عنه فلا أستطيع؟ ذلك أني أعود منحنية القلب والروح.

ما الذي يكسر لب الإنسان سوى قلبه؟

وما الذي يدبّ فينا الحياة سوى الحب؟

فهل أحببتُ سميح حقًا؟

الطقس بارد، تشعرين بذلك تَوًّا، فتلمّين نفسك حولها، وتفركين كفيك ببعضهما، وتنتظرين تحرك الحافلة التي توقفت عن التعكز بعد إشارة من شرطي إسرائيلي، في انتظار إشارة من آخر يخبرك أن الغرب قريب.

تؤلّمين نفسك بتلك الأسئلة الموجوعة بالغرابة والمحاولة والتوجس؟

لطالما آلمتِ نفسك يا حنان، كلما ابتعدت أملكِ عنكِ جرحتِ نفسك، وصرختِ بالآلهة، كنتِ تنجحين في إرعابها وإثارة القلق، فتضمك إليها وتضمد الجرح الذي لم يكن يتعدى وخز إبرة ثم تُقبّله وتساءلك: هاه يا عيون أملك؟ بطل وجع؟

وكنتِ تجيبين بمكر طفولي: راح.

فلماذا كنا نحتاج للألم حتى يأتي الآخر ويحتويننا؟ أما كان بمقدورك أن تعبّري عن شوقك لحضنها دون وجع؟ لو أنك رميت نفسك في حجرها وضممتها، لو أن الألم لم يكن مقرونًا بالحب، هل اختلف الحال مع سميح؟

- ماما. خليني على جنبك اليمين؛ الباب موحش.

وتنتقلين لليمين، حيث لا يقلقك الباب بالأشباح التي كانت تعبره وتسخر منك.

لم كانت تترآى أمامك الأشباح يا حنان؟

سمعت جدتك تصرخ: الله ينتقم منهم، من أول ما أخذه والبنت ما بتنام!

و«أخذه» هذه عائدة إلى أبي، كان موحشًا منظره، كنت أرتعد وأنا أراه يترنح أمامي بجسده النحيل، فكلما رفع رأسه أنزلوه، وداسوا عليه بأرجلهم، ثم ضربوا أبي بالبنادق الطويلة، وركلوه أمامنا كما لو كان كرة عصية على الحركة.

آه يا حنان، كانت أمك ذكية، كلما أيقظتها، ضحكت عليك، وقالت مشيرة إلى رأسك: وحده خيالك من يصنع كل تلك الأشباح.

فهل كنت تنسجينها حقًا؟

ولمّا عاد أبي من السجن عرفت كيف يبدو الحزن أكبر من محض أسئلة تطير من الأعين.

ما الذي كان لديك لتقوليه للعائد الغريب هذا؟ شعرت أنه كان غريبًا فازداد حقدك. سُجن عُمرًا ثم جاء، فكيف له أن يصبح أباك فجأة؟

الأمر استعصى على عقلك الصغير.

قالت أمك: والدك مثل جدة ليلي التي أكلها الذئب، أبوك خرج من بطنه لا أكثر.

من بطن الذئب خرج!

بدون تعقيد بدت الفكرة مذهشة لتقبُّل وجود الغريب على الأقل، لم تكن مشاهد الرسوم المتحركة التي تتزايد فيها صورة لقاء الأب بابنته بعد غياب لتحرك في شيئاً، لقد بقيت أجفل منه. وأتخفى من نظراته، ولا أترك جسدي قربه مهما يكن، وحين اقترب أول مرة ليضميني: ابتعدت راکضة خلف أُمي، فبكي.

حينها قالت أُمك ما لم تتوقعينه: هذا والدك، مفهوم؟ لا أريد حركات الأطفال هذه!

كانت أُمك قاسية الملامح، رأيت أسنانها وهي تصبح أضخم مما هي عليه. إنها لم تكن هكذا حتى عندما سمعتُ أفواه الناس وهي تلوك سيرتها! هل كانت تقول ذلك لك أنت أم لنفسها، هي التي بدت تحاول تقبّله أيضاً، كعروس جديدة؟

خطواتك البريئة بعدها اتجهت لأبيك واحتضنته.

أكانت هذه رغبة اختبأت خلف ضلوعك، وخلف زمن السجن، وخلف وحدة أُمك؟ أم تراها جاءت بلا إرادة منك كي تطيّبي خاطره الذي انكسر عشرات المرات؟

هل كنت تعين ما تفعلينه أيتها الطفلة، أم أن الذكريات تعود الآن بالصورة التي تريدين؟

لا أعرف!

الكلمة ذاتها التي تهربين إليها عندما تصبح أفكارك معركة تضرم كالنار.
وتسألين بشفقة: ومتى لم تكن الأفكار داخلك كبركان يتغطى بكامل الهدوء
الذي يسترك؟

قلت: بحبك يابا، فبكى.

سمعت نشيج امرأة بملامح رجل! وشعرت بحضنه الذي بات يغيّر ترتيب
ضلوعك واحدًا واحدًا.

الطقس بارد، والعمر أيضًا يا حنان.

-٢-

الرؤية تنجلي أمامك، كأنما كنت عمياء عن هذا المشهد المزدحم بالحكايات،
فحين يغلق باب الحافلة بمن فيها، ويطول الانتظار على نهر الأردن، نبدأ
بالنظر إلى أنفسنا، رغبة ما بالتصالح تطفو، وأحيانًا كثيرة تقفز الذكريات
والأحلام القديمة التي ظننا طالما أنها ماتت مع الزمن، والمدهش أكثر،
بالنسبة لي على الأقل، أن الحافلة تمنحنا فرصة للتعرف على الآخرين،
النظرات التي نتبادلها ككلمة مرحبًا، تفتح بابًا للحوار والتأمل والحيرة والطمع
الإنساني والمقارنة والصد والحب والنفور. قد يجروا أحدهم -كما فعل جاري-
بالحديث مع جارتته، النظرة المنجذبة تكشفهما، والبسمة الخجولة. بدأ جاري
بالقول إن الجو بارد، ثم تحدث عن الانتظار ونعمته ناظرًا في عينيها تمامًا،

لم أستطع معرفة ملامح وجهها جيدًا من مقعدي، كانت بعض أجزاء جسدها اليسرى تظهر ثم تختفي، كتفها، وذراعها، يدها وهي تعدّل تصفيف شعرها، أذنها إذا ما جمعت خصل شعرها وراءها، وحين وقعت حقيبتها أرضًا رأيت جذعها وهي تنحني، وبعض وجهها. بعدما تحدث جاري انقطع الكلام بينهما، ربما خجلت، وربما كان هذا صدًا، ولمّا تحدثت مع أحدهم على الهاتف، بدا صوتها مرتبكا بعض الشيء، ورغم كونه رائقا وصافيا، فقد تصنعت بعض النعومة والدلال أحيانا. كانت رنة صوتها الصافية كافية كي تحرك قلب الرجل، أدار وجهه نحو الشباك فور ضحكها، وكأنه يخبئ شيئا يخشى أن ينفلت، ولعله انتبه لنظراتي المراقبة أيضا، فجأة رفعت سماعة الهاتف عن أذنها، وسألته: أين نحن تحديدًا؟ فانشرح بإفراط فاضح وهو يخبرها أننا أعلى النهر، على الجسر، وقبل جسر اليهود بقليل، وأضاف: أمامنا تقريبا خمس باصات على الأقل!

إنّ فإن بذرة هذا التجاذب بين جاري والفتاة الحلوة تعيدني إليّ: أكنت تحبين سميح يا حنان؟

لم يكن يشغلك إلا رؤيته بالبسمة ذاتها التي تطلّ من إطار الصورة اليتيمة التي كانت معك.

أول مرة رأيت صورته طارت بك الدنيا، كنت في الصف العاشر، جاءتك بها خالتك سميرة وخبأتها في جرك بينما كنت تقشرين البطاطا والباذنجان، فصنعت مقلوبة، ما زال طعمها يتردد على السنة من ذاقها: واللّه وصايرة ست بيت!

من يومها وصورته تنام تحت وسادتك.

يا حنان اعقلي!

أنتِ لم تدافعي عن حقكِ فيه.

تركته لها ومشيتِ كما تمشي الحافلة الآن فوق هذا الجسر غير آبه بتاريخه،
عجلات الحافلة تطلق الطريق، وتودّ ألا تعود.. تصبح غريبة عنه، ربما لأنه لا
يهمها أن تغرس فيه ولو وردة يتيمة.

وأنتِ؟

ألم يكن سميح يهملكِ؟

لماذا تريدان أن تُمجدي شعورًا داخليًا بأنكِ ضحيته؟

أكانت صورته تعني شيئًا عندما كان يحضر قُصيّ مع أسامة أخيكِ؟

ألم تكن دقائق قلبكِ تتسارع، وتأمرينها بالهدوء فلا تفعل؟ كنتِ تُحضرين
الشاي بأسرع ما يمكنكِ، كي تطلقي نظرة سريعة على وجه قصي!

أما عشتِ باسمه أيامًا إلى أن يعود وجهه مع أسامة من جديد، كم من مرات
افتعلتِ أسبابًا لتنادي على أسامة، فتطلي برأسكِ نحوه؟

ألم تجلسي عند الشباك وتسمعي صوت قُصيّ وهو يحكي عن الانتفاضة
وأهلها، عن جنين التي تعتصره؟

ألم تنتشي فخراً كلما تكلم؟

و...

أيمكن أن تنكري أنك ما زلت تذكرين حركات وجهه، ويديه وهو يكرر جملته:
الاحتلال لا منطق له؟

أكان يعجبك لأنه يحكي في كل شيء؟

فما دخل صورة سميح في حياتك إذن؟

كل هذا الازدحام فيك يقول إنك ستنسين سميح.

لكن.. أتراك تتمكنين من نسيان تلك التعرجات الشعورية التي تعرفت إليها
أول مرة بفضلها؟

هل يمكن أن تنسي كيف حاول أن يضمك في ليلتكما الأولى وتراخت يداه ثم
تركك؟ لبس ثيابه وغادر الغرفة على عجل دون أي كلمة، وبعد ساعة أو أقل،
طرق الباب ووضع عشاء، وعاد لمكانه!

من يومها وحاجز كبير معتمر بينكما ويكبر.

هو يتحرك.

وكان عليك أن تفهمي بإشارة عينيه ما أراد.

كانت ليلي بعد حفلة الوداع التي أقيمت في قريتك الأم تل اللوز تحدثك عن تلك المراسم التي تجعل من الغريب شخصًا قريبًا حد الالتصاق.

قالت إن الاحتواء سيفعل فعله، وأن خوفك ذاك غير مبرر، ثم إنك تحبينه، أنسيت ذلك؟

سألتها: وقصي؟ ماذا يفعل الآن يا ترى؟

فزجرتك بقوة: قصي! ما الذي يذكرك برجل آخر الآن؟

وندمت لسؤالك، قالت: هل يرشق قلبك لغير سميح؟ أنا لا أعرفك هكذا! ستسافرين غدًا يا حنان، وبعد الغد عرسك، ستصبحين زوجة الدكتور سميح، هذا لا يحدث لأي امرأة، أنت محظوظة؛ احمدي الله.

وصمت.

ولم يجرب سميح أن يحتويك، ولا أن تكوني قريبة، عرف فقط كيف يستفزك، وكيف تظلين على أبهة الاستعداد لأي حرب موشكة.

أكنت تستحقين الدكتور سميح إذن؟

لا، هذا كذب، سألي قلبك مرة أخرى إن كان سميح كما وصفته أم لا، سألي الأيام والليالي، ولا تكتفي بالنظر من زاويتك، تظلمينه، أنتِ تفعلينها! وتعرفين أن الظلم نار.

أيمكن أن تنسي ما حدث في منزل خالتك؟ حينما دق الباب أحدهم ليسلم ورقة طلاقك؟

لم تتوقعي حضور الحزن، لكنه حضر وبقوة.

أخذتِ تعبين الهواء كالغريق.

بدوتِ بكاء أمام خالتك التي جاءت تسألك.

لم تجدي الحروف وقتها فكل ما فيك كان متألماً.

أخذتِ تتحسسين جسدك الذي برّد فجأة، بحثتِ عن مكان أقل ألماً كي
تفترشي روحك، هدهدتها كطفل كي تنام، لكن الروح لم تنم.

روحك التي امتلأت بالذكرى، تتنفسها بدقة وانتفخت لبرهة بالأحلام الأولى،
والكلمات التي كررتها في محاولة استحضاره، راحت، كل شيء راح، وأدركتِ
أخيراً أن شيئاً منك ضاع وانتهى، وأنتى للزمن أن يعود!

سميح، الرجل الذي بدا حلماً لزمن بعيد، وأنتِ تسمعين الجميع في الحارة
يقول: حنان لسميح، سميح لحنان.

تسمعين أصواتهم ويأخذ الصدى بالتمدد في جوفك دون أن يتلاشى!

أكل هذا لأنك لا تحبينه؟ أشك.

تعزّ عليكِ نفسك، لا أكثر.

ياه يا حنان! أصبحتِ مطلقة فعلاً.

لو أن ذاكرتكِ أقل خصوصية، أكثر تسرباً.

لو أنها تخلعك عنها بعض الوقت!

لو...

كفاك.

كل هذا هراء.

كنتِ تتمنين الاثنين معًا.

لو أن ألقاب سميح ومستواه الاجتماعي، تدمج مع قصي، ذي الوجه المنحوت والكلمات الآسرة والثقافة العالية.

لو أن قصي كان أكثر جرأة وأشد انتباهًا، لما وافقتِ على سميح، لما كنتِ غبية كي تأخذي رجلًا بتقليدية مفرطة، الرجل الذي لم تريه إلا في الخيال مطابقًا للصورة، ذاكرتكِ تكفلت بالباقي، وصنعت منه شبيهًا لقصي في كل ما أردتِ. سميح لم يحاول أصلاً أن يقترب، ولا مرة.. وأنتِ صنعتِ منه ما رغبتِ: عميق النظرة وجميل الصورة وحلو الكلمة، بلقب دكتور وشهادات كثيرة، ودم موصول بينكما.

أيًا يكن ما أردتِ، فقد غفلتِ بلا شك عن أن النقص طبع بشري يجعل الاكتمال بالآخر أشبه باتحاد الألوان، كلها مكونة ذلك الأبيض، الأبيض الطاهر.

كنتِ مراهرة يا حنان، مراهرة بحق، ثم إنك رأيته وجربته.

وها هي النتيجة: أنت تخوضين الآن تضاريس هذا المسمى المضاف لاسمك في الأحوال المدنية، مطلقة.

أيعقل كلمة تقلب تاريخنا؟!

قالت أم أحمد يوم عقد قرانك: البسي الأسود، إنه يظهر صفاء لونك الحليبي،
يومها كان الأسود يشعّ بالفرح والحياء.

واحتفلتِ بأسودك كما يجب، رقصتِ ودُرتِ في أرجاء الغرفة كما علمتك أم
أحمد. كانت تمسك يدك وترفعها لتحسر كمّك الشفاف عن ذراعك فيبين لونك
أكثر. تحرك يدها وتدخلين في الهواء تحت إبطها وتدورين حول نفسك،
يزيد من تقارب حركاتك، واهتياج الرقصة، ازدياد التصفيق والزغردة.

ليلي اقتربت وأخذتك من يد أم أحمد وتمايلت بخصرها النحيل، ثم توقفت
برهة أمامك مباشرة، ومدت رأسها قرب رأسك ووضعت في أذنك: بكير ع
الحياء، ارفعي رأسك شوي!

فرفعته.

لم تحفظي شيئًا مما غنّين، سوى صوت أم أحمد الذي أتى إليك عميقًا وحزينًا
بخط موازٍ من فرح معلن:

«ميلي ميلي يا زهرة الليمون

ميلي ميلي يا حامله الليمون

ميلي ميلي ع سميح هالحنون

ميلي ميلي الله عليكى الله

ميلي ميلي يا زهرة السريس

ميلي ميلي يا حاملة السريس

ميلي ميلي ع سميح هالعريس

ميلي ميلي الله عليكى الله»

وكنّت تميلين.

والكفوف ترتطم ببعضها وتمنح الجوّ شحنة أخرى من الحماسة.

حين صعدت إلى «اللّوج» المزين بأزهار الجوري والياسمين وأوراق الغار
كانت فتيات الحارة تتراقص في حلقة. يملن مع الأصوات التي تغني لك
وتدعو بين حين وآخر لزوج كل فتاة في الحيّ وتأخذ جميعهنّ نصيبًا
كالعسل.

تفتح النساء أعينهن إلى آخرها وتتوقد الراقصات أكثر، فقد تكون واحدة من
تلك الدائرات عروسًا قادمة لابن هذه أو تلك.

الأسود يومها عبق بالسعادة. والسعادة صاحبة كالعيد.

تتوقف الحافلة عند مدخل الجانب الإسرائيلي، ينزل الكلّ، وتتحركين بعد
آخر راكب، تلمحين كتابًا أو دفترًا بجلد أسود مموج، أسفل مقعد جارك،
تمدين يدك، كتب على أول صفحة:

تيما مصراوي

-٣-

أراها..

جارتني ذات الصوت الرائق، مرّت من بوابة التفتيش، وخلفها مرّ جاري، أمامي ثلاثة أشخاص. سنمرّ كلنا من تلك البوابة الإلكترونية، سنخلع أشياءنا المعدنية لنمر، يخلع من أمامي ساعته وحزامه وخاتمه، ويضعها مع هاتفه في علبة شفافة، ليمر دون تلك الزنّة المقلقة. يأتي دوري، أفكّ سلسلتي الفضية بميداليتي الفلسطينية، أمرّ عبر الباب فيزّن، يأمرني الشرطي الإسرائيلي بالعودة والمرور دون حذائي، دون جدوى، يتحدّث بعبرية دون أن أفهم حرفاً، فيشير إليّ فلسطيني أنه يأمرني بخلع سترتي هذه المرة.

رفضتُ ونظرتُ إلى الشرطي الإسرائيلي بحزم فكرر أمره بعصبية، غضب، وأشرتُ إلى حجابي، لم أكن أرّدي أسفل سترتي إلا ما خفّ، ثم إن ملامحه تشير إلى تشنج غضب جاء على نحو غريب، أشار لي الشرطي إلى مكان تفتيش النساء، وحين دخلت، كان هناك ثلاث مجندات إسرائيليات قدنني إلى حجرة صغيرة، وبدأت إحداهن بتمرير جهاز صغير في أرجاء جسدي كله، فكشفن بعد دقائق أنه كان محض دبوس.

اختفت بنت الدفتر الأسود، اسمها كان تيماء، واختفى جاري، واختلطت مع مسافري الحافلة الجديدة، ورغم محاولتي الحثيثة للبحث عن تيماء بين

وجوه المسافرين، فإن قوة أخرى كانت تريد للدفتر أن يبقى معي، لعله الفضول، أو لعلني رغبت برفقة سفر مختلفة.

ياه! اقتربت المسافة، ووجه والدي يحضر خيالاً: تشكك لحيته الخفيفة الرمادية، ويُسكن صوته قلبك الهائج وهو يقول كعادته: يحميك ربي لي. وحين كان يرتدي بيجامته الحمراء، كنت صرخين صباحاً: راجع شباب يا جرير العيسى، أدورك على عروس؟

وينشر بسمه: يكفيني الحلوة اللي قدامي.

فكيف ستجروين يا حنان على كسر قلب جرير الصغير بهومك وأحلامك التي تناثرت كالريش في وجهك؟

سمعت صوته المرتجف صباح أمس. أخبرك أنه بخير. وحين نوهت لبحه صوته الحزينة وقلت: مش طبيعي صوتك يا بابا! لكنه تحجج بوعكة صحية خفيفة ستذهبها الراحة. قال بذات الصوت المقلق: نزلة برد بس.

فلماذا يأتيك وخز من خوف وهو الذي ضحك بصوت عالٍ: لست طفلاً لتخافي علي، بدبر أموري.

ولماذا، رغم سعادتك بعودتك، يلهو فيك القلق؟!

«هناك متسع للفرح».

تنفلت منك الكلمات قافزة كحلم. هي تشبه قوقعة ضد التعب والخوف والماضي، الحافلة الأخيرة تبلعك في داخلها، ساعات قليلة وتصبح أريحا

أمامك، فصبرًا.

اتصلت بخالكِ وأعلمته أنك في أريحا، صرخت بفرح: مسافة الطريق من أريحا لنابلس، لا تخبر بابا.

بعشر كلمات لم تميزيها ثم انقطع الخط. صوته يخيفك، هذا الخوف يعشعش مع كل صوت، تبعدينه بالتفكير في عناق قوي تضمين به جسد والدك النحيل، قد لا يحتمل قوة العناق، أعانقه بشويش ثم أشدّ عليه قليلاً قليلاً، سيبتسم، وسيصرخ: أوجعتيني.

نعم، هناك متسع للفرح.

تنفلت تلك الكلمات من جوفكِ للهواء، تسمعكِ جارة الكرسي، لكنك لا تبالين. الوقت الآن لا يحتمل المبالاة بمن حولك. إننا نشواق لتلك البسمة التي تتسع وتعلو على الوجوه العطشى للحنان، الحنان الذي تعتاشين عليه ما بقي من طريق.

إننا نحزن أكثر، أو نفرح بخوف، أو نشعل الحب بشعلة تكاد لا تتوهج، أو نعيش الحياة ببطء ثقيل، لطالما فعلنا ذلك لأننا لم نسمح يوماً للكلمات أن تنفلت حرة، حرة بكامل ألقها وحضورها.

أتبالين الآن؟

أنتِ تخجلين، تخجلين وتفلحين في قتل المشاعر الأكثر صدقاً فيك، وإن مرّ وقت وعبرت عنها، كانت حتمًا ناقصة تتشوه في مراسم خروجها وكأنها حالة ولادة متعسرة. من سيكثرث إن نحن فعلنا؟

قالت صديقتك ليلي إن الأمر لا يتعلق بنا فحسب، بل بالآخر ومدى تقبّله للكلمة، لو قلت ذات الكلمة لشخصين، أجزم أن هناك فرقاً في ردة الفعل.

يومها قلت لها إننا قد نضجّ العمر في قياس تلك المسافة بيننا وبين الآخر، بل وهل سيتقبل تلك الكلمة أم لا، ومن ثم فإننا سنقوم بإدخال الهواء وإخراجه على شكل كلمات مغلقة.. وقد يحتاج الأمر لورقة مصدقة من وزارة الصحة أيضاً.

وضحكتما.

وليلي صديقة الطفولة وسرك وجارتك.

قالت أمها إنها وُلدت عندما نزلت أول قطرة مطر عام ٨٢.

«الأرض كانت ناشفة، وجذوع الزيتون يابسة، في نوفمبر، بأول جمعة إجت ليلي، ما حسيت فيها لما نزلت، كل شي كان ميسر من الله، ليلي نعمة ع العيلة».

«برجك عقرب». قلت لها.

«شتوية، باردة مثل الثلج.

هيك تاريخك بحكي، وبقولك إبراهيم حزيون إنه العقرب كثير الغيرة، وحساس وبكّاء، لأنه مائي».

وكانت تكذبه، وتسخر: ابتعدي إذن كي لا أقرصك.

وعلى الرغم من أنها زميلتك في الجامعة أيضًا إلا لكن صورتها الطفولية هي التي بقيت تظهر فترة طويلة حين ترسم في بالك. صورتها وهي تصب الشاي في الأكواب البلاستيكية الصغيرة للغاية، كانت كالكبار تدهشك وهي ترحب بك: نورت البيت، تفضلي.

ثم يشرق الوجه بشيء تكبتانه في داخلكما أكثر.

نادرًا ما كنتما تلعبان معًا بيت بيوت، لكن مشهدكما على قلته بقي ثابتًا.

هي مثلك، تحب أن تفتن عن أماكن الأولاد الذين يمثلون دور اليهود في لعبة «الحرب بين اليهود والعرب».

كانوا يختبئون في الحقل الصغير الذي يملكه بيت النجار في القرية. يصنعون من العصي والأخشاب ما يشبه الأسلحة، ويتفننون في تصويبها حيث الهدف، وبعد هنيهات يصدرون الطلقات من أفواههم، ويحتجون فيما بينهم: «هيبى، أنت متت، أنا طخيتك من شوي» ونسمع اللاءات تشكل صراخًا يسد ما دونها من أصوات.

كنتما علنًا ممرضتان في الحرب اللعبة، لكنكما في الخفاء تمارسان الفتنة بلذة مفرطة.

تزداد كلما صرخ قصي وأسامه: تذكر «الفتنة أشد من القتل».

إيه يا ليلي!

لليلة أيضًا أحلامها التي تتسائلين اليوم أين ذهبت بها هي الأخرى، وهل خيبت أملها كثرة الأحلام في مكان ضيق حتى للأنفاس، أم أنها غيرك ما زالت تنسج المزيد؟ هل أنجبت بعد سعاد؟ ليلة الطفلة والأنثى والصديقة. صورتها بقيت طفولية كلما تذكرتها، إلى أن أحبت حسام فوق طاقتها، حينها انسلت يدها من جانب جسدها ليد حسام.

كانا تحت الياسمين التي خلف شباك غرفتها. وقع نظرك عليهما من على شرفتك ولم تتابعي النظر، علمت أن الليل يُفقس رائحة الياسمين في الجو وفي الجسد.

قرأت فاتحتها عليه بعدها ليلة ولم تسألها إذا كانت قد منحته أكثر من يد.

رحت لتباركي لها، وربما لتري كيف تنقلب لأنثى في ثوانٍ، وشوشتك يومها بأنه ألح عليها ولم تعرف كيف ترفضه إلا بابتعاد لم تُردّه، وأنه جعلها تصبح أخرى، أخبرتك عن ذلك الشعور بالخدر الخفيف الذي ينزل إلى البطن، وأنها تمتته، تابعت ونصفها معك: تعرفي يا حنان؟ طعم الحب حلو، حلو جدًا.

وتمنيت كثيرًا أن تكوني مثلها، تحمل ذلك الألق الذي يجعلها تزهر حين تراه من بعيد حتى، لتشمي أريجها الذي ينسكب رغماً عنها.

كان يقف عند باب الجامعة ليقول لها: صباح الخير، فقط ليبدأ الصباح بوجهها. يقول لها إنه يخرج مسرعًا كي يتكحل، وحين تنطق تلك الكلمات أمامك ترين بريق عينيها العسلية، فتغبطينها.

قبل أن يرتبطا كان يتبعها حتى يطمئن أنها دخلت منزلها بسلام.

أيامها كان العسكر الإسرائيلي يجول نابلس المدينة ذهابًا وإيابًا، بدت كبيوتهم. لم يكن النوم ممكنًا ورأس العين أو البلدة القديمة أو مخيم بلاطة تشتعل بالنار، وكان الصوت حارًا كقطرات ماء فوق زيت مغلي، كان الصوت حارقًا.

وحسام لن يرتاح إلا حين تدخل ليلي البيت، كنتِ تسمعين صوت زفرته عالية. تقول له: عليك أن تبقى بسكنك الجامعي أيضًا، هيا اذهب.. فيجيبها من فوره: أقعد بالبيت في هكذا وضع مثل النسوان؟! عيب على الرجال! وكانت على قلقها تبدع في صنع البسمات، تغمزك وهي تقول: الحب جنون يا حنان، ربي يزوجنا بمجانين، ولا فيه أحسن منهم. وتتورد خدودك.

سرعان ما تقولين: لا تعتبري الجميع كحبيبك الولهان، سميح ليس مجنونًا. وتحضرها العبارة التي تحشرك في الزاوية: هاه؟ سميح؟ مين جاب سيرته؟ وتصمتين.

ثم تضحك بصوتٍ عالٍ.

تزوجت بعد السنة الجامعية الثانية، وفي الثالثة أنجبا بنتًا كالقمر سمتها سعاد.

كانت تسر إليك بأخبارها وقصصها المثيرة عن عالم الرجولة المُرْكَب بغرابة كما كنت تريئه وتسميه ليلي «عالم المَرَكَب السحري».

تقول: تعالي أحكيك.

ولا تملكين نفسك فتضعين يداً على الفم وأخرى على بطنك في محاولة لملك الضحكة، لكنها تفرط.

- دايما فارطة معك يا حنان. مالنا؟ الموضوع جدي.

وتنؤس قنديل الجاز الصغير، تضع فوقه شريطاً صغيراً طارداً للبعوض، ثم تمد جسدها قربة: شوفي يا ستي، الزواج مش أعجوبة، لكن الأعجوبة أن تفهمي جنساً بشرياً غريباً اسمه آدم.

فتردين: آدم يقول فهم حواء أعجوبة، ونحن نقول العكس!

لكنها تسكتك: «بلشنا! شو بعرفك إنت؟».

قبل أن يحين موعد سفرك بكت كثيراً. قالت: سنعرف الآن معنى ما كنا نفعله، معنى تلك الشقاوة، وذاك القرب، وتلك الضحكات.

لكنها لم تستسلم للبكاء، مدّت يدها لأقرب مخدة وبدأت ترميك، وعدتما للضحك. فرميتها.

حين جاء الفجر حاملاً معه زمر تلك السيارة الصفراء التي كتب عليها بالأسود «نقل من نابلس إلى الجسر»، جاءت.

قالت: ما عرفت أنام.

وضمّتك إليها. سمعت صوت قلبها الذي يخفق مع وتيرة قلبك العجلى، لم تعرفي الكلمات وقتها، عرفت فقط طعم الملوحة. حين ركبت السيارة أشارت عليك بتقريب أذنك، وشوشتك فضحكتما من جديد: ديري بالك على مركبك السحري.

كيف هي الآن ليلي؟

أما تزال مشعة أم انطفأت مثلك؟

ياه! انطفأت يا حنان بجدارة، وهذا الرحم لم يحضن الزهر لتموج فيه الثمار.

تجربين نفسًا عميقًا ينسيك كل شيء قبل تلك اللحظة.

تستشعرين سعادة تسحبك مع الحنين. سعيدة أنت فجزؤك سيعود لكه. للأرض وللتراب الموحد بالمطر ورائحة العطش الذي ينطفئ بسعادة ويلد الزهر والعمر، سعيدة أنت الآن يا حنان، رغم كل ما حدث.

-٤-

الشوق يلفحك بناره كلما اقتربت المسافة، يمد يديه الطويلتين ويأخذك، يحاصرك بالذكرى ويغرقك بالتفاصيل، حيث الأحاديث لا تنتهي، فأين تهربين من كل هذا الإلحاح؟

هل الدار كما هي في هذا الوقت؟

هل الباحة الواسعة أمام الدار هي ذاتها بقوارير الريحان وفم السمكة
والمموجة وعريش العنب وشجر التفاح والجوافة والليمون والرمان والتين؟
أما زال الرجال يجتمعون تحت المظلة المسقوفة حول والدك بالأحاديث
الساخنة وكانون النار الذي يتلوى بالجمر حتى آخر الليل، وأنت تتجسسين
على حكاياتهم مثل أم تخاف على ابنها المراهق؟

هل الأرض كما هي؟

أما زال جرير العيسى يغدو إليها كلما أصابه الحنين؟

أبقي يجمع زهر النرجس وقرن الغزال والحثون الأصفر، ويلعب زهر اللوز
حتى تسقط واحدة تسد جوعه لأملك يومًا آخر؟ أما زال كلما عصره الحزن
يضع على قبرها باقة من الورد الأبيض؟ يرش الماء ويدعو لها؟ أما زال يردد
اسمها كتعويدة ويغفو؟

كان يقول: أملك صبرت على غيابي الطويل وعلى قسوة الزمن، لم تتركني
يومًا، عرفت كيف تبقى، حفرت نفسها فيّ.

سيأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع: عارفة يا حنان؟ السنوات الثمان التي مرّت
ما كانت لتنتهي لولا رحمة ربنا، حُكم عليّ بمؤبّد، أملك صبرت.

كان قد خبأ فتح الله في بئر أسفل الدار التحتا، البئر الذي بُني فوقه فلم يعد
يبين إلا بالتدقيق الشديد.

والدك قال إن فتح الله رجل مبارك، رآه بأم عينيه يدخل مرة بين قطع
الأغنام في حظيرة بيت مسعد إلا أن أيًا من الغنم لم يجأر بأي صوت، وحين

جاؤوا ليلبحثوا عنه استبعدوا الحظيرة من فرط الهدوء الذي كانت عليه.

تعلّق بسلم البئر لنصف ساعة في بيتكم، جاؤوا خلالها ببدايتهم الثقيلة
وأسلحتهم، بدوا متأكدين من وجوده.

خلعوا الباب الخارجي ودخلوا.

نثروا الدار فوقكم وغادروها دونه، لما راحوا غادر فتح الله البئر، ودّعه والدك
بعيني أب، وضمه بقوة، مرّ وقت بسيط ولم يعد فتح الله في مجال الرؤية،
نظرت لوالدك فرأيت وجهه مغسولاً بالدموع.

أخذ يحكي عنه طول الليل: شفتوا عملية غرب القدس هو اللي خططها، أي
والله، كان كميئاً، اسمعوا.

وتحلقتم حوله، أنت وأسامه وأمك وخالك عبد الله وعمك مصعب.

«غرب القدس، قبالة مركز المؤتمرات الرئيسي تمامًا، كان هناك موقف
للحافلات العسكرية، يوم الأحد يتجمهر الجنود لتقلهم كلاً إلى قاعدته.

اختار فتح الله، إسماعيل للمهمة، كان رجلاً من قرى الـ٤٨، عمره خمسة
وعشرون عاماً، شديد البياض، ذو زرقاة هادئة في عينيه، كما أنه كان متقناً
للعبرية بحكم تعلمه في حيفا، كانت الخطة تقضي أن يرتدي البذلة العسكرية،
ويحمل في حقيبته عشرة كيلوجرامات من المتفجرات ويشعلها،

وفعلًا.

حدث ما خطط له تمامًا، وكانت حصيلة القتلى ثلاثين جنديًا وإصابة البقية، هذا غير الخوف.. الخوف».

كان ملامح والدك منفتحة، صار وجهه صافيًا واختفت تلك الاختناق التي يمكن لمحها في وجهه مع الدموع، كان يحكي عن فتح الله بفخر كبير، لم يكن يخفى أنه كان يتمنى أن يكون أسامة أيضًا شبيهًا بفتح الله.

في الصباح، بعد صلاة الفجر بقليل، كانوا يطوقون المنزل وأخذوا والدك، عمك مصعب بصق ثلاثًا، ثم بدأ يصرخ: هاد ابن الكلب، والله ليعرف مين دار العيسى.

ولم تعرفي ما معنى ذلك، لكن شيئًا كان يضغط على صدرك الصغير ويملؤك بالاشمئزاز.

«رامي هو من فعل». كررها خالك. كان يقف أسفل الرومية المقابلة للبيت طول الليل.

خالك زاد عليه: لم يعد لبيته بعد العشاء، رأيته يتجه للرومية بعد صلاة الفجر ويرطن مع رجل بالعبرية بعد أن خرج من المسجد.

رامي نام فيها إذن.

الرومية قبالة الدار، الساحرة المجوفة من الداخل ككهف صغير، الزيتون القادرة على منحك شعور الأمومة كلما نظرت إليها، التي تمنحك ذلك الاحتواء النادر.. رامي اختبأ فيها مراقبًا الدار.

فهمت أنه خان الرومية حين كبرت.

تذكرين أمك حين قالت يومها: «إن بعض الظن إثم». ثم أتبعته: الرجل لا تفوته صلاة الفجر جماعة، اتركنا من دار الجيزاوي ربي يخليك.

لكن عمك قال بعصية: ظن؟ بشو بتفسري نومته في بيت حماد لما اغتالوه الصبح؟ وزوجك سجن، أنا شفته بعيوني الثنتين تحت الرومية بعد الصلاة.. الصلاة ستار بغطي فيه عيونًا.

استغفرت وصمت.

لكن الجميع بعدها انتشى بانتصار الرومية حين سمعوا بتصفيته في تل أبيب.

الخائن يقتل.

أثناء ذلك صدر الحكم بسجن والدك مؤبد.

«مؤبد واحد ولا خمسة وعشرين مؤبد». ضحكت إحدى الجارات، لكنها لملت ضحكتها واعتذرت لأمك حين رأت أي عتب هذا الذي هب في ملامحها على غفلة.

الحقيقة أنك أدركت نظرة تشفي بين أسنانها الصفراء.

عندما زارت أمك سجن «عوفر» قال لها جرير العيسى إنه يمكنها بعد اليوم أن تتحرر من قيده، وأنه سيطلقها، فبكت، نشفت دموعها وصمت طويلاً، لكنها

سرعان ما أخبرته أنها اختزنت كل لحظة عاشتها معه، وأنه يكفيها البقاء على أمل عودته.

قال: قد لا أعود.

زجرته كأم وحسمت الأمر: ستعود. فاهم؟ ستعود.

لما عاد كانت مضطربة جدًا، متوترة توشك ثورة ما أن تهب فيها.

أنتِ لم تنسي وجه والدك الحزين وهو يخبرها أن حوضه كُسر أثناء تعذيبه وأنه ما عاد ينفع، لم تنسي وجهها الذي بدا معفّرًا بالخيبة حين قال ما قاله.

ولما ماتت أمك، لم لم يتزوج؟ أكان السبب عقمه أم الحب؟

كُفّي عن نثر الأسئلة اللثيمة.

طيب، ما الذي فعله والدك بعدك؟

أأنتِ مشتاقة لوالدك فقط؟

أما تأكلك الرهبة والخوف عليه حين يسمع الكلمة على مداها.. «مطلقة».

أتراكِ ستبقيين حنان ذاتها في عينيه؟

وما الذي ستقولينه يا حنان؟ ومن أين تبدئين الحكايات المبتورة وكيف تجملين أطرافها كي تبدو أكثر احتمالاً؟

على الغداء أبدى رأيه: اللي بتعرفه أحسن من اللي ما بتعرفه. وإلا شو رأيك
يا بابا؟

لم يكن لك رأي.

تكذبين.

حسنت كل شيء، وتوهمت أنه كما في خيالك: رجل مهيب.

وتممت: كما تريد.

قلتها بحياء ثم تراجعت حين فكرت بوحدته.

هاه؟

بحياء؟ وهل فكرت بوالدك حقًا؟

كنت أنانية يا حنان، لكن كلماتك التي خرجت بعد ذلك كانت كواجب لا أكثر.

أكنت تقصدين ما قلته: لمن سأتركك؟ أسامة في أمريكا، وأم... ولم تكملها
حين شعرت بغصة يحاول ابتلاعها.

بل كنت كذلك.. كانت تلك غصتك أيضًا، كان قد اتخذ قراره: توكلنا على الله.

الهاتف في يده. وعمك على الطرف الآخر يطلب بنتًا لم يرها إلا طفلة لابنه
الدكتور سميح جمال العيسى.

ووالدك يردد: توكلنا على الله.

جاءت عمتك وألبستك دبله ذهبية في يدك اليمنى. ودَعَت نساء الحي ومن تعرف لحفل وداع بدل عرس سيتم هناك، في الأردن.

لِم لم تسمعي كلام أم أحمد؟ «تزوجي هون. شو بدك بغلبة الأردن وبهدلة الطرق لتشوفي أبوك؟».

قال أبوك ليلة السفر: «لا أعرف ما الذي كانت ستقوله أمك اليوم تحديداً، وأنتِ على وشك الزواج؟» حاولتُ التخمين، وخجلتُ أن أسأل أم أحمد، أو أحداً، قلت إنهن حتماً سيفعلن دون طلب، ثم إن جيل اليوم واعٍ، وطبعاً تعرفين.. الشيء الذي وجدت أني على رغبة حقيقية بقوله هو أن تطلقِي خيالك لتأمل هذه الآية من سورة الحج: «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج». هذه الآية تحديداً جاءت بعد ذكر مراحل خلق الإنسان إلى وفاته، رحتُ أنظر فيها على رقتها ودقتها وجمالها، إنني لا أزعم هنا أنك أرض هامدة، حاشاك! لكنك ثمة ذلك الحب الذي يمنح لقاء الماء بالأرض رعشة وهرة، دون ذلك لن تترعرعي فرحة، ولن تنبتي ثمراً بهيجاً.. تذكرني فقط أن البهجة في الحب ذاته.

يومها قبّلكِ على رأسك، ودعا لك.

والآن...

كيف ستجروئين على كسر قلبه الصغير بهومك وأحلامك التي تناثرت كالريش في وجهك؟

عندما سلّمك لسميح، وفكّ ذراعه عن ذراعك وددتِ لو تصرخين أن يبقى، ألا يتركك، وأنت ما عدتِ تريدين.

لكنك لم تفعلي.

شعرتِ بصّارة كبيرة في حلقك، وبرغبة في التراجع.

الشمع أمامك كان يذوب في أيادي الصغيرات اللواتي لبسن الأبيض، وسبقنك في الطريق «للّوج» المزين بأضواء تومض بسرعة. ابتسم وغادر.

أخذت عيونك تتفحص الطريق للوراء وتتمنى لو ترجع.

كنت غريبة، الغربة بدأت حين فكّ ذراعه عنك، وعاد دون أن تعرفي، أفرخ هو أم أنه الكبرياء؟

كانت الغربة لا تعنيك قبلاً.

إحساس لآخرين لا يهتمك أمرهم حتى أصبحت منهم، وعرفت كيف تجترئ أجزاءك، وكيف تمنح روحك القدرة على نوح أعمق.

الآن ودّعت الغربة، ودعتها ولن تعودني إلى طعمها المر أبداً.

امرأة عمك قالت إنها تغبطك، وإنها تود لو أن الزمن يعود كي تعود للأرض ولزراعة البيارة بالبرتقال بدل الشلل الذي تستشعره كلما فكرت بمرج بن عامر. كانت تسألك: هل كان ما حدث في حرب ال٦٧ أكثر من هزيمة عدو حقاً؟ وهل سينسى أحد أي ثمن دفعه وما يزال؟

لم تنتظر جوابك، بل شرعت تحكي عن عمك رائد، وكيف أنه تكسّر: «لما عرف أن السلاح اللي بإيده مصدّي صابه جنون، هو بضرب وما في شي بطلع منه، والطخ قايم، شاف أصحابه بنقتلوا وهم يحاولوا يضربوا، بس ما في شي، ماتوا. كان يصحى بالليل ويحكي لي ماتوا يا نبيلة، ماتوا. ما كان يهدا إلا لما يعيظ. كانت الحسرة صايبتة.

ومات وهو بحكي ما ضل شي، شايفة يا نبيلة رح اندفن هون برة البلاد، هم سبقوني وماتوا يا نبيلة، ماتوا جوة البلاد».

ثم انتحبت بالغناء للبلاد:

وبحياة النبي لا تدشرونا
بوادي الحنينا بوادي الحنينا
وجينا ع بلاد اللي فيها يلومونا
دشرنا كروم العنب والتينا

حين دخلت خالتك وسمعت امرأة عمك تغني لكروم العنب والتين الذي تركنه
شرعت تبكي هي الأخرى.

لا أحد يبكيك هنا يا حنان، الكل يبكي همه وحزنه وغربته.

هكذا هي الأحزان عادة، تفتش عن الجرح وتظهره بكل مغرياتة.

لا أحد يبكي أحد، الكل يبكي ذاته.

وهناك كل واحدة نسجت «ترويدة». ترد فيها على أغنية الأخرى وتبكي.

بكيث من أصوات غنائهن الحزين وهن يرسمن الغربية، ويمنين القلب بلحظة
يمكن لهن أن يتنفسن هواء البلاد.

فهل بكيت لأجلهن حقًا؟

أم لكل الذين يتوقون بقوة للبلاد ولا يطولون منها إلا الذكرى البعيدة
المغبشة؟

أترك بكيت ذاتك كالأخرين، وكل ذلك لا يعنيك؟

«البلاد راحت. راحت.»

طريق الوصول إلى الضفة الغربية ما يزال طويلاً.

صوتهن يتردد الآن في أذنك كما هو برجرجته المتموجة، تختلط مع صوت
أبو عرب لتصبح نغمة واحدة:

عنت ع باب فراق ديرتنا

وتنهيدة الحصاد تالي العام

وموال من رجال حقلتنا

وفيه زتونة معبعة الكمام

وريحة خبز طابون حارتنا

«أمانة سلمي ع ترابنا» هكذا ودّعنا.

ماذا لو لم تكن هذه السيارة؟

ماذا لو كان خيلاً؟ بالمقدور لمس جلده وعضلاته وهو يتحرك؟ لو أمكن الشعور بالريح والسماء والأرض؟ إن هذه السيارة تطوي الأرض دون أن أشعر، لا ألحق القرى المتناثرة على طول الطريق، لم أتمكن من معرفة أسمائها، وتأفف السائق بعد سؤالي عن أول ثلاث قرى، وتبرع هو بالحديث عن قرى أخرى، لكنني أعرف هذه الملعونة دون أن يشير.. أعرف هذا الوجع، بينما أرفع رأسي لجهة اليسار، لكن السؤال المفاجئ الذي يخزّ في عظامي كالبرد، كيف أمكنني أن أعرف أنها مستوطنة آرائيل؟ بينما أجهل أن هذه القرية هي قريوت، أو تلك هي تلفيت؟

ألأننا نعرف آلامنا أكثر مما نعرف أجزاءنا الثابتة الصحيحة؟

آه!

هذه المستوطنة تستهزئ بك الآن، تتوغل جسد الأرض بعنف لا متناهٍ، تغتصب التربة على امتدادها الطويل جداً.

آه.. إنها تهزأ بك يا حنان.

تهزأ بنا!

أفعى تتلوى، تتمدد طويلاً، تظهر جسدها الباشق، تتغنّج كأنثى أمام رجل تريده.

وآرائيل تتابع إفساد مشهدك على خصوصيته، لتجثم على الأنفاس والذاكرة، تمتد لتعلن أنها الحاضرة هنا، كشوكة يصعب انتزاعها، وأن عليك/نا التسليم أكثر، لسخف ما نحن فيه.

هي تأخذ منا شيئًا كلما مررنا، تأخذ شكلاً تجهلينه، تكتنزه.. وتعود لتمدد أكثر.

أكثر.

أكثر.

حاجز «زعترة»، يبدو نقطة من بعيد، تكبر كلما اقتربنا.. من بعيد تظهر خوذ الجنود الإسرائيليين وهم متوقفون ببنادقهم الثقيلة وملابسهم المصفحة، كشكان صغيران يظللانهم، كل لاتجاه، الخارجين من نابلس والداخلين للمناطق الفلسطينية الأخرى. الجو بارد جدًا، شعرت بذلك يزداد حين فتحت نافذة السيارة قليلًا فقط، للحظة راودك خاطر أنهم يتحملون لأجل قضيتهم، مهما كانت ظالمة وغير منطقية البتة.

كلما اقتربت من الحاجز، شعرت أن ثمة ما يخنقك.

تتوقف السيارة، ينظر جندي إسرائيلي أشقر إلى داخل السيارة، يأمر بجمع الهويات الفلسطينية، يدقق النظر فيها وفي قائمة لأرقام هويات طويلة، فلا يجدون ما يطابق أي رقم مطلوب، فتُعاد الهويات، يعيدها مراهق أسود مثيرًا كثيرًا من الضجة موجهًا رأسه لمجندة قريبة منه.

ويعود محرك السيارة للاشتغال.

الأماكن تزداد في الحضور، والطريق الذي سرنا خلاله ونحن أسرة كاملة
يتكرر، أحسّها اليوم ثقيلة، فيما أعبرها وحيدة.

السماء تميل لبياض يتخلله بعض الرمادي، الأرض إلى يمينك تجتاحها فتنة
اللوز بزهره الأبيض والزهري وألوان تتراوح بينهما، قرب السماء بيوت، بيوت
كبيت عمتي وجدتي ومنزلنا العتيق، حجارة مرصوفة وأشجار الليمون
والتوت تطوّقها.. قرب السماء بيوت وطفلة تتأرجح.

قلبك..

تتحسّينه.

قلبك هناك، معها، يتأرجح بالذكريات والطفولة والحياة.

تتأرجح الطفلة ببطء والسيارة تسرع، تطير.

لا تتابعين النظر حولك، ولا تأخذين الطفلة بين الحبلين المعلقين على شجرة
بلوط كبيرة، لا تخافين عليها من السقوط، ولا ترفعين الأرجوحة لأعلى، أنتِ
أيضًا لا تغنين لها: ع العالي يا حلوة، طيري.

لا تجذبينها لصنع طائرة ورقية، ولا نطّيرها، بينما يزداد الجو برودة، لتقولي
لها: تعالي ندخل البيت، فترجوكِ بنظرتها: ابقى وغنّ لي: يا طيارة طيري من
ورق وخيطان.

أنتِ لا تفعلين يا حنان.

لا شيء تفعلينه هنا، إلا أن تحلمي بكِ معها، تلك الطفلة ذات الفستان الأحمر
المزركش، تمشطين شعرها الكستنائي وتلعبان، تلعبان.

ابنتكِ التي تأتي في المنام أصغر، كانت تفتح فمها فيتدفق الحليب، وتضمها
جنباتك فترضع.

أتراها تصبح حقيقة يا حنان؟

مطلقة، فمن سيأبه بكِ؟

السيارة تمشي، تجتاز الطفلة المتأرجحة بأميال، و«حوارة» يتوقف بكم، ما
تزال الرغبة تطلب العودة إليها، أن تتأرجحي معها وتغني لها، أن تقلبي دورك،
لتصبح أمًا وأنتِ طفلة.. لو!

ها أنتِ تقتربين من نابلس، لتذهبي إلى قريتكِ.

تل اللوز.

عند حاجز «حوارة» يبدو أن صخرة تجثم فوقك.

حاجز «حوارة» متغير، بلع أراضٍ مجاورة، فصار أوسع.

الأرض طرية بعد المطر، والجرافات تحفر، تنخر رقبتها بقسوة، وإذ تمرين من
الكراج لتقدمي هويتك الخضراء عند نقطة التفتيش، فإن رأسك الذي يطرق
يخدر أي شعور آخر، سائقو سيارات الأجرة ينادون على كل مار: القدس، رام
الله، أريحا، سلفيت، رنتيس، مادما، بورين، عورتا، كفر قليل، عصيرة، الساوية،
قبلان، يتما، بيتا...

هناك أسماء لم أسمع بها إلا الآن.

لم تصرين على توبيخي لأنني لا أعرف؟ انسي كل هذا هيا، عما قريب
ستعانقين والدك وستنسي.

أتذكرين؟ قبل سفركِ إلى الأردن بكيت، جذبتكِ أم أحمد لها ووشوشتكِ فيما
بسمه تحاول إخفاءها تنتشر في كل وجهها، قالت: يا بنتي لا تبكي، رح
تنسي اللي خلفوكِ في حضن سميح.

فهل نسيتِ؟!

أنتِ لم تنسي حتى القطة التي كنت تكرهين مواءها بالجوع لتمنحها أي
شيء.

أم أحمد كانت بمكانة أمك، ستلتقينها في تل اللوز حتمًا، وستحضنكِ عميقًا،
وستوشوشينها معاتبة: لم أنسِ أحدًا، أنتِ لم تعلميني كيف أنسى!

ستطلبين منها رغيفًا طابون ساخنًا، فهي الوحيدة في الحارة التي لم تستبدل
غاز البوتوجاز بالطابون، هي مثل أمك، لم تقتنع أبدًا بأن للخبز طعم إن لم
تسكب الماء الدافئ على الطحين الأبيض المخلوط بنخالة القمح، وتخلطه
مع الخميرة المنتشية بحلاوة قليل من السكر.

هي هي، كأملك، ذات الحنان والبوح والنظرة الحزينة. لا تذكرينها إلا بتجاعيد
دقيقة تتشكل حول العينين السوداوين الواسعتين. وجهها الحنطي لا يخفي
شيئًا، كل شيء فيه عارٍ حد الفجيعة.

كنتِ صغيرة عندما فقدت ابنها الأوسط موسى، يومها لم تبكِ وهي تتمتم:
«ابني شهيد، ليش البكا؟!».

لكن ملامحها كانت تحتقن بالدمع والحسرة، كل ما فيها يستيقظ فجأة، فينثر
تفاصيل الدم في أرجاء القرية، سمعتها حين جاءت لأُمك رحمها الله:
«تعرفي؟ شفته.. دايمًا نفس الحلم، لو أعرف شو تفسيره؟ بشوفه ببوس
راسي، لما آجي أمسك إيده بتروح، يتزحل مثل الصابون، وبطير، ابني بطير».

هي لا تذكر فقط أنه يقبّل يدها، بل وتذكره يطلب غداء تُعِدُّه دسمًا كي
يتخلّى عن نحافته تلك. لكنه يغيب ولا يأكل.

أم أحمد تلمستُ شكل الفقد بين يديها، قالت لأُمك إنه يشبه القنفذ، كاتم
اللون وموخز وبشع.

سترينها، وستخبرينها بكل شيء.

السماء تخفي لونها الرمادي.

تكرهين السماء الرمادية، إنها توشك دومًا أن تكون صارخة بفجاجة ولامعة
بالرعب.

أي عمر هذا الذي ينتظركِ يا حنان؟!

ينفلت السؤال، بينما تتحرك السيارة باتجاه القرية أخيرًا.

تستيقظين من نفسك، ويصبح ما حولك تاريخًا على شكل حاجة ملحة
بالنظر خلال الشباك.

إن أي إغماضة عند هذا المكان أشبه بخيانة.

أمام كل هذا الجمال يبدو التفكير في شيء آخر خيانة حقيقية.

وكامرأة جميلة تأخذك ملامحها رغماً، فتنظرين بلا قيد، تنظرين، لكنكِ
تكتشفين أن جمالاً رائعاً كهذا تفسده تعرجات هياكل فوق جسدها الفتى،
لتفقدتها التناغم فجأة.

كانت الأرض هكذا تماماً، حين تظهر مستوطنة وتختفي، لتظهر أخرى.

عتمة

-١-

ملامح وجهها المشتاقة بدأت تخفُّت.

تُخطف، شيئًا فشيئًا.

ثمة رجال كثر أمام باب البيت الحديدي الكبير يحوقلون في الثواني التي
مرت خلالها أمامهم.

كانت الوجوه التي تنظر إليها بإشفاق بالغ وحزن بائن تقلقها وتخلع قلبها
الموجوع من مكانه.

وحين تعدّت الساحة المصبوبة بالأسمنت والرمل الناعم، زاد توجسها، وكادت
خفقات قلبها تُسمع، قدماها التي تعرفهما مسمارين، هزّلتا. لم تسأل لِم تتجمع
نساء القرية -حتى الجارات اللاتي لم ترهنّ من سنوات، ولا في طرقات
القرية- كلهنّ شكّلت دوائر مكتظة في الصالة على ضيقها.

هي لم تسأل لِم.

فثمة نظرة ألقته حيث تتحلّق نساء العائلة، نظرة عابرة لكنها ستصبح النظرة
الأكثر ثباتًا وإيلامًا، النظرة التي جعلتها تفهم.

هي لن تذكر بعد الآن خطواتها التي استعجلت الطريق، ولن تذكر إحساسها باللهفة والحنين، لن تذكر سوى وجه والدها الأبيض، وصوته الذي لم تسمعه.

لم تنبس ببنت شفة، الكل توقع أن تبكي أو تدمع أو تولول، لكنها لم تفعل، كانت تشعر أن فراغًا ثقیلاً يهبط على قلبها، أنها تائهة، وأن مشاعرهما تسبح في الرقم صفر.

أم أحمد امرأة عمها أمسكتها. قالت: ابك يا حنان، لا تقفي هكذا.

كانت الكلمات في داخلها تتكرر كصدى في كهف أجوف، تعبر وتخرج دون أن تعلق.

وكان أن نطقت أخيرًا كلمات بصوت راجف، منكسر، منطوق للفراغ، وبمنظرة ساهمة معلقة: «أُخْرِجِي من في الغرفة؛ أريد أن أكلمه وحدي».

ولما خرجت للنساء قالت لهن إن الرجال سيحضرون بعد قليل، وإن العزاء سينقل إلى بيتها اليوم بعد صلاة العصر، فهبّ الضجيج كالرائحة، حتمًا ستسمع المرأة الصامتة رغم حزنها النساء يرددن طلبها كما لو أنهن ينتظرن أي شيء لتتناقله الأفواه، كنّ ينتظرن أي كلمة لصنع قصة تليق بجلساتهن على كثرتها، وصلّت التمتعات عالية: لا حول ولا قوة إلا بالله. جنّت المرأة، بتطردنا!

وحين فرغ المكان منهنّ انطلق الرجاء مشددًا: اترکيني معه يا خالة، كان لا بدّ أن تعصر أم أحمد يدي حنان بين يديها دون أن تشعر، وكانت الأخيرة واقفة

كقالب مصمت غير قابل للضم أو المواساة، إذن، فقد كان لا بد من إخبار حنان بأنها نصف ساعة فقط وسيؤذن لصلاة العصر، وأنه وقت تشييع جنازته.

كان قلب حنان يخفق بقوة حين أصبحت وحدها مع جثة أبيها جرير العيسى:

«لا أعلم لم أتذكر أمل ابنة خالي الآن؟ ربما لأنها كانت أول طفلة رأيتها، حينها كنت في السادسة، كانت أمل تأتي في ذاكرتي هكذا: الطفلة المقمطة بالأبيض. كنت أنظر إليهم يشدون وثاقها خشية أن تتفلت يديها الصغيرتين فتفقد النوم.. قالت أمها إنها دون تلك الأقمطة لن تنام! بدا لي أن النوم مربوط بالأقمطة التي تلف أجسادهم بوشاح أبيض، وها أنت يا أبي تستحيل جثة ملفوفة بالأبيض كأقمطة أمل، ألكي تتعلق بالنوم مثلها؟

حين كانوا يفكون عن أمل تلك الخيوط الدقيقة التي تمر على جسدها من أعلاه لأسفله، كانت تضحك، تلوح بيديها في الفضاء أمامها، تحرك قدميها الدقيقتين كدمية. كنت أرى أنها تتحرر، وتسعد، فصرْتُ أتسلل إليها وأفك الوثاق، ثم أخرج بنشوة بالغة. يسألون كيف فككتها؟ ولما تعذر عليهم معرفة الفاعل المجرم، أطلقوا عليها: «قوية من يومها» هذا اللقب الذي أطلقته عليها أنت أيضًا. والآن؟ أفك الأقماط لك؟ هل ستتحرك حينها من النوم، للحرية والحياة وإطلاق اليدين والقدمين في الهواء؟

أنت الآن ميت، لكنني أستحضر الولادات وصراخ الأطفال وغنجهم، ولعبهم في الحوار، وأسمع الأشياء التي لم أرها، تلك التي حدثتني عنها. أنا مستغربة من ذلك، لكنني أقول لك ما أفكر فيه مباشرة. أشعر بأن قلبي

يستحيل قطعة عجين مختلطة بأشياء لا أعرفها، يعز عليّ عدم وضوحها
البتة.

قل لي؟ أتريد أن تعرف كيف مضت ستة أشهر كاملة؟ قالت امرأة عمي إنها
نصف ساعة فقط، هي لا تكفي، تمنيت أن أضمك إليّ قويًا كي أعوّض ما
فات، يقولون إن ضم المشتاقين بعضهم لبعض يُنسي البُعد ولو كان دهرًا،
وكنت ملهوفة عليك.. لم أكن كما تريد يا جرير العيسى، شوقي للبلاد
أضعفني، غير أنه منح الدنيا لوّنًا».

كانت جبهته التي قبّلتها باردة كالثلج، لامعة كشمع ناعم.. ثم ماج شوق جعلها
تقبل وجهه كلّهُ.

مررت شفتيها على جسده كعاشق أظماه الحب حد الامتلاء.

كلّ ما فيها كان يستشعر جسده، تفكر كم مرة عانق التراب دون أن يذوب فيه
حقيقة، جسده الذي آوى كل الزنانات على عكس ما تظنه الصدور بأن
الزنانة تحوي ولا تُحتوى.

جسده الذي لم يبكها إلا بالدم، ولم يتكلم إلا بلغة الصبر والصمت، جسده ذاك
العصيّ الذي فقد ماء طفل بقي يحلم أن يكون له.. يداها اللتان تتحسسان
طريق شفتيها قبل أن تمرا فوق الأبيض البارد، يداها الراجفتان، الخائفتان
من أن تחדش فيه شيئًا، يداها كانتا حلمه لو كان حيًّا.

ظلت تتحدث أمام جثته كما لو كان يقظًا، دون أن تبكي، كانت مدفوعة
للحكي لا للبكاء، فلبكاء وقته الذي لم يحن.. ثم إنها لم تُرد أن تبلل قطن فمه

وأذنيه. أعادت القطعة القماشية التي تلف طرف جسده ناحية الوجه، ونادت على أم أحمد، فمدت الأخيرة كفها فشدت حنان إليها فوقفت قائمة.. كان يمكنها الآن أن تُحضن، فتلك اليبوسة التي بدت عليها قبل أن تحكي مع والدها تراخى، دون أن تعرف السبب.

دخل الرجال وأخذوا جثة والدها إلى مسجد القرية، هرولت خلفهم إلى مسجد النساء الصغير، فرشت سجادة الصلاة أمامها، كبرت بعد تكبيرة الإمام أبو جاسر، كبر الإمام أربعًا، وسلّم مرة واحدة عن يمينه، ثم قام الناس إلى المقبرة، ودفنوه.

كانت حنان في تلك اللحظات بالذات سائرة من المسجد إلى دار أم أحمد، فيما تشتعل في عقلها كل الأوردة التي تعلمتها والأذكار والأدعية التي عرفتھا، بل واستطاعت أن تبتكر أدعية جديدة تستجدي فيه الله، ذاكرة خيرات والدها، ضاربة أمثلة كثيرة عن رقة قلبه ورأفته ورحمته، فالله رحيم.

كانت قد تعلمت أن الميت ما إن يُدفن حتى يُسأل عن عمله، ثم سيبين مقعده من الجنة والنار، وسينقلب قبره لأحدهما، قد يوسّع حتى يصبح بستانًا، وقد يضيق، لا، لا، صرخ قلبها، ثم عاد يتضرع: يا رب، يا رب.. حينها فقط بدأت دموعها تقطر.

وكان أم أحمد تعرف إلى أي المسارات يذهب فكرها، فبرّدتها بكلماتها، بينما كانت تربت على كتفها، وتمسح دموعها بيدها: والدك كان شابًا يعرف ما يريد، وزوجًا وأبًا رائعًا، ثم صبر على السجن، ولما خرج فعل الكثير كي يعوضكم، نظرت إلى وجهه؟ رأيته كم كان أبيض وناعمًا؟ قال لي أبو جاسر لَمَّا خرج

من غسله: «وجوه يومئذٍ مسفرة، ضاحكة مستبشرة». قال إنه أثناء غسله شعر بالجنة.

وأخذتها إلى بيتها.

وبيت أم أحمد ذو طراز قديم.

الباحة الخارجية مبلطة برخام قديم أملس، وحولها أشجار الليمون والتين والرمان، وكأي بيت عتيق من بيوت القرية تطلّ الباحة على بايين كبيرين لدارين مقببتي السقف، متصلتين من الداخل بمطبخ وحمام حديث.

لم تتوقع أم أحمد أن تجد نساء القرية كلهن متجمعات في الدار، وحين دخلت حنان بجلبابها الكحلي وشالها الأزرق الفاتح، ووجهها الهادي، وعيناها اللتان تخفيان الدمع، وقفت النساء وتجمهرن حولها، لم تقل شيئًا، لكن كلمات العزاء كانت تصلها حيث تقف، ضخمة وكبيرة، كنّ يدخلن الباب، يتأملن وجهها المحمر، ثم يبدأن بالحديث عن والدها، وحين لا يجدن إلا الصمت وأدعية تتناثر حول اسمه، ينتهين فجأة حين تكتفي حنان بـ«اللّٰه يرحمه»، وبإغماضة تفصلها عن حولها، ساعتها كنّ يسلمن عليها ويغادرن سريعًا، كأن صمتها شبح سيأخذهم أيضًا.

وحدها امرأة عمها من لم تغادرها روحًا أو جسدًا.

حنان تذكر جيدًا كيف أصبحت أم أحمد أشبه بأمها بعد أن ربتت على كتفها حين فقدت زوجة جرير العيسى، يومها بكت معها على صديقتها وسلفتها،

نامث في حضنها وبقيث تطبطب. نظرتها كسنبلة ناضجة تحنو كلما هب
الريح، حنان تحبها لأنها كالسنبلة، تشدها إلى الأرض أكثر.

وها قد مات جرير العيسى، لتمشي بجوار حنان قرب الصور والشبابيك
والأبواب.

أم أحمد تفهم وجه حنان، وصوتها الذي لم تنطقه طيلة ثلاثة أيام، وتعرف أن
للأشياء السنة ستجيبها عن أسئلتها المتدفقة، وستمنحها أكثر من الكلام.

كان الوجد متجمعًا كشوكة قدرة تقض مضجعها وروحها التي تكتوي ولا
تنام، لم تتزحزح كتلة مشاعرها ببكائها الشحيح، فأصابتها الحمى.. لم تكن
حنان تعتقد أن البكاء عيب أو ضعف كما قالت لها امرأة عمها، كل ما في الأمر
أن رغبة البكاء كانت مؤجلة دون أن تعرف لم، ولم تكن تحكي، لأن لا شيء
تريد أن تقوله ببساطة، كانت تعلم أن الصمت حزن أيضًا.

مسحت أم أحمد وجه حنان بخرقة مبللة بالماء البارد وبدأت تحدثها:

- تعرفي يا حنان؟ لما توفي عمك لم أصدق كيف لهذا الجسد أن يصبح بلا
صوت، وبلا أنفاس، وبلا إحساس كأنه لم يكن! سبحان الله! ستصدقين لو
قلت لك إني إلى الآن أنتظره؟! رأيت جثته وهي تتوارى تحت التراب، ومع
ذلك ما يزال موجودًا في نظري، أحدثه وأخبره عن الأولاد ومشكلاتهم، وقبل
أن أنام أفرد منامته وأحكي له كل شيء! حين نحب يصبح الآخر بالنسبة لنا
روحًا نتوق لكمالنا بجسده، وحين نحصل على الجسد يصبح لذة، وعندما
نهرم ينضب ماء الجسد لتبقى الروح نهرًا.. يأتيني في المنام ويقول لي: أحمد
يا نبيلة، مي، إياد، عيسى.. ديري بالك عليهم. ثم يخبرني أنني سألقه حين

أشكو بُعده، ملابسه كما هي في الخزانة وأشياؤه، هناك شيء فوق الملموس
نشعره باللموس، لا أدري كيف، لكنه شعور! أنا مؤمنة أن المشاعر لا تُوضع
في إطار وصفي ما، ربما تعرفينها حين تدخلين المنزل أول مرة بعد غياب أبو
أسامة.

عندما كان الناس حولي لم أكن أشعر بوحشة فراقه بعد، لكن عندما فرغ
العزاء ودخلت غرفتنا أحسست بالفقد، كان الفراغ هو ما حل مكان الأشياء،
إحساس يشبه ذاك الذي كنت أشعره حين كان يسافر، وضعت ملابسه التي
كان يرتديها آخر مرة قربي ورحت في النوم. تعرفي؟ لما استشهد موسى،
حسست بقطعة مني اقتلعت من مكانها، مثل سن مخلوع، يد مبتورة، قدم..
لكني اعتدت مكانه فارغًا.. الزوج غير، عمّك لما مات أحسست أنه مسافر،
أقول سيعود. هل أكذب على نفسي يا حنان؟ أم أنه مسافر حقًا؟

- نحن المسافرين يا خالة. أحيانًا أتخيل أن هذه الدنيا حلم سريع، وأناي
سأصحو يومًا منه، أبي استيقظ منه، سيأتي دوري.

- بعد عمر طويل. إنت لسه بشبابك، رح تعيشي وتخلي صبيان وبنات إن
شاء الله. المهم العيلة تظل. فكري بسميح وبالأولاد اللي راح تخلفيهم معه،
راح تنسي.

بعد حوارهما راحت الحمى من فورها، غير أن كلمات أم أحمد الأخيرة أخذت
تعيد حنان للدائرة نفسها: - معقول يكون عندي أولاد يا خالة؟

السؤال المعلق الذي لم تخرجه، وما تزال الإجابة مستعصية على الحضور،
مرسومة بيد القدر.

ما يزال الباب مشرعًا خلفها، وتود لو أن خطواتها العائدة لإقفاله تلغي مساحة الألم المتكئ عليها، حقيبتها قرب باب الدار والدفتر الأسود فوقها، تفتح عينيها على المكان: الساحة كما هي، عريشة العنب تنتظر الشمس كي تشرق بثمارها، التفاح والزيتون والرمان أخضر، كما قلوب المحبين، وحده منظر عروق التين يخيفها، إذ يشبه أظافر الغولة التي سمعت حكايتها مرارًا من أمها.

تلك الحكايات المنقولة عن أبو جريس المسيحي، الرجل الذي يقدم من عابود في جنين إلى قرى مرج بن عامر، بالهدايا والحكايا والسمر. دارت حنان بوجهها حيث الباب الداخلي، فبدت لها الأشياء متموجة كالماء، كان الغرق يأخذ الأشياء من أمامها، والليل يهجم رغم أن الشمس ساطعة اليوم.

الجدران نفسها، ربما تخللتها رطوبة خفيفة لا أكثر، الصور فوقها تنتظر أن تصلها خيوط الشمس أو العيون المحرجة بالحنين، الأثاث يرقد في المكان ذاته مذ تركته، لم يتحرك بعد.

وهي؟

سيطر عليها شعور موحش بالوحدة، بأن المكان لا يكفي لضمها بعيدًا عن نفسها، فكل شيء حولها جاهز كي يتعثر فيها، كي يخبرها، كي يخترق صبرها، كي يثقل عظامها بأنين البرد.

فما الذي كانت تنتظره عند باب الدار طول الوقت؟

كانت تتساءل: لِمَ أصبح الطريق مخيفًا من تل اللوز إلى نابلس؟

لكنها لم تجد الإجابة إلا حين فتحت لها الأماكن بابًا موسعًا في أروقة الذاكرة
مثيرة غبار الشوق،

أم أحمد لحقتها: ما الذي ستفعلينه في نابلس لو حذك؟ البيت ما حدا فيه من
غير شر.. ابقى هنا، بعدين كلام الناس...

ولم تكمل جملتها.

«لماذا تحاصرني الأماكن بكل هذا الصخب؟ لِمَ تجادلك الأشياء فتصبح
أحداثًا تقع الآن؟! ألا يكفي هذا التبعثر كي يقنع المكان أنك متشعبة للآخر، لا
تحتاجين مزيدا من الحنين؟!» هكذا حدثت نفسها.

لِمَ تهرب إلى نابلس؟ هي نفسها لا تعرف! بيت تل اللوز أوسع، ساحته أكثر
بهجة وتنوعًا، والألفة أكبر.. لِمَ إذن؟ لأنها وجدت جثة والدها في تل اللوز
فعرّ عليها دخول البيت بعد ذاك؟ أم لأنها تريد أن تختلي بنفسها قليلًا لترتب
دواخلها المتناثرة؟ أم أنها اتجهت إلى نابلس هكذا، بلا أي سبب، تركت نفسها
فمشت طالبة أقرب سيارة أجرة.

الخطوات التي جاءت بعد الباب الداخلي مباشرة، الخطوات التي سارتها
لتنفّذ الغرف واحدة واحدة، بينما يتواصل الحقد تضخمه في أحشائها، إذ ما
الذي يضيرهم إن وصلت في وقتها أو متأخرة عن عمرها أعوامًا أخرى؟

إن رأث والدها أو بقيت الحسرة -كما هي الآن- تخبو في داخلها وتتسرب إلى عمقها أكثر!

إن صرخت أو بكث أو ضحكث أو تمرغث بالتراب، أو بقيث واقفة تتصنع الشموخ!

ماذا يضيرهم، وهي كآلة التحكم عن بعد، والطريق يتلكأ من الأردن إلى الضفة ألف مرة، والطريق في يدهم، وما خلفها، وما فيها؟

ما الذي يضيرهم؟!

بدأت تهجس، تبني فكرة وتحطم أخرى، والبيت مشرع الأبواب يعلن أن عمراً هنا قد انتهى، وأن البرودة التي تعشعش فيه مفرطة وربما باقية. تنتشر في جسدها كما أرجاء البيت.

كانت قد منّت القلب والروح والجسد بكثير من الثرثرة مع والدها، تخيلت الضحكة والفرحة وفناجين القهوة الصباحية والياسمين والمشي ليلاً في شوارع نابلس، مع ترمس ساخن وأحاديث يتشاجران فيها.

اشتاقت لدعائه: الله يرضى عليك!

فلماذا إذن فاتها أن تخبره كم هو أب رائع وغالٍ وعزيز؟

آلمها أنها تأخرت.

كانت الحسرة تفرقع في داخلها أكثر وأكثر، عندما شاهدت تفل القهوة في نهاية الركوة، وفنجانين باردتين متروكين! من كان عنده قبل أن يموت؟ من

شرب معه آخر فنجان كي تسأله؟

الأسئلة مزدحمة، تلف المنزل مع كل حركة، والأمانى الضائعة تنتشر مع رائحة الأشياء القديمة، تتضخم في أنفها ثم تهدأ فجأة، تتعوّد عليها، تتمطى معها، وتتشرّبها ككل شيء.

«مات أبوك يا حنان جرير العيسى. مات.. لست حزينة، أنتِ تشعرين بفقد مضاعف، كأنك فقدتِ قدمين أو يدين دفعة واحدة. هذا ليس حزنًا، إنه الألم. ارتاح، أبوك ارتاح من سماع خبر طلاقك، ومن تحمّل فشلك، قولي الحمد لله!«.

نظرت لوجهها في المرأة، وجهها الذي تعرفه وتحقق فيه كأنه اكتشاف جديد عليها، المرأة الطويلة قرب الخزانة، ذات المرأة التي كانت أمها تعدّل من هيأتها أمامها قبل عشر سنين.

- ماما خذيني معك.

قالت، لكن أمها رفضت وأخبرتها أن مفاجأة تنتظرها حال عودتها، بطفولة قفزت: قولي لي، ما هي؟

قبّلتها ولم تتكلم.

حين عادت كانت مخرجة بالدماء. والدها حملها راجفًا، ومبهوثًا بدمها الذي يسيل، جاء الطبيب سريعًا، لكنه غطى وجهها وخرج.

لم تكن حنان الطفلة على موعد مع مفاجأة كهذه.

لحق رجل بوالدها وأعطاه كيسًا لم يُصب بأذى، كان يحوي أربع قصص للأطفال، ولعبة من القطن بأطراف بلاستيكية، والكثير من أوراق الزينة.

كما وعدتها، جاءت الهدية: إذا كنتِ الأولى على صفك سنحتفل بك.

الصوت الذي وعدتها صاحبه بأن تسمعه كل ليلة لم يأتِ، ولا تلك الأوقات التي جمّلتها في خيالها بأن تلعب الأم وابنتها، ولم ينحن خيال والدتها فوق رأسها وهي تدرس كي تبقى كما هي، الأولى.

خبأ والدها القصص، يقرأ لها كل ليلة جزءًا من قصة، وحين انتهت سطور القصص أبى أن يحكي قصصًا أخرى، صار يكررها، ويكررها فقط! ترك لحنان اللعبة ذات الأطراف البلاستيكية، لكنها تركتها بدورها ونزلت تلعب مع الأولاد بالحجارة والتراب.

لكن، لماذا تأتي الذاكرة بأمرها الآن؟ هل لأن علاقة والدها بأمرها أشبه بأرواح تتهاوى في الهواء حتى لما كان والدها على قيد الحياة.

غرفتاهما قبالتهما، تفتحها وتجدول البصر على امتداد الضوء الذي يخترق الجسد فيؤلمه، هذا الهدوء الموحش يودي إلى عتمة مغارات قلبها، ينقبض، فتغلق الباب سريعًا.

تلتفتُ إلى الصالة، كانت تحاول أن تنكر صوت والدها الذي تسمعه الآن يدعوها لمؤانسة وحدته، صوته الذي يعلو ويعلو. تقترب، المدفأة مطفأة، والتلفاز أبكم، والصالة لا تعبأ بمن مرّ أو يمر، فأين هو صوت والدها إذن؟!

«هل ناداكِ أحد؟ أم أن اسمك لا يخرج إلا من قلبك فيبدو صداه على غير العادة بين الجدران؟».

فتشت الغرف واحدة واحدة، كانت كلها خالية، فأدركت أنها تتوهم.

مددت جسدها فوق السرير، كانت تتساءل إن كان هذا هو الكي الذي يُذهب وجع سميح إلى آخره أم أنه ألم يتسلق آخر؟ كان ثمة شيء مبهم تجهله، يسري في عروقها، شيء يخفف عنها عبء الفقد، والفراغ والوحدة: «ألم يخفف موته عنك عناء تبرير طلاقك يا حنان؟ أما تظنين أنه كان سيقف جانبك؟».

حين أغمضت عينيها، رأت وجوهاً كثيرة تمر سريعاً، وجوهاً تعرفها، وأخرى تجهلها، باكية ومبتسمة وبين ذلك، لم تعرف ما معنى أن تقترب امرأة حسناء تشبه قصي حتى كأنها هو، وتضع في حجرها ذات الفتاة الشقراء التي تراها في المنام عادة، قالت لها: هي جائعة، فمدت لها ثديها الأيسر، لهت أنفاسها وتلقفته سريعاً.

حين استيقظت كان صوت أذان المغرب يرتفع.

يرتفع فيطمئنها.

- ٣ -

كانت تمشي..

تحمل الدفتر الأسود بين ذراعيها وتمشي.. يداها تقبضان عليه بقوة لم
تعهدا قبلًا. لم تكن تعلم تحديدًا أهو الخوف عليه أم على نفسها!

تسري في جسدها قشعريرة تحاول التخلص منها بالهرولة.

الشوارع فارغة.

سيارة كسلى تمر مثلما هم الناس الآن في بيوتهم.

رذاذ المطر يقبّل الصباح.

يقترّب منه رويدًا رويدًا، يتنفسه، تغريه رائحة الياسمين وليلة القدر، فلا
يملك سوى الهبوط عشقًا، هبوط يبينه أكثر بهاءً، مقيمًا بجماله الهادئ بضعة
أشهر. يعاوده الشوق بعد ذلك فيهبط مرات متفرقة كأنما لم يرد أن يروح.

يراودها ذاك الخاطر: «لو أن المطر يزورني، يهبط اضطراريًا ويغادر، لكنت
الآن زهرة ياسمين بيضاء».

تمشي.. تهرول.. تركض.

شعور ما يرويهها، ويدفعها لمناداة ذاتها وهي تأخذ شهيقًا عميقًا، ثم زفيرًا
تدريجيًا.

- هيا.. هيا، عليك الانسلاخ من الماضي!

شهيق، زفير، نعم. هكذا، هكذا.. أحسنتِ يا حنان.

- أتريدان الانسلاخ من الماضي حقًا؟

كانت ترى ما لم تره من قبل:

الشجر يزداد لونه ثبوتًا بالمطر، الشوارع تغتسل فتلك ليلة حب، المباني تقترب من بعضها أكثر طلبًا للدفع.

البرد ينتشر في أرجاء جسدها، تركض بقوة كما كانت في الصفوف الأولى، يتهادى إلى سمعها صوت معلمة الرياضة وهي تصرخ: جري في المكان.. ثم يأتيها صوت صفارتها بتموجاتها بين الضعف والقوة، تكرر بعدها: أسرع. أسرع.

وتسرع!

والدم يتدفق فيها ساخنًا، ساخنًا.

تخفف خطواتها المتعجلة حين تجتاحها رغبة القهوة، فتبحث عن مقهى استيقظ باكراً أو لم ينم مثلها.

كان هناك مقهى بواجهة زجاجية تستمتع بسقوطها العمودي المهبذب، صوت الدفء يستقر في لون أضوائه الحمراء والبرتقالية، مقاعد يشقها الزجاج رغم قطرات مطر غزيرة تجاوره، وحين تنظر إلى واجهته، يطلّ نادل المقهى من الزجاج ببسمة تلغي ترددتها ووقوفها الطويل؛ تدخل، تلقي نظرة حولها: مقاعد تتحسس ماضي، أيدي مرتعشة وأخرى تفرقت فوق طاوولات محمولة على الزمن.

ستختار الزاوية اليمنى قرب الواجهة الزجاجية، لم تعلم لِمَ شعرت أنه المكان الأقل حزنًا وفراقًا ووجعًا، هي التي تمتلئ به.

على سطح الزجاج قبالتها تتابع قطرة مطر في مضيّها نحو الحياة بهدوء.

«أتخافين الشتاء يا حنان أم تحبينه؟» يولد السؤال من رحم السماء مع ملايين القطرات النازفة طوعًا.

يقترب النادل بالقهوة، فتتنظر في الفنجان الذي وضعه أمامها، كان سواد البُن رائقًا مختلطًا مع البنيّ على صفحة الفنجان، بخار القهوة يلفحها، والأجوبة التائهة أيضًا: «ألا يبدو الشتاء مراوغًا إذ يناديك بمكرٍ للحياة ثم يتركك لبرد يتجه نحو العتمة؟!».

وربما يقودها هذا لطرح أكبر: «أتخافين الحياة أم تحبينها؟».

البخار يأتي، والطعم الأزرق الساحر بمرارته وذراته الثقيلة ترشف منه جرعة كبيرة، وتسحب نفسًا يفي بترسيب شعور مفاجئ بالسعادة.

ضمت شفتيها فوق الفنجان الملون بالأبيض الهادئ، والمنقوش بعروق ثلاثة من ورق شجر متوازي الخطوط، ومدّت أصابعها نحو الزجاج ترسم زهرة لوز، واسم قريتها، ثم توقفت عن العبث أمام قطرة مسرعة نحو القاع.

فكرت في اختلاف فنجانها، هذا عن فنجان الليلة الفائتة، رغم أن كليهما يوقظ ذاكرتها، غير أن الأمر الذي أخذ لبّ تفكيرها، كيف للكلمات أن تغيّر إحساسها بالحياة على هذا النحو المغاير؟

أهي هشة أم أن للكلمات وزنها فتفعل فعلها وتنقل إليها أحاسيس جارة
الباص ذات الصوت المسيطر على حواس من يسمعها؟! لو أنها لم تلقِ نظرة
نحو مكان جاريها لما رأت الدفتر الأسود.

الليلة الماضية إذ هجرها النوم وأخذت تبحث عن شيء يبعد عنها وطأة
الوحدة اهتدت إليه.

أرادت أن تفعل ما اعتادت فعله قبل زواجها، أن تجدد صياغة أحلامها
القديمة، إلا أنها أدركت أن أحلامها تلك أصبحت بخار ماء اليوم، انتظرت
طويلاً عودتها مكملة دورتها في الطبيعة، لكنها لم تأتِ.

قبل زواجها من سميح، كانت تشعل شمعة في زاوية غرفتها اليمنى، وتبدأ
قراءة ظلها في أشياءها المحببة، تُدرج صوراً وألواناً وأشكالاً وتصنع حكايات،
وحين تصحو تحدث نفسها: كيف نمثُ البارحة دون أن أشعر؟

الليلة الفاتئة حاولت أن تشعل الشمع وأن تقرأ ظلها، حاولت أن تعود حنان
الماضية، لكنها عجزت.

فعلت كل ما كانت تفعله كي تنام.. كي تستيقظ صباحاً بابتسامة تخفي فرحاً
ما، عبثاً.

الطريق من السرير إلى المطبخ، الشمعة في يدها اليمنى، شعلة صغيرة من
الغاز العتيق وتشتعل، هي كالأنثى تفكر، وتكبت شهوة فنجان قهوة ليلي.

الطريق من المطبخ إلى السرير، الشعلة في الزاوية الغربية من الغرفة، تنظر
في العتمة، تدقق النظر، لكنها رأت الأشياء كما هي، عدا الفقد، كان له ظل، له

جسد معتم.

لم يعد الحزن يعترّيه، لكن سؤالاً يفغر فاه: ثم ماذا؟

وتطفئ الشمع.

انسحبت لرائحة القهوة وداعبت فنجانها بينما تمتمت:

- يكفي أن هناك من لديه رغبة في إغرائك يا حنان.

أشعلت التلفاز، لكن الإشارة لم تعد تعمل بسبب الأمطار الغزيرة، فكرت في العودة إلى القرية، والنوم بقرب أم أحمد أو ليلي، لكن الوقت كان قد تأخر، نظرت في كتب والدها، لم تكن تحب قراءة الكتب التاريخية، أو السياسية، وكل ما على الرفوف من أدب قرأته. أتعيد قراءة إحدى الروايات؟ كان هذا الخاطر يراودها حين وقع بصرها على الدفتر الأسود، سحبته وهي تلمس وحدته التي بدأت تلقّاها.

«مثلك هو».

في المقهى ترشف القهوة ما تزال، مُرّة أيضاً، تُذيب خيبتها ذرة ذرة، وتعترف أن خيبتها كبيرة، وأفكارٌ تطير بين البارحة واليوم.

الواجهة الزجاجية، قطرات مطر ماضية نحو الأسفل.

رشفة قهوة أخرى.

«طعمها المرّ يواسيك بحلاوة شعور لم تجربيه، وربما تعدّك بلذته».

البارحة يشبه اليوم بتلك الرغبة في اقتحام سواده المتدرج، حين يزجها
الفضول لآخر صفحاته.

١١- آب/أغسطس - ٢٠٠٧

أذكر الآن ما قالت له لي أمي: «إن العصور في التاريخ أجمع لم تُقسم كقطع
حلوى، فبين كل عصر وآخر ثورة، انقلاب، حروب ونضال، ثكالي، يتامى،
حرقة ودموع.. وكل هذا لم يستغرق يومًا بعينه.

أنت أيضًا يا ابنتي، قد تكون تلك هزيمة لحرب خضيتها، لكن تذكرني أنك لن
تستطيعي أن تقدمي نهاية تامة، فمن يدري، ربما تكون تلك جزءًا من حرب
عليك خوضها لاحقًا أو انتصارًا من وجهة نظر أخرى.

أمهلي ذلك للزمن فقط، لا تفكري في حدود الأشياء، واتركي الأمر لعالمه،
ثقي بنفسك وإيمانك، وأملك.

استمعي لقلبك وروحك -وأشارت على جانب صدري الأيسر- هنا في الداخل
وكوني ذاتك دومًا».

«ينتابني وخز في قلبي، ثم يضمّر فجأة كلما شعرت بكلمات أمي، فأشكر الله
أن منحني وجودها الرائع.

فربما كانت الحياة هكذا فعلاً.

ندفع ظنًا منا أننا سنجد كل سعادتنا، إلا أننا في اللحظة الأخيرة ندرك أننا
انحرفنا للطريق المعاكس تمامًا.

سأكتفي بأن وجدت لحظات سعادة لا تُنسى، وأني الآن أبحث عنها في داخلي.

سأصمت.

أهدأ.

أظن أنني في حاجة لأن أسمع ثورة عقلي وقلبي، وهما يقولان لي:

يكفي أنك تشعرين بالشمس إذ تصحو وتنام.. إنها مثلك..».

عند منتصف الليل

تغلق الصفحة وهي ممتنة لتلك المرأة؛ كلماتها جعلتها تمشي اليوم، تخرج أخيرًا من قوقعتها للمطر والسماء والشجر، انتشلتها هذه الكلمات من أسئلة لا تجد إجابات.

الشيء الذي نبع دون السيطرة عليه، ذاك الحنين:

«هذا الشتاء يفجر حاجتك القديمة في صخب الشوارع والزحمة، لهدوء الليل وضجيج الحب في الداخل، لصوت أساور أمك في قدومها إليك، لنحنحة والدك، لطعم الينسون والسكر، لدفع كانون النار أيام البرد، تحتاجين الفصول كلها معًا.. وكل الذين غابوا ولم يعودوا».

تنظر باتجاه النادل بعد أن حفظت أجزاء الشارع المطل على المقهى: يرتب الكراسي في مواضعها، يمسح الطاولات، يضيف زهر نرجس في كل مزهرية، يتوقف فجأة كمن تذكر شيئًا، تنتظر دقيقة واحدة لتنبع فيروز تسقي عينيه

التي يعتليهما بريق واضح: «بحبك ما بعرف، هن قالولي.. من يومها صار القمر أكبر» يعاود العمل بشبه ارتواء، يأخذ أنفاسًا كتلك التي أخذتها قبلاً: شهيق عميق، زفير تدريجي، إنك تشعر بنظرة عابرة أنه يتنفس أصواتًا أخرى مشتتة في عالمه.

نغمة ناعمة تصدر من تلامس رأس زبون بأعمدة كريستالية صغيرة متجاورة علقها النادل قبل قليل أعلى الباب.

تلّف لفحتها الصوفية حول رقبتها استعداد لبرد آخر قد يتدحرج نحوها في الطريق. حين مشت قليلاً باتجاه الباب، وقف الزبون وتحرك نحوها، كان الزبون قصي.

لم تعرف لم رجفت قدمها حتى ما عادت تستطيعان الوقوف، تمنى لو أنها هربت قبل ذلك، لو أنه لم يرها.

لكنها لم تستطع إلا التوقف أمامه.

نظر في وجهها تمامًا، كانت تلك هي المرة الأولى التي يجرؤ على فعل ذلك. ولأنها تحاشت النظر إلى وجهه مباشرة، فقد لسعه شيء حارق، تمنى لو أن عينيها تنظران إليه، ولو أن وقفتها لم تكن وقفة مستعجل، لكنه رغم ذلك سعد بوجهها، غير أن ذاك التوتر الذي اعتمر ملامحها، أقلقه.

- عظم الله أجركم. لا أعلم ماذا أقول بالتحديد، لكن.. آمل أن تكوني بخير.

- الحمد لله على كل حال.

على خجلها، كان وجه والدها حاضرًا مع تلك الكلمات العفوية التي ينطقها الجميع مواسين.

اعتذرت منه، ودون أن تنظر في وجهه خرجت بسرعة سامحة لرأسها بالارتطام في الأعمدة الكريستالية.

الدتر بين يديها، ترقب انتعاش الشارع، إذ أصبح بإمكانها رؤية ضجيجهِ، سيارات ياضاءة خافتة، أطفال يركضون، صوت بائع الكعك المالح، والذي يدّعي كل صباح أنه قادم من القدس مباشرة، طلاب مدرسة بأزياء متشابهة بين الأخضر والكحلي، رجال بحقائب وآخرون بمعدات ثقيلة تخمّن عمل كل منهم، نساء يحملن أطفالاً، وأخريات يدسن الشارع بانتقام.

شبابيك مفتوحة تفوح منها روائح الخبز بتباهٍ، وأخرى مغلقة تتسلل أضواء الحب منها خلصة.

بدا الشارع مختلفًا.

إنه تجريد للصمت، مرآة لتجاعيد الروح، وَضْفَةٌ تتبعها لمعالجة تخدر المشاعر كما الأطراف.

الشارع..

طفل عابث، يبتسم في شغف لبقايا حكاية رويت له مرة، أو امرأة تسكب ثرثرتها وصخبها حولنا حين تقطع جُملَكَ فيما تبدأ جُملها بالتزايد. ربما كان الشارع أيضًا رجلاً لم يسبق، يحتويها موشوشًا ببضع كلمات ذات دلالات بحرية.

الشارع هو نحن.

إنه نحن.

إنه تفاعلنا، مع ما حدث، ويحدث.

وسيححدث.

-٤-

هنا..

الشرفات تفضح أسرار أهلها، الأبواب التي تلتقي كالنساء، تثرثر أيضًا عند ساحات الحارة الصغيرة، والكل يحاول إخفاء سر يدرك أنه بدا مكشوفًا.

أبواب القرية الصغيرة تفتح فمها إلى آخرها، يخرجون كآهة ويدخلون كغصة، وهي بدورها على وشك ممارسة الفعل الأخير.

أم أحمد تنزل الدرجات الثلاث مسرعة، تلحق حنان وتحضنها: هيك يا بنتي بتركينا؟!

تكافح لإخراج بسملة بدل الصمت، فيستعجل صوتها مستدرغًا:

- كيفك، وكيف زوجك؟

- بخير، الحمد لله.

- صحيح! لامتى باقية بالضفة؟

- مش عارفة لسه!

تقولها آملة ألا تصبح أسئلتها أكبر.

لم تكن قد شعرت بيدها اليسرى وهي تلتف وراء ظهرها إلا بعد حين،
فاتسعت الخيبة وانتشرت على وجهها كالبنثور، كانت تخبئ الفراغ.

تقول: نحن نتكلم على الدرج، تعالي نشرب قهوة.

متخوِّفة من أسئلة لم تتجهز لها، اعتذرت متحججة بتعب متراكم، لتسارع أم
أحمد:

- طيب، لا تقولي أن مضغ الطعام متعب أيضًا! انتظرك على الغداء اليوم.
وتنشر ضحكة قصيرة تشي بالحياة.

تخرج مفتاح الدار العتيقة، تديره في القفل، فتعود أم أحمد مستذكرة:

- حنان.. قال لي قصي أن أعطيك رقم هاتفه عند أي اتصال بك، تعرفين أنه
كان على تواصل مع والدك في الفترة الأخيرة، قصي صار محامي قد الدنيا،
ربنا يحفظه.. الرقم في البيت، أحضره الآن؟

وتهز رأسها.

الكلام لا يأتي دائمًا، الحروف التي يمكن بها أن نفك عقد الروح نخبئها،
لنكتفي بإشارة ليست إلا استمرار لحديث آخر كنا قد خضناه مع أنفسنا سابقًا.

تغلق الباب.

تلقي نظرة على الزاوية التي كانت جثة والدها تشغلها، فتصاب بألم فجائي في معدتها.

كانت الشمس تتسلل خجلى من بين طيات الستائر الرقيقة، فتحت الشبابيك إلى آخرها سامحة للشمس بالتجول، شهدت غرورها إلى آخره بينما تفرد سلطتها على المكان، تنعكس أشعتها بامتداد بهي على رفوف المكتبة التي تنصف الصالة، تتمايل على كل محتوياتها: كتب في الأدب والديانات وروايات قديمة وجديدة، كتب الشعر القديم ثم الحديث، ضوءها يتوهج حين يمر على كتب محمود درويش وأحمد مطر، وأدونيس.

تثير ذاكرتها قصائد كان والدها يتلوها بصوت عالٍ ويبتسم لظلالها الذي يفضح تجسسها الدائم عليه، لكنه سرعان ما كان يبكي.

يجذبها إليه ويقبلها، كانت الدمعة تنفر فتمسحها، ويبتسم من جديد ليخبرها: «لأجل هذه اللمسة خلقت الدموع» ويحضنها.

الشمس الآن تشرق، لم تعد في هذه اللحظة تتسلل كلص، أعلنت وجودها كاملاً كاملاً، فتموج فيها تلك الرغبة في الجلوس أسفل عريش العنب، وشطف الأرض المصبوبة وسقي الزهر وقليل من الجنون الذي كان يبعثه الحب عادة، لكن...

أبقي شيء؟

تأخذ أنفاساً عميقة وتتناسى. فلا شيء أمامها غير ذلك.

الشمس تعود للتسلل باهتة هذه المرة.

«أتخدش الشمس تاريخك دون أن تعلم أم أن ماضيك مخدوش أصلاً ولا شيء سيؤثر فيه بعد؟» سألت نفسها.

الصور مصفوفة على الرف الثالث تلعقها غبرة، فتجتاحها حسرة الفقد.

«هذا أبوك يحمل بندقيته، وأخرى له بين أصدقاء السجن الكبير الذي لم يسعهم! وهذه الصورة لأمك بجديلتها وثوبها المنثور بالورد الناعم. تبتسمين لصورتها التي تصطبغ بالأبيض والأسود بينما ترين الألوان تتراقص في ملامحها: جديلتها الخروبيتان، وعيناها العسليتان، والورد المطبوع على ثوبها الطويل بين الزهري والأحمر».

تتحسس شعرها المقصوص، وتذكر أصابع أمها التي كانت تمشطه كل صباح لتصنع سنبله. «سنابل القمح بحياتنا ورح تزل» تقول أمها. وتظل خصلات الشعر تتداخل منذ طفولتها إلى الآن، لتصنع القمح في الشعر أيضاً.

تتوقف أمام صورة والدها وأخوها أسامة وهي بينهما خلف الشهادة تمامًا، تمد ذراعيها حول كتفيهما. يبدون سعداء، يحمل أسامة درع التخرج المحفور على الرخام، ووالدها يقاسمه شهادته فرحًا.

آخر ذاك اليوم لم يخرج والدهما من غرفته، لم يشأ أحدهما أن يسأله لِمَ؛ كانت تلك المناسبات والأفراح تثير الشجن والحنين فيه.

بعد مناسبات كهذه يمرض.

لم يكن يجد زوجه لتدفئ أطرافه وعظامه.

أسامة..

افتقدته كثيرًا بعد وفاة والدها.

«أي بلد يغريه ليبتعد أكثر، ويحدثك بنهم عن تلك البلاد ونِعَمها، عن هدوئها، ورقبها وتحررها وديموقراطيتها؟ أين هو صوته؟ وكيف لك أن تسدي حاجتك إليه وسط الأحاديث التي تغمز وتهمز حولك؟».

غمرها السؤال:

«هل عرفت اليوم لم أنت وحيدة؟».

لا تلبث أم أحمد أن تقطع أفكار حنان بطرقات منتظمة تشبه لحنًا قديمًا..
تدخل، تجول بعينيها الواسعتين أرجاء الصالة، بينما يتطاير صوتها وحيدًا
في المكان، مازحًا:

- هذا رقم قصيّ الجمل، محامي والدك. سأذهب لأجهز المنزل وأحضر الغداء،
إياك أن تتناسي.

تغادر فاركة يديها بخبث: منزلك بارد يا صديقتي، لو أن سميح هنا، قد
تشتعل نارك.

وتبتسم غامزة.

تصفق البال جملتها كما باب شقتها توًّا، ويتناثر التساؤل: «أكان يشعلك؟!».

تلك الخيبات التي تتدافع لتقنصها كطائر.

«أكان يشعلك؟!».

لم تكن ذاكرتها قادرة على نسيانه، لم تنس كيف كان يلبسها كبذلة عمل رسمية فوق عرقه، وكيف يتبختر بها في ممرات ذاته، ليغمض عينيه بعد أن يمزقها مزيلاً كل الأحلام، فلا تصلح مرة أخرى حتى لحلمه.

كانت على عكسه، طفلة تدهشها أقل الأشياء، لكنه لم يع، بل لم يحاول.

كان محاضراً مرموقاً في جامعة أردنية عريقة، مشغولاً في عمله نهاراً، أما ليلاً فهي جسد لامرأة أحبها وقاطعتة الطرق فافترقا.

كانت يدها كلما حاول الاقتراب منها تتراخى، غير أنه عالج ذاته بقسوة الحضور، يلبسها، ينزعها، يشبع وينساها في غربة شبعه، لم يسأل نفسه يوماً: أطفئ جوعك أيضاً؟!

بلى.

هو لا ينسى اليوم الذي وقف قرب حنان، وبقيت معه في المستشفى بينما أصيب بتسمم، شعر أن شيئاً من الأحلام قد تأتي ناقصة وهو قادر على إكمالها.

حين حضرت الفطور، سلم عليها. قبلها على جبهتها، وسألها إن كانت تريد شيئاً. مساء جلب معه فستاناً زاهي اللون، وبدأ يحدثها.

لم يكن قد فعلها قبلاً.

شعرث أنها تحبه.

بدا رقرأقأ كنبع ماء صافٍ وهادئ وحنون. أخذها يومها لأنهما أرادا ذلك، أول مرة يشعران بتضاؤل المسافة بينهما وبرغبة في أن يكونا مكتملين. لكنه في غمرة البركان الذي انسكب فوق صخورها، في غمرة الصهيل والذوبان بينما اقتربا من الجنة لأول مرة، صاح: ريما.. أحبك.

سريعًا لملمتُ نفسها، وأخذت تبكي.

لم يكن يهمها مَن ريما تلك، كان قد سيطر عليها شعور بأن كل هذا لامرأة أخرى، ليست هي بالطبع.

في تل اللوز في البيت العتيق، لم يعد سميح إلا ذكرى.

« قصي، أصبح محامٍ؟ ».

لم يقل لها ذلك في المقهى حين رأتَه صباح الأمس، تحدث نفسها ثم تزجرها: وهل أفسحت مجالاً لشيء يا عبقرية؟

ثم ماذا؟

ما الذي سأفعله هنا، أو في نابلس؟

«أي فراغ هذا الذي سيقذفني إلى أفكار صماء لا تنتهي، وحزن يطول لا خير فيه؟».

رقم المحامي في يدها.

تضغط على الأزرار، رنتان أو ثلاث ويخرج صوت نسائي: مكتب المحامي قصي الجمل، أهلاً.

- صباح الخير. حنان جرير تتكلم، هل يمكن أن أكلم المحامي قصي؟

- لحظة من فضلك.

ويأتيها صوته.

رجل يستفز بنبرته نعاس الذاكرة وأحلامها البسيطة. تفكر. صوته موجات بين أصوات تألفها وتحبها: والدها، أخوها أسامة، وشاعرها المحبب درويش. يمر من أمامها فناجا الشاي، وكتب الثانوية العامة المنثورة في حجرة أسامة.

ثم حين يكرر: ألو، ألو.

تدرك أنها أطالت الصمت فترتبك، وتعتذر دون أن تلغي هاجسًا ما يلح عليها:

لَمْ يَحْمِلْ كُلُّ هَذَا الْخَفَرِ الْغَرِيبِ؟

يرحب بها في مكتبه مشيرًا إلى وصية تركها والدها عنده ورسالة.

لم تدرك ما تفعله بعد صوته، غير أن تهرب لأي شيء أمامها، فتجد الدفتر الأسود، تفتحه من الأول:

الثلاثاء: ٢١/ نوفمبر/ ٢٠٠٥

دعوت الله طوال الليل، لم أشعر بنفسي كما شعرت الليلة، كان المطر ينهمر،
بقيت في الشرفة رغم شدته. لم أشعر بالبرد!

كان الدفء يحتويني كلي. قطعت الكهرباء عن نابلس كلها، وأصبحت للعالم
صوت سماء عالٍ، وضوء أكبر من الشمس.. إنها معادلة أجهلها لكنها حقيقة.

لم أستلذ بشيء كما تلك الروح التي كنت أراها تعلو تعلو.

الفتيات نائمات، الدراسة كثيرة كالمعتاد، لكن دومًا: كل شيء قابل للتكرار إلا
هذه النشوة التي تحملني فأصبح بها عصفورة.

عندما هممت بالدخول لفراشي بعد صلاة الفجر، اعتراني ذلك الشعور
بالحاجة لأن يكون رأسي في حجر أحدهم، يمسّد لي شعري وأحكي له عن
ذلك الشيء الذي جعل روحي تصعد.

أتراه سيصدق أن روح أولئك الأحياء تصعد وهم قاعدون؟!

أحتاج للحب.. إنه الرغبة في قول كل شيء، كل شيء.

الرابعة فجرًا

تسكب الشاي في كوبها الأسود، بينما تفكر: لم كل شيء أسود حقًا؟

ستنتابها رغبة تبديله بلون أكثر جاذبية وستختار الزهري أو البنفسجي حتمًا.

تدوّن على دفتر صغير كلمات تيماء:

«كل شيء قابل للتكرار إلا هذه النشوة التي تحملني فأصبح بها عصفورة».

«ذلك الشيء الذي جعل روحي تصعد».

«أحتاج للحب.. إنه الرغبة في قول كل شيء، كل شيء».

أهذا ما ينقصها الآن؟

فلماذا تتوهم إذن أن الوصول إليه غير ممكن مع الثقل الذي تشعره وترى نفسها فيه عرجاء بامتياز؟!

ثمة أمور أخرى تشعر أنها تنقصها/ تخنقها/ تقهرها.

لكن..

من تلك التيماء التي تدفع حنان لشيء تجهله كل مرة؟!

تفتح صنبور الماء، وتنثره على الزهر الذي زرعتَه منذ أيام.

مكنسة القش في يدها، والماء أسفلها يحاول الهروب فتلحقه كما تشتهي،
وتغمرها بعض الحياة.

يرشقها الماء.

عمود الدخان الصاعد من الطابون في آخر باحة منزل أم أحمد يستدرج حنان. الدخان الذي يتماوج بالهواء ليصبح أشبه بأسطورة علي بابا، إذ يحقق لها أمنية قديمة: عبق أمها ورائحة خبزها الرقيق.

ما زال منظر يدي أمها حاضرًا فيها وهما تمطان العجين في كل الاتجاهات، وتتركه إذ تنثر عليه سحرها، تتركه ليمتص خوفها كله وحزنها وشوقها.

حين يدرك العجين جوفها يخمر. تقسمه إلى قطع تُشكّل أرغفة تُقيها خوف جوعٍ يتوجس في داخلها ويكبر.

أمها كانت عكس النساء كلما خافت عجت أكثر.

لهجة أم أحمد المرحبة من داخل الطابون ترتطم بالهواء ليصل أذنيها المأسورتين بالأصوات غالبًا.

الطابون كما هو: حجرة من طوب مسود من دخان يتكاثر بتزايد. أراضيته رماد ناعم تشتتهين الآن خلع نعليك وتلمس نعومته المفرطة، في وسط الجانب الأيمن تجلس أم أحمد على كرسي قصير يشبه طاولة مصغرة تقلصت لتستوعب قامة الطابون القصيرة، يُطلق عليها اسم «قَرْطَة»، أمام أم أحمد مقبض عمودي على صفيحة دائرية يغطيها الرماد بشكل هضبة صغيرة. ترفعها فتكشف عن هوة صغيرة يعتمر قاعها حجارة مصقولة، أذكر أن اسمها «رُظْفا». تضع العجين الذي رقت فوقها وتغلق الصفيحة بديناميكية.

تجلس حنان قريبها، وترقب يدي امرأة عمها الرشيقتين إذ تحسران الرماد عن غطاء الطابون بعد دقيقة أو أقل، فتُخرج الرغيفين السابقين وتضعان

الرغيف الأخير، تعيد الغطاء والرماد فوقه، ثم تتلقف خرقة قماش من حجرها وتمسح قطرات العرق الساقطة على الجبين.

- كل ما تشاقي لأمك تعالي عندي وذوقي خبزي. كنت صغيرة لما تزوجت، إمك سترت عليّ وعلمتني أعجن وأخبز.

صوت أم أحمد يهزّها الآن.

«كيف لها أن تبدو قوية ومذهلة وامرأة ككل النساء؟ كيف لها أن تدعوك لتذوق الخبز بتلك اللهجة؟» تفكر.

تمد يديها للخبز، وتقرر أنها ستأتي رغم علمها أن شوقها يمتد كالبحر، يصيبها في المدّ والجزر. فأبي خبز ذاك الذي سيتسع ليسدّ فراغاتها الكثيرة؟!

تحمل أم أحمد الخبز الساخن الموضوع على صينية قش مصنوعة من سنابل القمح الصفراء، تضعها على رأسها وتمشي الهوينى إلى المطبخ، وتجاور حنان كأنما تصطنع طقسًا يخصها.

رائحة زيت الزيتون تنخر في داخلها وتترك روحها عارية أمام موسم قطف الزيتون في مرج بن عامر.

«كان لجدك أرض زيتون حاملة، كل سنة بتجيب على الأقل خمس وعشرين تنكة زيت، وكنت بهالوقت أستنى زهر اللوز ليزين الدنيا كلها بالألوان».

هي لم ترَ ذلك في مرج بن عامر، أمها التي كانت تحدثها، وخيالها من شكّل الأماكن كما يشاء، ومكّنها من اللعب مع الأطفال فيها، ومن تذوق طعم اللوز

الأخضر، ومنحها فرصة الاختباء خلف جذوعها وهي تلعب الغميضة مع أخيها
أسامة وصديقتها ليلي وأولاد الحارة الذين هاجروا إليها فأصبحوا منها.
أذابتهم السنين في تل اللوز ولم تعد تذكر إلا الكلام الطائر عن الماضي.

تنتبه أم أحمد لعيني حنان المغمورتين بالماء وهي ترش السماق على الخبز
المغمس بالزيت والبصل وقليل من مرقة الدجاج، تتوقف فجأة ناظرة في
عينها وتخبرها كأنما تعرف ما يدور في داخلها:

- إيه يا زمن! يمكن الماضي حلو ومر مع بعض، بس صدقيني ما في شي
بستاehl، شو بعرفنا إنه المستقبل أقسى؟! ربك عليم شو بخبي القدر، توكلي
ع الله يا بنتي.

تسمع كلامها الذي تعيه جيداً بينما تبكي ملامحها حينئذ بصمت، فتجلسها
في الصالة وتأتي إليها بكوب ماء. تعود للمطبخ وتنظر لوجه حنان عند بابه
سريعاً لتقول:

- آه! أعرف أن رائحة المسخن مغرية جداً، لكن لا داعي للبكاء لأجل ذلك،
يجهز حالاً.

فتغمرها بسمه عميقة.

أمها كانت تحكي عن رائحة المسخن التي تفور بعد انتهاء موسم حصاد
الزيتون: «كنتُ أستعجل انتهاء قطاف الزيتون، نعدّ الأيام وننتظر. وحين
ينتهي يرباط إخوتي الصغار عند مدخل القرية. كان أبو جيريس المسيحي
يأتي من عابود على حماره المحمل بالهدايا والحكايات عن عالم لا نعرف عنه

شيئًا إلا على لسانه. وعندما يأتي تموج القرية كعروس. مجيؤه يأتي كاحتفال آخر الموسم، الأبسط التي كانت تفرش، والأرض المصبوبة التي كانت طول النهار تلمع بالماء، والمخدرات المزركشة برسومات بهية، والفسق والقهوة المحمصتان على النار، والشاي والكاكاو، كل شيء كان يفور بفرحة مختلفة.

على البيدر المقابل للبيت يجتمع رجال القرية، النساء أيضًا يأخذن أماكنهن عند نوافذ البيت وأبوابه يستمعن ويقعن في الحب.

في نهار اليوم التالي من مجيئه تجتمع نساء العائلة ويطبخن المسخن، يقسمن الأعمال على أنفسهن: منهن من يعجن، ومن يدلق العجين على الرُظف الحار فينضج خبزًا، وجدتك تُعد مرقة الدجاج، وحسناأ أختي تقشر البصل وتقطعه، أما أنا -وكان لي ست سنوات- فقد كنتُ أحمص الفستق واللوز المخبأ لهذه الزيارة من العام الماضي. بصراحة يا حنان، كنتُ أكل نصفه.

يأتي الغداء فتُفرد الأرغفة على الصواني النحاسية، يغمس بالزيت المطبوخ مع الدجاج والبصل ويزين بالسماق واللوز والفستق، ثم تليها الأرغفة صانعة طبقات تشبه سابقاتها، حتى يوضع على آخر رغيف، الدجاج المحمر.

ويجتمع الرجال فيأكلون.

وحين يحلّ الليل تنسكب أجمل الحكايات كالجدول، فنشرب. قال لنا مرة إنه سمع امرأة في حينا تُجيب ابنها الذي سألها حكاية، بجملة من قصة الغولة، قالت: أشكيلك عن هَمِّي ولَمِّي ولَمَّا جابتني إمي وحطتني ع الصينية وقالت ویش یا عربان ویش؟

رفع صوته حينها وقال: سأحكي لكم قصة المرأة التي تناقلتم تلك الجملة منها، فاسمعوا:

في يوم من ذات الأيام، ولدت الغولة من أب جني وأم آدمية، وكانت شرهة جدًا، لا شيء يشبعها إلا طعم اللحم الآدمي، ولشدة عطشها للدم واللحم البشري كانت تشم رائحة الدم من بعيد بعيد فتعرف أن في المكان آدميًا حتى وإن كان في صحراء مقفرة، وكان اللحم الأشهى، اللحم الأكثر طراوة، لحم الأطفال.

المهم..

جاءت هذه الغولة على قرية أهلها يحبون بعضهم بعضًا، وشمّت رائحة اللحم في كل مكان، لكنها كانت ترغب في ألذّه، فبقيت تشم حتى وصلت إلى بيت فيه خمسة أطفال، طبّلت على الباب، ولما فتحت لها الأم، شكت الغولة عطشها، فذهبت لتجلب كوب الماء. كان أطفالها في ذلك الوقت يلعبون أمام الأم، وحين رأت الأم الغولة وهي تظهر أنيابها التي تشبه ذئبًا خافت ونادت على أولادها كي يأكلوا. فكرت الغولة في أكلهم قبل ذلك، لكنها كانت تحب طعم الدم المنتشي بلذة الطعام والشبع أكثر فانتظرت.

أعطت الأم كوب الماء للغولة، واستأذنتها لتنشر الغسيل عند رأس الجبل، وقالت لها إنها ستترك الأطفال عندها لأنها تبدو امرأة طيبة. وضعت الأم طفلها في سلة الغسيل وفوقهم بعض الثياب، وآخرين على رأسها ومسكت الأخير بيدها وذهبت للجبل، نشرت الأم الغسيل كي تطمئن الغولة، ثم حملت

أولادها وهربت بهم إلى الصحراء. هناك كانت ترجف خوفاً واستجارت بقبيلة فنصبوا لها خيمة، وأكرموها.

اكتشفت الغولة أمر خدعة الأم وأقسمت لتأكلها أولاً، ثم عدلت عن القرار لأنها تريد أن تُعذب الأم بينما هي تأكل أطفالها أمام عينيها.

فتحت أنفها إلى آخره وبقيت تشم حتى وصلت إلى الخيمة، في ذلك الوقت سألتها أحد أبنائها أن تحكي لهم حكاية، فصرخت بأعلى صوتها بينما رأت عيني الغولة تبرق: أشكيلك عن هَمِّي وَلَمِّي ولما جابتني إمي وحطتني ع الصينية وقالت ويش يا عربان ويش.. سمع العرب صوتها وهي تستنجد فاجتمعوا وقتلوا الغولة الجشعة. قتلوها وأراحوا كل القرى من الخوف».

هكذا كانت الروائح تجر الحكايات، رائحة زيت الزيتون خصوصاً تملك سحر الكلمات التي تحشرها الأعين.

فهل يمكن أن تنسى قصص أمها عن سهام التي أحبت في موسم الزيتون وتأججت مياهها في بيت جدها عندما رأت جميل عند البيدر يصب القهوة ويغني «على دلعونة»؟

الشيء الوحيد الذي لم تتمكن أمها من التوقف عن تكراره: أبو جريس قال لنا طول ما في زيتون بتظل الأرض لأهلها. وها هي الأرض راحت، والزيتون يقلع، وهو؟ ربنا يعلم وين أراضيه؟

الرائحة الآن في الأنوف.. رائحة المسخن.

وحكايات أمها وعبق الليمون الذي يفوح من جلدها آخر الليل.

تبتسم أم أحمد ابتسامتها الراضية، وتضع صينية المسخن فيأكلان.

-٦-

مدينة نابلس.

شارع سفيان.

أسماء لعمارات كثيرة يلتصق بعضها ببعض، صور وإعلانات على طول الشارع الكبير.

أطباء أسنان، وجراحة، وولادة، ومحامون في القانون الدولي، والشرعي، ومحال لبيع الأحذية وأجهزة الحاسوب والملابس و...

العمارة الخامسة إلى اليمين، الطابق الثالث. هذا هو المكان كما وصفته السكرتيرة.

لوحة باسم المحامي قصي الجمل، تضغط على الرقم ثلاثة في لوحة المصعد، ويصعد.

«لو كان جد جدك هنا هل كان سيتمتم بالشهادتين ويختلف لونه ظنًا أنها الملائكة تحمله إلى السماء؟!».

وتتسع ابتسامتها.

صورة خالها تحضر ضاغطة على أنفسها، صورته وهو يكلمها صارخًا، أمرًا،
مهددًا: اتركي نابلس وتفضلي ع البلد، لسه ساكتلك، أنا يا حنان أعرف
بطلاقك من الناس؟! ومع ذلك مشيتها، ما عنا بنات تسكن لوحدها، شو الناس
بدها تحكي!

كان عليها أن تفكر في العيش مع خالها ببساطة، أو إن صحّ التعبير «بصعوبة»
كما بدا من صوته. هاتفه صباحًا كان مقلقًا، مرعبًا، متشائمًا. قال تلك الكلمات
التي تخافها بنبرة معايرة ولعينة: إنتي مطلقة، مطلقة، شو بدها الناس
تحكي؟ اليوم ع الغدا بتكوني حاضرة.

وتساءلت في قرارة نفسها إن كان الناس يهمهم فعلاً كل ما عانتها وتعانيه!
لكنها تذكرت قصي فجأة، فأنقذها من مغادرة نابلس، اليوم على الأقل، ردت:
عليّ إنهاء أوراق المحامي، في الغد آتي.
ولم تنتظر منه أن يردّ.

تمنّت بعد المكالمات لو أنها وجدت ما يُبقيها دومًا في نابلس، فلمّ وهي تمقت
الوحدة، بل وتراها موحشة؟!

فكرت إن كانت خائفة على صورة خالها من التغير في قلبها.

«أنتِ لا تريدين أن تسمعي صوت مجتمع تعرفينه من خلاله، لقد تغير كل
شيء وانتهى».

المصعد يتوقف.

اسم قصي الجمل معلق على طرف الباب الأيمن. كان يزورهم كل خميس، وفي الحوش يجلس مع أسامة قليلاً، يشربان الشاي الذي تناوله لأخيها من خلف الباب، ثم يغادران لدورة اللغة الإنجليزية. لا تذكر ملامحه جيداً رغم أنها رآته من وقت قريب في مقهى، تفاجأت بأنها لم تستطع النظر مباشرة في وجهه.

مرّ وجهه كغيمة طارت بسرعة، دون أن تمسك بشيء منها أبداً.

آخر مرة رآته منذ أربعة أعوام، حين ودّع أسامة الذي هجر البلاد من حينها وحنّ بزيارة واحدة، وبرسائل تناقشت حتى تلاشت. بعد أسامة غاب قصي، سمعت أنه تزوج من ألمانية في سنته الدراسية الثانية. فلم ترك ألمانيا وعاد؟ كانت تتساءل.

زار جرير العيسى قبل وفاته، ناوله رسالة سيوصلها إلى حنان ووصية، أياكون الفئجان الأخير لوالدها معه؟ أياكون قصي شاطر والدها حسرة ومرارة تكلمت في صدره من هذه الدنيا الفانية؟

«أخ يا أسامة، أخ منك.. لو أيا أراك يا ولد؟!».

كان هذا هاجسا يملؤها، «لم هذا البخل عليّ، وهذا الجفاء؟!».

تعبر الباب المفتوح على مصراعيه، وما تزال الأفكار تتلاطم وتقذفها أمام كراسٍ فارغة.

بينما يتوسط المكان مكتب عريض لسكرتيرة أنيقة، تتجه إليها فترحب بها واقفة ليبين بطنها متكوراً بجنين قرب صياحه يُحنن العالم من حوله.

تضغط السكرتيرة على أحد أرقام الهاتف، ثم يخفت صوتها بينما تقول:
«أستاذ قصي السيدة حنان وصلت».

تقول انتظري قليلاً، فتنظر.

وصورة قصي تبدو الآن مغبشة بكثير من الضباب، إلا أنها تحاول استنطاق
صورة قصي من صوته الذي تحتفظ به في أحاديث عقلها، إذ يذكرها برجل
معتدل الطول، أبيض، خفيف الشعر، أنيق بإفراط، وهادئ ربما.

يطول الانتظار، فتفتح حنان الدفتر الأسود وتقرأ فيه:

الخميس ٧ / ديسمبر / ٢٠٠٥

أمام الكمبيوتر (صديقي الحالي) أجلس كالعادة، علاقة الصداقة بيننا
تجسدت بقوة بعد دخول الإنترنت على الخط، وتلك الفرصة الذهبية في
تقريب البعيد.

وإذن فقد فتحت الماسنجر، لتظهر نافذة تخبرني أن الكاتب لؤي نديم
أضافني لقائمه، وسؤال يتربع النافذة: إن كنت أوافق على إضافته.

أذكر رسالتي التي بعثتها له، أطلب فيها نقد ما أكتب من شعر وقصة إن
سنحت له ظروفه ووقته ورغبته بالطبع، لكني لا أنسى رده حين قال:

إن طرق الأبواب عادةً تشمل أولئك الواثقين من خطاهم.

ثم تابع: إنها أفضل الطرق للوصول إلى ما برمجنا به عقولنا الباطنة.

ووقع: مساءً التواصل لا الاتصال.

رده جعلني أفكر أي الخطى تغريني بالمسير؟ وهل سأعرف يومًا الوقوف وأنا
المدمنة على الجري؟!

عندما وافقتُ عليه صديقًا جديدًا، ظهرت مكان اسمه جملة: «لا شيء يكسر
ليلنا».

كانت الجملة ترن في أذني طوال اليوم، حاولت جاهدة أن أدرك أين قرأتها
قبلًا دون اللجوء للإنترنت، وأعطيت نفسي مهلة لقلب أوراق ذاكرتي، خلعت
تعبني عن جسدي فوق السرير، فإذا بالجملة ذاتها تتكرر أمامي، تمر سريعًا،
بطيئًا، وبحركات بهلوانية أيضًا.

أحاول التذكر في أي كتاب قرأتها، أسلوبها يذكرني بالشاعر محمود درويش.

أسرع للرف. ديوان درويش «لا تعتذر عما فعلت».

لأجدها.

جزء من قصيدة «هي في المساء»:

لا شيء يزعجها معي

لا شيء يزعجني، فنحن الآن

منسجمان في النسيان.

كان عشاؤنا، كل على حدة، شهياً

كان صوت الليل أزرق

لم أكن وحدي، ولا هي وحدها

كنا معاً نصغي إلى البلور

(لا شيء يكسر ليلنا).

أنهي قراءتها وكأنني أذوقها للمرة الأولى.

هي الفرحة في فك الجملة الشهية.

لكن هل فككت اللغز حقاً؟

ومساء التواصل لا الاتصال يا تيماء!

الساعة الواحدة صباحاً

أغلقت الدفتر، وتساءلت:

«هل يمكن لأيماننا أن تحمل لغزاً يتناول في داخلنا ليصبح حلّه طعم الحياة كلها؟!».

ثوانٍ ويُفتح باب المكتب، فيخرج رجل مسنّ حاملاً الكثير من الأوراق، ومن خلقه يطل رجل وراءه في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات. تشعر

بينما تتقدم نحو مكتبه أن صوته يأتي من مكان عميق، فيربكها دون أن يقول أكثر من: أهلاً أهلاً حنان. تفضلي.

للحظات تنتشل نفسها من أثر الارتباك فتقف.

لكنها لم تستطع الرد على ترحيبه.

فمن أين يأتي رجل لعبت معه في طفولتها، ثم أتت له بالشاي والقهوة؟ من أين يأتي رجل كقصي بكل هذا الوقار؟ وكيف لا تقدر على تمرير عينيها على ملامح وجهه، ورغم ذلك تقرر أنها عصية وجميلة في الوقت ذاته.

فما الذي حدث لحنان كي ترتبك هكذا؟!

منذ مدة طويلة لم ترتبك.

ربما تعثرت عندما استلمت شهادة تخرجها من الجامعة؟ أو عندما جاءت أخت سميح لتعابنها وتلمس ملامح الأنوثة بيديها في بيت خالتها، أو حين استقبلها سميح على جسر الأردن مع عمها وامراته؟ أو عندما عقدت قرانها ولبست الثوب الأبيض؟ أم حين بقيت في الغرفة تنتظر زوجها، ودنياها الجديدة؟!

«اهدئي! إنه لا يعني شيئاً لترتبكي» تفكر بينما تجلس على كرسي جلدي بني.

تجول عيناها المكان الملون بالخمري والممزوج بقليل من الخطوط السوداء التي تمنح المكان فخامة هادئة، فترتاح قليلاً، تجلس مقابلته وترفع رأسها

لوجهه لتصطدم بعينين متعلقتين بوجهها، لترتبك من جديد وتشعر بحرارة ترتفع إلى وجهها وتلونه بالأحمر.

كان شعره أسود، يصففه بطريقة عفوية تبرز كثافته، لم يكن خفيفًا كما كانت تتخيل قبل قليل، ثم إن له بشرة حنطية، ورموشًا طويلة، وأنفًا متناسقًا مع حجم وجهه البضاوي.

الوقت بطيء لا يمر، هكذا شعرت بينما تفتقد القدرة على ابتداء الكلام. فتحهما.

شفتان صديقتان بانطباقهما وافتتاحهما المباغت.

- أهلاً بك في مكتبك، الحقيقة أردتُ إخبارك في المقهى بأمر الرسالة والوصية لكنك كنت مستعجلة جدًا.

- ها أنا هنا بكل حال.

الصمت يسود ليجعل توترها يتصاعد، فتسارع بالقول: هل هما معك الآن؟

- آه، نعم، ها هما.

وناولها مغلفًا، واقفًا ومتعثراً بصوت الكرسي في حركته.

- كان متعبًا جدًا، أعطاني هذا المغلف قبل أن يموت بيوم واحد، أظنه كان يشعر.

رغبة جامحة تجتاح حنان الآن في شم المغلف وتقبيله، في اللحاق بآخر شيء يحمل رائحة والدها.. كانت الدمعة لحظتها مختنقة في حلق العينين، تجاهد في خنقها أكثر، تفلح، ليبقى ذلك البريق الغائر في حزن سقط كحجر في بركة ماء.

تتبدل المشاعر بعجلة، كل واحد يسلم للآخر عصا السباق، والحزن آخرها وأكثرها قوة فيبقى راسياً للنهاية.

- شكراً سيدي.

- قصي، قولي قصي دون سيدي تلك، كنت صديق أخيك أسامة وما زلت، ووالدك كان بمثابة والدي رحمهما الله؛ نحن أهل، فإن احتجت لأي شيء فاعتبريني أسامة.. يلعن الغربية، عليه أن يعود ليكون قريبك، أنتما بحاجة لسند أحكما الآخر.

- معك حق.

الكلمات تلف حبلاً حول رقبتك فتخنقك.

صخرة جاثمة لا تتزعزع: الموت/ ريح، الغربية/ ليل، الفراق/ وخز، الطلاق/ جرح، الذكرى/ ألم.

هي لا تذكر آخر الكلمات التي قالها قصي، لا تذكر ما تمت به أيضاً كي تخرج دون أن تنطق الدموع بأكثر مما يجب، تذكرت فقط صوت الباب وصفعة الذاكرة الأخيرة حين تمثّل كفن أبيها أمامها بالبياض الكامل.

وستذكر لاحقًا أن اسمها كان يتردد على لسان لم تدرك صاحبه.

-٧-

غشاوة تغطي عينيها..

ترى الألوان مختلطة، والسماء رمادية كرصيف، والسيارات صفراء وحمراء وخضراء، والأعلام فوق البنايات معكوسة للأسفل.

اسمها ما زال يتردد، وتستشعر بالوقت الذي سيتسرب إن نظرت للخلف، لكن وحين يصبح اسمها قريبًا جدًا، قريبًا جدًا من أذنيها المتعبتين، ولما أرادت تجاوز خط الصوت، كان قبالتها، فتوقفت.

التفت العينان هذه المرة، تمتّ حينها لو أنها كانت أقوى من تلك الدموع التي أخذت تتساقط رغماً عنها، لو أنه كان أسامة ليتسع صدره لرأسها، لو أن في الإمكان أن تحتضن هذا الرجل أيًا كان!

ولو أن ذلك الحزن لم يكن يعوي في جوفها كذئب.

وقصي الواقف أمامها مثل تمثال نُحت على وجهه مسحة ذهول، ناولها حقيبتها التي لم تنتبه لنسيانها، وعاود النظر حزينًا ثم عرض عليها، بعد صمت طويل أن تزور أمه فربما تخفف عنها بعض ما يرى، وحين شكرته رشحت رغبته في البقاء معها ريثما تصل إلى بيتها. حركت رأسها يمنة ويسرة. تركته ومشّت.

أخذت الحقيبة وبقيت ضاغطة على الوصية بعنف.

كانت تدرك أكثر من أي وقت سابق أنها لن تجد جرير العيسى حولها، لن تجد يديه تمتد لتضمهما بين كفيها، ولا عينيه التي ترقبانها بحب، لن تجد إلا الفراغ يعبّ في المكان.

الأبواب التي ستفتح فيها، ستدخل خلالها وستخرج، إنها الآن أقرب ما تكون إلى زوبعة ستهب في أي لحظة.

تغلق الباب خلفها على عجل مهمةً ارتجاف جسدها كاملاً.

تشم المغلف وتقبّله؛ هو آخر ما أراد أن يقوله والدها بعد أن خبا صوته فجأة ولم يعد الهاتف يجدي في نقل أقل ما يعبر عن الجوف.

آخر مرة تحدّث معها كانت الحسرة قد تملكته، ولما حاولت عبور الجسر العجوز إليه، كان قد انتهى صوته كله، ولم يبق منه حتى تلك الهمهمات التي توحى بأنه على قيد الإحساس.

تقف قبالة صورته المعلقة فوق باب غرفته.

وتقرأ بصوت متذبذب رسالته/ الوصية:

ابنتي وحببتي حنان:

الحمد لله الذي خلق الحياة والموت، ومنحني من فضله وكرمه أنت وأسامه، وجعل لي من المال ما يحميكما من ذل الحاجة، فله الحمد من قبل ومن بعد.

إليك أيتها الحبيبة/

في صمتك الذي اعتدته بعد غيابك أكثر، كم أذكرك وأنت تهزين رأسك
وتستمعين، تأكلين وتنظرين، تدمعين كلما ذكرت أمك بصمت أيضًا، تجلدك
الأثقال وتبتسمين، لم يكن لي أن أتخيل وحشة رحيلك ذاك، ولا كم هو
موحش صمتك، فمجرد أنفاسك كانت تمنحني الحياة بألوانها، ولو أنني
فقدت الكثير من درجاتها بعد وفاة أمك.

غابت أمك قبلك بخمسة عشر عامًا، هي غابت في التراب، غابت فغطست في
الحضور أكثر، كان كل شيء في يشتاق إليها بسخاء.. وأنت غبت في الماء،
غبت فكنت كأملك تحضرين بشدة ويشتاق العالم الراكد من حولي لصخب
خطواتك العجلى على الأدراج على الأقل.

أتذكرين الديك الأسود؟

الديك ما عاد ينقر الدجاجات الصغيرات يزاحمهن على بعض ما كنت ترشين
من أرز أو حنطة، بعد غيابك عرفت أنه كان يفعل ذلك لتحضري إليه، لتحمليه
بعيدًا، لتزجريه بعينيك.

هو أيضًا كان يحبك.

حاولت أن أسقي نباتات الزينة التي غرستها في كل زوايا البيت، كي أشعر
بامتلاء وجودك، لكنني فشلت. ببساطة، قلت لي يوم بدأت تكثرين منها: «هذه
ضد عادية الحياة، الحياة التي بدأت تخبو وتخفت ألوانها يا جرير يا أبوي».

ما زلت أذكر عينيك المتدفقتين بالحياة وبسمتك التي كانت تملأ الكون كلما قلت لك: الله يرضى عليك.

قالوا لي إني مريض! هذا مضحك جدًا.

لقد بلغت الثالثة والسبعين فماذا عساي أكون؟! أنا اليوم أفضل بكثير، لكن الشباب يعود، ورغم هذا فإني أعرف أن أجلي دنا مني، اليوم أو غدًا. أبي مات بعدما شعر فجأة أنه أفضل، يبدو أنها وراثة أو أن معظم الموتى هكذا، يشعرون بموتهم قبلاً.

يعزّ عليّ أن أفطس على فراشي بعد كل سنين العذاب في السجون والمحاولة والرغبة في تغيير شيء، لقد دفعت ثمناً جديداً لم يكن في الحساب.

يعزّ عليّ ألا يفارق لموتي أحد حتى بعد أيام، أواجه هذا بالانتقال إلى تل اللوز، بين الناس والأصحاب، أريد توديع الجميع.

ياه يا حنان؟ يعزّ عليّ أنني لن أراك قبل موتي، ولن أرى أطفالك يقولون لي: جدي، جدي، تخيلتهم مرارًا، تشكين لي شقاوتهم، يشدون شعر بعضهم، وابنتك مزهوة بفستان اشتريته لها، لا أدري لم أتخيلهم أشقياء جدًا، يعبثون بكل شيء، ويغيرون طعم كل هذا الهدوء اللعين، إلى شيء أشتاقه وأحن إليه!

تمنيت.

أسامة بعيد هو الآخر، صحيح أنه يتصل بي دومًا لكني لم أعد أقوى على الكلام، صار يبكي فقط، مثلك.. أهمهم محاولاً منعكم من البكاء، عبثًا.

ساعتها شعرت بالعجز. عجزت أن أقول إني مشتاق لكما حولي، وإني أحبكما أكثر من أي شيء.

حنان يا صغيرتي:

أخبري أسامة أن يعود، الديار لنا. لمن نتركها إن رحلنا؟ ألا يكفي أن أخذوا قرانا واحدة واحدة، وأصبحنا لاجئين في أرضنا؟ عودوا، حتى لو كانت العودة إلى تلك الخيمة.

عودوا.

هل أسرّ لك بشيء؟

أندم أحياناً لأني زوجتك بابتسمك، أسأل نفسي كثيراً: هل رأيت زواجك حقاً لا بد منه، من باب إعادة الحقوق للنازحين في الـ٦٧؟ لكنني أمحو هذه الفكرة وأنا أردد كلام عمتك: البنت تحبه! لكنني لم أسألك.

الآن في هذا البعد الذي خلقتة بيننا أبدو غيباً جداً، لم أنس أنك ستغيبين، وأنا سأنتظر مدة ليست ببسيطة حتى أمّني نفسي بروؤيتك.

كنت أشعر بالحسرة لأجل هذا الزواج كثيراً.

فهل أخطأت بحقك؟ أم أنك الآن سعيدة حقاً؟

لا أعرف.

أعرف.. على الأقل خوفي عندما سمعت صوتك صباحًا، صوتك المفعم حل
مكانه ذلك الحزين، الباهت، المقترب على الفور من أول كلمة من حالة
الانحدار نحو البكاء.. هل كنت تبكين لأنك مشتاقة لي، أم لأنك لست سعيدة
حقًا؟

يا حنان، لو كان عليّ فلا تبك.. بكاؤك يعذبني.. يعذبني.

لا بدّ أني سأنام طويلاً، سأذهب إلى حبيبة سبقتني، تغرف لي بيديها بحر
حب عليّ أرتوي، ظمآن هو أبوك إليها. هي حتماً تعرف.

خمس عشرة سنة حاولت فيها أن أكون الأب والأم، وأجزم أني فشلت، يوم
عرسك عرفت ذلك.

كنت لا أعرف كيف أفرح لأجلك فرح الأب والأم معًا، أم خالد ساعدتك، لكنك
ذهبت للأردن معي وحدك، وأنا لم أفلح بعمل شيء.

سلمتك لزوجك وعدت إلى نابلس مثقلاً بالأسى والحزن.

وددت بعدها لو أني عدت واسترجعتك، لكنني احتقرت أنايتي التي سيطرت
عليّ، فأكملت المسير أعدّ الأيام التي لم تنته كي تحضري، اليوم وغداً وبعد
غد.

حنان:

تركت مالا وأعرف أن المال لله، فاتركي الجزء الذي تريه مناسباً لوقف ما،
ربما لو مشرباً للماء البارد على الطريق، ثم اتركي لي في نافذة الدار صحنًا

مليئًا بالماء، أريد لتلك العصافير أن تبقى قريبة منك، أريدها أن تشرب، وسط هذا الجفاف والجشع والحرارة. ثم إنني سأحتاج هذا الخير، أليس كذلك؟

لا تنسي الدعاء لي في صلاتك، وأن تزوريني يا حنان.

زوريني، ولا تكوني جافية.

كتبي لك، أعلم أنك أفضل قارئ ومحافظ عليها، لأنك حتمًا لن تنسي أنني جمعتها من دمي، وابقى على العهد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

سأدعو الله لك ولإخوتك حتى أعود لحضن الأرض.

أبوك الذي أحبكم بكل ما استطاع

جرير العيسى

-٨-

يستيقظ الصباح الممطر ناعسًا، إذ يبدو الصباح مشابهاً لأول الليل، أزرق.

ستتحسس وجعًا في رقبتها وكتفيتها وقلبها، ينبع الوجع مع كل حركة، الرسالة ما تزال أمامها، وما تزال تشعر بثقل هائل، تمر ببطء في داخلها فتزيدها انهدادًا، ثمة بكاء عالق في الحلق، ثمة أيضًا مواساة خفيفة لما يأتي جواب السؤال: أتراه سيكون سعيدًا لو أنني عدتُ مطلقة؟!!

ستبدل ملابسها بمنامة دافئة، ستتوضأ وتصلي ما فات والفجر، وستصنع شايًا مطعمًا بعشبة زعتر بلاط، وستجلس في سريرها ساحبة الدفتر من سباته، علّه يخدر أوجاعها المتراكمة.

وستبقى تتسأل كلما لمست جلد الدفتر المتموج: لم لا تعيده لصاحبه؟ وكيف بإمكان دفتر عادي كهذا أن يواسيها.. كصديق قديم؟!

٢٠ / ديسمبر / ٢٠٠٥

تعدينا باب منزلها. رحبت بنا وهي تخيرنا بين الجلوس تحت ما بقي من عريشة العنب أو غرفة الضيافة أو غرفتها. كانت شجرة العنب تمتد بسوقها فوقنا، وأسفلها إلى جهة اليسار باب حديدي صغير لبئر قديمة ويبدو قيد الاستخدام، أمامنا مباشرة شجرتي ليمون ورمان. نظرت إلى وجه جمانة حتى أقرأ المكان الذي تريد الجلوس فيه، فلم أجد ردًا، ولما اخترت الباحة لخزنتي في خاصرتي وهي توشوشني: فوتي علينا متعة التسكع في خصوصيتها! أتمتم مقتربة منها: لكنك تحددين ما تريدين في الوقت الفائت، فضحكت مغتظة قليلًا.

غادرت وجهها المغتاض لوجه رولا، صديقة جمانة.

أذكر جمانة وهي تعرض عليّ الذهاب لمناقشة رسالة ماجستير عن رواية الخيميائي للكاتب البرازيلي باولو كويلو. ترددت حينها: لكني لم أقرأ الرواية يا ستي!

لترد عليّ: براحتك.. لكن فكري إلى أن أراك. مشيت قليلاً أمامي ثم لفت وجهها نحوي وصرخت: اعتبرتها المرحلة الأولى من اكتشاف الرواية.

رولا ناعمة كما تبدو ملامحها من بعيد، لكنني أعترف أنني أخاف نظراتها الحادة، وصمتها الذي يأتي مثل كلامها بلا مقدمات.

كانت ترتدي جينزاً بلون السماء، وبلوزة سوداء مكتملة العنق، لتبدو بتلك الألوان نحيلة وطويلة أكثر مما تبدو عليه عادة.

أستأذن رولا بقطف حبة ليمون بدت شهية من بعيد وأنا أقول معترفة: لم أقرأ الرواية بعد رغم أنني أعجبت بمناقشتك، أيمكنك إعارتها لي؟

لم تتكلم. دخلت لتجلب القهوة، قالت وهي تناولني فنجانني: نسختي لا تُقرأ، على كثرة ما اعتراها من خطوط ودوائر، لكن لديّ نسخة أخرى استعرتها قبل شراء نسختي من لؤي قبل سفره فيما أظن، يمكنني إعارتك إياها على أن تكوني عليها حريصة.. على فكرة، من كثرة حديث لؤي عن الرواية أتت فكرة رسالة الماجستير.

مرّ اسم لؤي دون الكلام ملوئاً.

- صحيح بتعرفني لؤي؟ لؤي نديم؟ جاء سؤالها، فأجبت: ليس تماماً، لكنني سمعت عنه وقرأت له بعض النصوص والدراسات النقدية.

- كنت أقول لؤي هذا لا ينفع معه إلا ذلك، لديه إحساس غريب تجاه أي نص، ينظر إليه بطريقة لن أعرف أبداً كيف أصفها، نعم، من تلك الزاوية التي لن تخطر على بالك، ومن هنا يأتي الإبداع في نقده، الكلام الذي يقوله لك لن

يقوله آخر، كما أنه يمزج التصوير والتمثيل والمسرح والسينما في النص بأعجوبة، أضيفي إلى كل ذلك إبداع كتابي وتدفق إنساني، تعرفي عليه؛ سيفيدك حتمًا.

أنتِ تكتبين، أليس كذلك؟

قرأتُ لك نصًا في مجلة الجامعة.

تحدثنا بعد ذلك عن الأدب والكتابة والأقلام الأدبية الجديدة فلسطينيًا، وعن تجاربنا الخاصة في الكتابة، و... لكن كل هذا ما كان ليُجعل الكلام يزهو لو لم تعد للحديث عن لؤي في عرض الحديث مرة أخرى.

عيناها اللتان كانتا تلمعان وهي تحكي عنه، تدفقها الفجائي في الحديث ونشاط حركتها، هل تحبه؟!

أعود إلى البيت، أقلب الرواية بتؤدة.

على صفحتها الأولى كتب بخط أحمر عريض: لكل إنسان أسطوره الذاتية، موقعًا اسمه بأسلوب يشبه رص المكعبات وتفريقها.

بدا خطّه مختلفًا عما حاولت رسمه في خيالي:

الكلمات متباعدة عن بعضها رغم أن حروف الكلمة الواحدة تبدو قريبة جدًا، الهمزة والنقاط على مسافة بعيدة من أصل الكلمة، أول الكلمة تبدأ عند نقطة واحدة وتنتهي أيضًا بنقطة واحدة واضحة المكان، كما أن مجمل الخط واضح، يزيد من ذلك ضغطه على القلم أثناء الكتابة.

أسفل سطور الرواية خطوط مميزة على جمل بعينها:

«عندما تريد شيئاً من كل قلبك فإنك تقترب من روح العالم».

«أي يوم يصلح كسواه للموت».

«الحب يتكلم لغة العالم».

«اذهب، وحاول».

«الإنسان يحب لأنه يحب، لا يوجد أي سبب للحب».

«انتبه إلى الحاضر، يمكنك أن تجعله أفضل، إذا أحسنت الحاضر فسيكون ما يتلوه أفضل بالمثل».

وتوقفت أمام علامة نجمة لم تتكرر إلا في موضعين، الأول:

«حيث يكون قلبك يكون كنزك».

والثاني عند الفقرة التي يعتمرها حديث بين الراعي وقلبه في الرواية:

* قلبي خائن، هو لا يريدني أن أستم.

- هذا حسن، ويدل على أن قلبك يرى.

* قلبي يخشى أن يتعذب.

- قل له إن الخوف من العذاب أسوأ من العذاب نفسه، وأنه ما من قلب تعذب وهو يسعى وراء أحلامه، لأن كل لحظة من البحث اقتراب من الله ومن الأبدية.

أشعر أن الرواية بتلك القصة الساحرة قد ردّت لي الكثير من الثقة، لقد أضاعت الرواية ذلك الجزء المعتم من المحال، وزادت عليه إشراقة.

لكن سؤالاً بدا ملحاً: ما هي أسطورتى الذاتية؟ علام أبحث؟ وأين أريد أن أصل؟ أسئلة طرحتها قبلاً وعليّ أن أسارع في الإجابة.

لؤي؟!

هل من الطبيعي أن أجد اسمه حولي هكذا؟

أهو شبّح جميل الفلسفة، حين تلفني الخيوط الذهبية وتغريني بلمعانها الأخاذ، فأتوق الوصول إليه. أنا النهمة التي لا تعرف الشبع.

الساعة ١١ ليلاً

تغلق حنان الدفتر وصدى جوفها يردد:

* قلبي يخشى أن يتعذب.

- قل له إن الخوف من العذاب أسوأ من العذاب نفسه، وأنه ما من قلب تعذب وهو يسعى وراء أحلامه، لأن كل لحظة من البحث اقتراب من الله ومن الأبدية.

كانت تتساءل ما إذا كانت خائفة أم متألّمة أم منكسرة أم وحيدة!

أم أنها واقعة في كلها معًا!

وأي حلم هذا الذي يليق البحث عنه فيصبح اقترابًا من الله؟

كان الوصول إلى سميح، والصورة التي رسمتها عنه لسنوات، يجعله هدفًا جيدًا، فإذا بالحياة خالية جدًا وباهتة، وغير ممكنة حتى وهو يدخلها.

كانت تتشبث بجسده كي تعلق روحه عبثًا.

بدا أبعد بكثير مما توقعث.

فأي حلم هو؟

ولماذا تحشر سميح في دنيا تتسع لألف حلم ويزيد؟ وأين هي الأحلام الكبيرة التي تقاسمتها مع ليلي وأسامة ووالدها؟

الاختناق يلفها، فتدلف للشرفة، حيث الضجيج يحرك الحياة، ويصنعها، وصوت المقهى المجاور يفتح أول أفواهه مع ضحكات الرجال، صوت فيروز يصدح أيضًا، لكنه على غير القصاصات المنشورة، يثير خواطر متكاثفة إذ يصلها مقطع أخير:

يا دارة دوري دوري موعدنا ع العيد

تا يكبر الدّوري ويحمرّ القرميد

ويا هالصّبح النّاطر.. القاعد بالقناطر.. نحنا هالأ جينا

حبيبي والليل.. راحو ببحر الليل.. ونسيوني ع المينا

ستحدث نفسها كما تفعل عادة، وستذهب الخواطر في مسارات روحها، وجعًا
تضيفه كلما نسيته:

«جئت يا حنان.

لكن حبيبك ذهب ببحر الليل ونسيك عند أول ميناء!

فهل كنت سمكة تلتمعين بالشمس، وتسبحين في عمق الحلم ونسيت البر؟

ليل بحر، ونساء البحر مسكينات، كلما قرأت لـ”حنا مينه” تأكدت من ذلك.
موجوعات بالبعد. عطشى وهن قرب البحر، ساهرات في انتظار نسيم يأتي
ويزلزلهن، ولما يأتي يذهب كأنه أمانة يستردها البحر.

أهي ضريبة البحر وزرقته وكرمه واتساعه؟ أم أن النساء هناك تعودن
الانتظار، دونك أنت التي تمقتينه وتبتهلين كي ينتهي.

هو في بحر الليل، وأنت تتمنين لو كان في عرض البحر، ربما لأملت عودته إن
هب النسيم، لكن الليل موحش، والبحر عميق، عميق.. وقد ابتلعه.

سميح لم يعد حبيبًا، ولا أنت تريدين العودة إليه، منذ تمتم بذلك الاسم
تكسرت أشياء كثيرة فيك على امتداد عمرك وروحك وجسدك.

فمن ذاك الذي سيعيد الزمان لأوله؟!

كنت تسمعين: أجمل الحب أوله.

وأنت فقدت سميح وذلك الأول.

فقدت والدك، وأمك.

فهل يعني ذلك أنك فقدت كل قلبك؟!».

تغمض عينيها.

ثمّة وجه نادى باسمها ووقف قبالتها، ونظر في عينيها تمامًا، وأخذ يهذي فلا تفهم شيئًا، ثمّة ردّ بلا ردّ، مجرد هزة للرأس يمنة ويسرة، وغرق بالدمع.

ثمّة أحاسيس تحركت حينها.

ثمّة...

سيقترّب خياله منها، وستصرخ:

«يكفي..

يكفي..

نامي».

-٩-

أمام منزل جدتها/ خالها وقفت سيارة الأجرة.

حين مرّت من البوابة الرئيسية انتابتها لحظات حنين، فأخذت تدور في أرجاء البيت.

منزل جدتها كما هو منذ استقر فيه خالها، أغلقت الدار التحتا ولم تعد تُفتح أبداً بعدما بُني فوقها.

الدار التحتا.. البيت ذو الأبواب المقوسة، والشبابيك المفتوحة على شمس كقنديل ينطفئ رويداً رويداً كلما أخفضت الفتيل وجاء الليل. هناك طاقة أخرى تذكرها في الحائط بين الغرفتين الكبيرتين، منحوت حولها نقوش نباتية دقيقة فاتنة، المكان الذي كانت تضع فيه جدتها الوسائد والأغطية واللعف الثقيلة.

زناد حديدي بليد أغلق كل هذا الخير، وأبقى مساحتها أشبه بالمهجورة، النافورة فارغة من الماء، والطابون مغلق بابه وبارد، والليمون والزيتون بديا على اخضرارهما باهتين، فما الذي حدث بالدار؟

هذه الدار بناها جدها في ال٦٧، كانت حينها سقيفة صغيرة، سرعان ما كبرت عندما عرفوا أن الدور هناك لم تعد لهم، وأن مرج بن عامر ما عاد يستقبل أحداً من الفلسطينيين ولا العرب.

والآن.. تتوجس خيفة بينما تصعد الدرج للطابق الثاني، وحين يُفتح الباب، تُمسح الوجوه بعلامات الحياء، غير تلك الأعين التي كانت تبتسم كلما طل وجهها.

أخذ خالها الحقيبة الصغيرة التي حملت فيها قليلاً من ثياب وبعض الهدايا للأطفال ولأمل. كانت محتارة بشأن ما يليق بأمل، دارت السوق القديمة كلها. هي تفضلها؛ صافية وطاهرة، عيناها لا تكذبان، ووجهها شفاف لدرجة تجعلها أشبه بانعكاس الأشياء على الماء. أمل أيضاً تحبها، كانت تُسر لها بأخبارها

الصغيرة، وتخبي قطع الحلوى لليوم الذي تحضر فيه للقريبة، بينما كانت تدرس في نابلس المدينة مرحلتها الثانوية ومن ثم الجامعة.

لن تنسى يدها وهي تلفها بشال حريري جميل وتوشوشها وهي فوق «اللوج»: «ستبدلين به أجمل حتمًا». وباركتها. كانت تعرف بقصة سميح، لكن أيًا من معارفها لم يكن يعرف أن قصي كان جزءًا من الحكاية أيضًا، وسيكون الحكاية كلها، لاحقًا.

«ستسألك حتمًا لم.. لم راح سميح؟».

فما الذي ستقوله حنان؟

لما دخلت كان الفراغ يعمّ الصالة.

لم تتأخر عن الغداء، لكن خالها كان مستنفّرًا، قالت له مازحة إن الشيب يجعله أكبر سنًا وإن عليه أن يصبغه بلون كستنائي يناسب لون بشرته. فغضب، وتمتم بتلك الكلمات التي تكرهها: «إنتِ بشو والعالم بشو!».

شعرت بالدمع يحتبس في حلقها ويتوقع فيصعب ابتلاعه، ثم جاءت امرأته بالغداء. مدت يدًا باردة لتصافحها، ولم تسأل عن أخبارها، وضعت الطعام وغادرت.

في نهاية الأمر، وجدت حنان نفسها جالسة وحدها مع خالها تأكل، كانت هذه المرة الأولى التي تبدو وإياه وحدهما دون كلام، ولما سألت عن أمل أجابها باقتضاب: تدرس! ولم تسأل عن البقية. كانت الإجابات تلتهم في العينين

المتجاورتين اللتين تتحركان سريعًا، وكان شيء فيها يهذي: «ليس هذا مكانك».

خرجت للشرفة فأمرها بالرجوع كيلا يراها أحد.

كادت ساعتها أن تنفجر، قلبها كان محشواً بالألم، لكنها اكتفت بكلمات أقل: «وهل أنا عيب يا خالي؟ أتراها نجاسة ألا أوفق في حياتي وأصبح مطلقة؟».

شعرت بسخونة الدمع يلامس شفاهها ويذوّب على لسانها الملح.

كانت تنظر في عينيه تمامًا بينما طفا على وجهه معالم شفقة مقيتة، ساد صمت طويل، ثم قال بعدها:

«المشكلة ليست في الطلاق، المشكلة أنك تجاوزت ما عهدت عليه عائلة العيسى، كان عليك أن تصبري عليه، أن تحاولي احتواءه، ما وصلني يقول عكس ذلك.

النساء هنا جاهزات للتضحية دومًا والتنازل، فما الذي دعاك لغير ذلك؟

النساء عندنا يضحين بالمال والولد والعمر ربما، وأنت يا حنان ماذا قدمت؟ لا تفتعلي الحزن مطلقًا.

أحترم فقدك لوالدك وحزنك عليه، لكني لا أحترم امرأة لا تكمل دورها إلى النهاية.

على فكرة.. لديّ كلام آخر، أقوله حين تهدئي».

غادر بعدها الشرفة دون أن ينتظر أي كلمة منها، أخذت تتنفس بعمق شديد، وتزفر وكأنها تتخلص من حمل ثقيل. رغم أن ما قاله فعليًا يزيد عليها حملاً جديداً.

لقد وضعها أمام مرآة تعكس صورة لم ترد رؤيتها، لعلها توقن أنها ليست ضحية أحد إلا نفسها، أنها لم تفعل شيئاً، وأن أي كلمة غير ذلك كذب.

«كوني صديقة يا حنان مع نفسك. تصالحي معها، بعدما علمت أن هناك امرأة أخرى أكلت الغيرة، فجعلت النار نارين، أيمكن أن تنكري أنك وضعت صورة رجل على شاشة هاتفك وأخذت تغيظين رجولته بها؟

أنت لم تكلمي دورك فعلاً، كان إحساسك ناقصاً، الحب لم يكن إلا مراهقة الصور وافتعال الأحلام كي تتحدثي عن شيء رومانسي أمام ليلى، ليلى التي كانت تحب وتُحب.

كنت تتجاهلين قصي.

ربما كان الصدق الوحيد في حياتك.

الصدق الذي تجاهلته طويلاً، لأنه لم يعبأ بك.

ذهب وتزوج من ألمانية تفوقك في كل شيء.»

سمعت بعدها صوت العصافير صافية متجانسة مع بعضها، شعرت أنها تتخفف، ورأت الناس يتحركون بهدوء مقارنة بمدينة نابلس، بقيت في الشرفة حتى أصبحت الشمس على وشك الغروب، شاهدت تناثر لونها

البرتقالي على الأفق الممتد حقولاً من اللوز والزيتون والحمضيات، بدت الألوان ممتزجة وهادئة، لكن شوقاً هبّ فجأة بينما ألقث نظرة على الشوارع فيما بينها.

هل كانت مشتاقة حقاً للشوارع الترايبية المؤدية للأرض؟

ما زالت تتأوه كجدها على أرض كانت، وأكلها الخوف الأحمر، سموها نكسة صغيرة، لكن أم سلطان ماتت وهي تقول لأمها إنه الموت، ما يحدث موت، جدها لم يصدقها، وأخذ يصرخ في وجهها.

لما اشترى قطعة الأرض (التي تشكل جزءاً من الأفق) ندم. كان يضرب كفاً بكف ويتمتم «كان معك حق يا أم سلطان» ثم مات صامتاً.

أمها أخبرتها كيف مشوا من الجليل إلى نابلس على الأقدام، وكيف كانت القلوب تصل عنان السماء، خوفاً.. يتضرعون بالأكف وينحنون إلى الأرض فيقبلونها ويدعون الله، وحين تأكدوا من أن العجين الذي تركته جدتها لن يُخبز على طابون دار العيسى الكبير، أخذت تندب الحظ. سمعها خال أمها فأشار ناحية القلب، وأخبرها أن الأمر لا علاقة له بالخط.

«هذي خيبتنا. خانونا يا أختي، خانونا».

هو أيضاً ضرب كفاً بكف، غير أنه لم يصمت مثل جدها.

قال: هي الخيانة.

فهل خانت نفسها مرات عديدة وهي تحلم بسميح آخر، تاركة الأرض
والذكرى ومرجه العامر، لغيرها، دون كلمة حتى؟

أهناك فرق حقيقي بين ما تفعله بنفسها وما فعله آخرون بها/ بنا؟

صغيرًا كان سميح حين بدأ قلبه يخفق على غير المعتاد كلما رأى ابنة أستاذ
الفيزياء، فهل يحق أن تعلق حزنها على الاحتلال وسنينه؟

لو كان سميح هنا لعرف أن لا يريد لها، لكانت عيناه تغزلان أشياء أخرى غير
اللمعة.

ولو كان يملك هوية فلسطينية لما اضطر للزواج بها، ولقال لأبيه أحب أخرى
ببساطة، لكنها الأرض.

«أهل ال٦٧ خارج البلاد لا يملكون هوية فلسطينية، والأرض ستذهب لغيرنا،
قلنا ما لنا إلا ابنة عمه، تستره وتنجب أطفالاً يحملون دمه وهوية فلسطينية،
ويعودون للبلاد، مش أحسن ما نخسر يا أخوي؟» هذا ما قاله عمها لأبيها
بالحرف.

غادر النهار، وجاء الليل.

نسمات الهواء الباردة تلفحها حاملة رائحة الياسمين وليلة القدر، الشوارع
البعيدة مضاءة بأضواء برتقالية تشبه نجومًا ساقطة.

تسرب شيء من الدفء اللذيذ إلى إحدى كتفيها، ليمتد صوت بهي يسألها:
أما زلتِ تحبين العتمة؟

كانت أمل.

طبعت على خديها قبلتين دافئتين وجلست على مقربة منها.

قالت حنان: العنمة توحى بسر قادم. تعرفيني أحب الأسرار، ولديّ قناعة تقول: امرأة بلا سر محض خيال.

- بدأنا بالجدّ الذي أحبه، انتظري حتى أجلب القهوة أولاً.. ردت أمل بنشوة الأسرار وجمالها.

شعرت حنان بالسعادة على نحو مفرط. نشوة حضور أمل مختلفة، ونشوة لتحطم الظنون أيضاً.

دخلت قائلة: لنعد إلى الجد، تذوقي القهوة وقولي سريعاً أنك اشتقت لتذوقها معي.

- امممممم، فعلاً اشتقت لقهوتك، بل لكل شيء.. ستصدقين أنني لم أرَ ليلي بعد؟

- ليلي مشغولة بولدها الجديد، جاء في شهرها السابع وما يزال في الحضّانة حتى يكمل التاسع، وهي بعد العملية القيصرية، تكاد لا تقوى على المشي.

- لا بد أن التعب يغيّر النفوس أيضاً كما كل الشاعر، لكن تعبها سيكون دبقاً ما إن تلقم الطفل ثديها، وتبدل له ثيابه، وتداعبه. وحشرت بقية الجملة في قلبها: «تعبك أنتِ غير، بهدّ الحيل».

بدأت ملامح أمل تتفتح رغم صمتها، حدست حنان أنه الحب الذي يجعل
الرائحة تطير فلا تملك اللحاق به، ذاته الذي لن تندم على عيشه مهما شعرت
الآن بانعدام جدواه، باغتها سؤال حنان:

- أيجبك؟

تلعثمت قليلاً، وانتابتها بحّة خفيفة شربت بعدها كوب الماء الموضوع على
الصينية بعجل.

اقتربت حنان من وجه أمل ومسحت عليه، ثم تمتمت بصوت خافت بدا
صوتاً لم تتعرف عليه.

- باين عليك، ما دخلني؟

- معقول؟

شعرت بحرجها، فمدت يدها على صفحة من الدفتر الأسود ووضعت في قلبها
جورية حمراء جافة وبعض أوراق الياسمين.

الاثنين: ٢٧ / ديسمبر / ٢٠٠٥

هو البرد.

أقف أمامه طويلاً فيصفعني الاكتشاف: كم أبدو محتاجة للدفع!

كم أنا فقيرة لجنون النار!

وكم عليّ أن أضع فوقى من أغطية هي لا تمنحني سوى دفن صراخ جوفى
الذى لا يهدأ!

وحين أنسى ألم بردي وأتنازل عن أغطيتى، يعود كاشفاً عن أنياه مستهزئاً
بى، كدينصور غير قابل للانقراض.

أكرر السؤال أخيراً: متى سيجتازنى هذا البرد متسللاً ببلهاء غيرى؟

لكنها الحياة تمنحني الإجابة على مهل: البرد كالموت، لا ينسى أحداً، لا ينسى
أحداً.

كتبْتُ هذه الكلمات صباحاً وقد نمت ليلة مقلقة ومعجونة ببرد قاسٍ، لكنى
اليوم أعترف أنى نسيت هذا البرد حين حدثت لؤى ماسنجر.

منذ أمد بعيد جداً لم أشعر بالدفء فى الشتاء، سألتى إن كنت أحب الشتاء،
فرددت بالإيجاب. ليقول: تعرفين إذن سر الرائحة وعذوبة الماء!

هل استعجلت لما قلت: وأعرف كيف يصبح الصمت فى ذلك الوقت أرجوحة
نطير بها إلى السماء، فتشرق قلوبنا بالشمس.

فلماذا طار قلبى حين تابع: ياه! أنتِ تفهميننى جيداً! سنتفق إذن.

هل طار، أم تدفأ، أم جُن الدم فيك؟

أواهمة أنتِ يا تيماء؟!

أما يكفيك توهج عمركِ لدقائق مع كلماته؟!

مهما كنتِ واهمة، هذا وحده يكفي.

اعترفي: أنتِ معجبة به.

السؤال الكبير الآن: معجبة فقط يا تيماء؟

الساعة السابعة مساء

كانت أمل ما تزال تحدّق في وجه حنان حين أغلقتِ الدفتر. سألتها
باستغراب:

- هل كتبتِ هذا؟

- هذا دفتر مذكرات وجدته على جسر الأردن في طريقي إلى هنا.

- أتظنين أن هذا الشعور بداية شيء خاص؟

- إنه الحب، ألا تشعرين بالدفع في كلماتها؟!

- لماذا تركتِ سميح وهو دفؤك إذن؟

-١٠-

أخذتِ هاتف أمل، وضغطتِ على أرقام كثيرة. ستخرج الصوت من سباته.

- أسامة.. اشتقت لك.

- الشوق واضح مثل الشمس. ما الذي تفعلينه هنا دون هاتف ولا إنترنت ولا تواصل؟! قلقت عليك، سألت عنك الجيران لكنهم أخبروني أنك غادرت! ما الذي يحدث معك؟ ألسنت أخاك؟

- حسنًا.. ربما لا تفهمني، لكنني لم أستطع التواصل مع أحد، كنت أشعر برغبة في البقاء وحدي لفترة ما.

- يا سلام! ابقِ وحدك كما تريد. لكن قل لي قبلها شيئًا، أي شيء.

- لم أرد أن ألهيك بهمومي عن الدكتوراه، وظننت أن أخباري ستزعجك.

- هاتي الأخبار مهما أزعجتني، ألسنت مسؤولاً عنك أيضًا؟

- تطلعت يا أسامة.

- ...

- أسامة؟ ألو، ألو.

لَقَّ الصمت قلبه بغطاء داكن ولم تسمع إلا أنفاسه، ثم لا شيء.

لم ترغب في تحميله ثقلًا؛ هو الذي يحتاج التخفيف من كل شيء كي يفرغ لدراسته.

هكذا أخذت تلوم نفسها: «أترأك أخطأت يا حنان؟»

أخطأت لأنك أخبرته أم لأن الوقت مر دون كلمة منك؟»

الهاتف ما زال في يدها، أطل منه وجه أسامة الذي غاب عنها كثيرًا، لا تذكره
إلا شابًا صغيرًا تدهشه الأشياء البسيطة، فكيف له أن يصبح مسؤولاً عنها
بطرفة عين؟ لم تتوقع اليوم صمته ذاك.

أكان عليها أن تشعر بالفخر لأنه تَفَلَّت منها رجالاً؟

فَلِمَ إذن تتحسس حلقها وتشعر بالجفاف والاختناق؟!

النافذة.. تفتحها، تتنفس الهواء لكن حلقها يجف أكثر.

ربتت أمل على كتفها، وجاءتها بكوب ماء، فشربت.

لم تعلم كم من الوقت مرّ على وقوفها عند النافذة، لكن الليل حلّ على نحو
مفرط، في القلب.

كانت أمل تحاول أن تقول شيئًا لكنها تعثرت، فسكت.

في جوف حنان بقيت تهدر بالأسئلة العجاف: هل تصرخ في وجه العالم
وتسأله لِمَ يجافيها؟

أي ذنب ذاك؟!

أي خلل حدث في الكون إن هي لم تستطع؟

وأسامة؟

أتراه قلق، أم حزين، أم...؟

بعد حين انسحبت أمل من الغرفة التي بدت معتمة فوق ما تطيقين.

طَرِق الباب، كان خالها قد أثار الغرفة، وجلس قريبا عند السرير، اطمأن عليها، ثم مسح على رأسها، وحدثها عن مكانتها عنده، كانت تلك محض مقدمة، يقول بعدها:

- طلب يدك أبو محمد، أنتِ تعرفينه، ذاك الرجل الخمسيني، عنده دكان على رأس الطلعة، رآك وأعجبته.. ليس خطأ أن تكوني زوجة ثانية، أن تنجبي طفلاً أو اثنين نعمة، كوني عاقلة ووافقي مبدئياً، ثم أحكي لأخيك وعمك، ويتم الأمر على خير.. أكره أن تبقي مطلقة عرضة للقليل والقال.

- أصمّ أذني عن القيل والقال، لا حاجة لي بأبو محمد وغيره، ثم إني وقعت عقداً للعمل في نابلس وسأغادر غداً صباحاً. سلم لي عليه.

نظر إليها بحدة، وقبل أن ينطق قالت:

- اترك حبل الود بيننا، ودعنا من كلام الناس، لن يرضوا ولو أضاءت وجوهنا درباً مظلماً، ثم ألسن من يكرر «أهل بلدك بحبلوا بنت البيت»؟.

وغادر دون كلام.

مدت جسدها فوق السرير. فهطل الدمع ومسحته. تمننت فقط لو أن النوم يأتي.

فهل يمكن للدفترا الأسود أن يُنسيها أو يجلب لها النوم؟

تمسح الدمع، وتقرأ:

الأربعاء: ٢٩ / ديسمبر / ٢٠٠٥

نابلس لا تبدو هي، ملامحها تتغير مع صوت الرصاص، وجنون القصف الليلي والحواجز التي تمدّ يدها لتنوء بجيوب البسطاء، وكرامتهم أحياناً كثيرة. حواجز تاكل أراضي بين المدينة وهذه القرية أو تلك البلدة، فما الذي تمتلكه مدينة كنابلس على صغر رقعتها وهي تتناثر بين شخصية شاب يريد أن يثبت ذاته، وطفل يختبئ خلف أمّ أضعافها.

لا أدري؟

لأول مرة أرى السماء حمراء بهذا الشكل، الأحمر الذي لا يعرف أكثر من الانغماس بالحزن الممكن بعد انتهائه، كم من الأمهات الآن تضع يدها على قلبها وتدعو. تبتهل لله بحفظ ابنها الغائب. أمهات كثر أيضاً يتحسرن على أبناء في سجون تزداد. هناك كثيرون موعودون بألم الأمل النائم على أكفان الفرح.

الأمهات هن من يحزنن في النهاية، هن من يفقدن الجزء بعد الجزء.. فلم نسبغ الحب لوناً أحمر بمظاهره المباهية: صخب ودفء وجنون؟

الدم هنا أحمر بصخب.

الدم دافئ.

الدم مجنون أيضاً.

الحب ينغمس بملامح أخرى.. ليست كتلك التي تصبغ لأجلها بأحمر الجوري
وخجل الخدود.

فهل نحن شعب الأحمر/ الدم بجدارة؟

مستشفى رفيديا احتفل بالحب الليلة، بالأحمر القاني المصطبغ ببقع تتوسع
على القمصان الشتوية. معه كنت أنتظر شيئًا مغايرًا، كابوسًا أقل احمرارًا. لكن
هذا لم يحدث. أخذوا شابًا شاهدته من نافذة السكن الجامعي، مجروحًا جراء
رصاص طائش ربما، أظنه كان طائشًا جدًا كي يعودوا ليأخذوه من المستشفى
المقصوف بنيرانهم، طائشًا لتلك الدرجة التي تجعل رائحة الموت تتعمق فينا
أكثر.

لكن هل الرائحة أو اللون مهمان الآن؟

وهل عليّ أن أبدو فاقدةً لحواسي كلّها حين يحدث ما يحدث؟!
أخذوه إذن.

في الصباح لم أسأل ما اسمه، فأنا أعلم أن الأسماء لن تهم رجل مثله.
كنت أتساءل وأنا أرى ملامحه معلقة على جدران الجامعة معلنة غيابه
الأبدي، إن كانت أحلامه الآن تضيق أو العكس؟
استشهد عُمر.

ربما وليد/ محمد/ ياسين/ يحيى/ رامز/ سعد/ صلاح...

فهل ستكفي مساحة زنزانة، قصاصات الوهم والحقيقة؟

أم أنه سيحتفل بأحمره هناك بصخب أكبر؟

...

...

أسئلة..

أسئلة..

أسئلة..

إني مشتتة.

الساعة العاشرة مساء

أمنيات

-١-

كانت السماء رمادية يوم خرجت من مكتبي، أو هكذا شعرت. ما زلت أذكر اللحظات القليلة التي أطلت بوجهها وقد اكتسى لونه باحمرار مرتبك ومربك. ابتسمت بحياء، فابتسمت ببلاهة، وحين رفعت رأسي إلى عينيها غمرني اطمئنان أقلقني.

فهل كنت يا قصي عثمان الجمل غير آمن قبل حضورها؟

تمتمت في المقهى مواسيًا لها في والدها، قلت جملاً غبية. ثم كررت غباءك في المكتب مرة أخرى.

كان يمكن أن تعطيها الوصية دون أن أنبش فيها الحزن، فلماذا فعلت ما فعلت وأنت مبسوط بعينيها المرتبكتين؟

هل كانت حنان مرتبكة حقًا يا قصي، أم أنك واهم؟

أف، ألن تنام يا أنا؟

أخ! النوم لا يأتي.. ليته يفعل.. أتعرف يا رجل؟ على الرغم من أنني لم أرها قبل الآن عن قرب مطلقًا لكنها تغيرت. ربما كانت نحيلة جدًا ومبتهجة،

ومرحة أغلب الوقت، وهي اليوم على حزنها وإرهاقها الواضح أكثر جمالاً،
بدت ممثلة ذاك الامتلاء الشَّ...

مالك يا قصي؟ لم أرك هكذا قبلاً! أتراك...؟

أتريد الصراحة؟

حين دخلتُ جلبت معها أيام صباي، كدت أنسى لهنّيهات عمراً مضى أغلبه في
البحث عن حقوق أستطيع فيها استنهاض الحلم من أرضه، تساءلت أين
ذهب تعب السنين بين آخر مرة رأيته فيها واليوم؟

اليوم هي غير.

هي امرأة حقيقية، وليست طفلة متأرجحة قرب النضوج.

أتذكر؟

أذكر أنني لم أكن أشعر أيام مراهقتي بحضورها لكن غيابها.

فهل كنتُ أحبها حقاً يا قصي؟

كنتُ أنتظرها مع أخيها عند باب بيتنا. بيتنا قريب، عند محلّ جاسر ابن
الإمام، أول لفة بعد المدرسة مباشرة، كان أسامة يشرب الماء البارد من الزير
الفخاري المجاور للباب، أمي تقول له تفضل وهو يذكر اسم حنان ويذهب،
فأبقى معه حتى تبزغ من بعيد، وأعود إلى البيت.. كانت جديلتها تتراقصان
على صدرها الطفل. قدماها تخطوان خطوات سريعة نحونا، فأهرب.

لِمَ كُنْتُ تَهْرَبُ؟

هَلْ كُنْتُ يَا قِصِي تَخَافُهَا؟

لَمْ تَكُنْ تَجْرُؤُ عَلَى اللَّعِبِ مَعَهَا حِينَ بَدَأْتَ تَدْخُلُ الْإِعْدَادِيَّةَ، كَانَتْ رَائِحَتُهَا
تَنْفُذُ إِلَى إِحْسَاسِكَ، رَائِحَةُ بَكْرٍ مَدْوُوحَةٍ. لَمْ تَكُنْ تَجْرُؤُ عَلَى الْحَدِيثِ الْبَسِيطِ أَوْ
السُّؤَالِ عَنِ الْحَالِ عَلَى الْأَقْل. وَلَمَّا أَصْبَحْتَ عَلَى أَعْتَابِ الْجَامِعَةِ لَمْ تَجْرُؤُ
عَلَى النَّظَرِ؟

حِينَ سَمِعْتَ أُمَّكَ تَحْكِي لِلجَّارَةِ عَنْهَا غَبْتَ عَنْ كِتَابِكَ، حَمَلْتَهُ وَأَعَدَّتِ السُّطْرَ
عَشْرَ مَرَّاتٍ دُونَ أَنْ تَفْهَمَهُ.

قَالَتْ: «حَنَانُ مُحْكِي فِيهَا مِنْ زَمَانٍ لَابَنَ عَمِّهَا سَمِيحٍ، بِحَكْوَا إِنْوِ رِجَالٍ عَ قَدِ
حَالِهِ، دَكْتُورُ شَبِيبٍ بِشْتَغَلُ فِي جَامِعَةِ الْأُرْدُنِ، شَوْ بَدَهَا أَحْسَنُ مِنْ هَيْكَ؟!».

هَلْ سَقَطَ السُّطْرُ يَوْمَهَا مِنَ الْكِتَابِ يَا قِصِي، وَلَمْ تَفْهَمْهُ بَعْدَهَا أَبَدًا؟

وَالْيَوْمَ يَا رَجُلَ؟

لِمَ نَظَرْتَ فِي أَصَابِعِ يَدِهَا الْيَمْنَى الَّتِي مُدَّتْ عَلَى مَكْتَبِكَ الْخَشْبِيِّ الْيَوْمَ؟

أَتَرَاكَ تَذَكَّرْتَ يَوْمَ كَانَتْ تَمُدُّ لِأَسَامَةِ صَيْنِيَّةِ الشَّايِ مِنْ خَلْفِ الْبَابِ، فَلَا تَرَى
مِنْهَا إِلَّا أَصَابِعَهَا، ثُمَّ تَكْرُمُ عَلَيْكَ بِإِطْلَالَةٍ لَا تَنْسَاهَا؟

أَكَانَتْ تَحْبُكَ يَا وَلَدَ؟

علّمتني نتالي كيف تكون الأصابع لغة. كيف تفعل فعل الأعين والشفاه ويزيد،
نتالي علّمتني وأنجبت لي بنتًا كالقمر وماتت.

فهل يمكن أن تقول لها الآن شكرًا بينما تنسى أنك خبأت صورتها صباح اليوم
خشية أن تراها حنان؟ وماذا لو رأتها؟ أليست متزوجة أيضا من رجل قالت
عنه أملك «ع قد حاله»؟!

دعك من هذا يا رجل، دعك ونم.

ها أنت تغطي وجهك وتغمض عينيك على آخرهما، نويت النوم وانتهى. لكن
مسحة الحزن التي بدت على ملامحها تنفذ إليك وتجعلك حزينًا من جديد،
تمامًا كما كنت وكانت في المكتب. ثم وحين بدأت عيناها تجاور ذاك الحدّ
الدقيق من الدمع، شعرت بالاختناق؛ وددت لو لم تنطق، لو لم تكن من أحزنها.
ولما خرجت هالني ما يعصف بي، تمنيت أن ألحقها وأطلب الصفح.

عن أي شيء تريدها أن تصفح؟ إنك غبي!

أعترف يا قصيّ أني كنتُ طفلاً. طفل لم أكنه يوماً، ولما رأيتُ حقيبتها ما
زالت تعتمر الكرسي سَعدت؛ كانت هذه على الأقل فرصة من القدر لتصحيح
شيء من الندم.

ناديت عليها.

كنتُ أركض خلفها دون خجل مني / منك أنت، أو من الناس حولي أو منها
حتى. وكانت وهي تمشي مبتعدة، صماء كقصب السكر.

لا أدري يا قصي ما الذي حدث! لا أدري كيف كنت أنطق باسمها حتى ناظرني
كل من في الطريق!

حنان، حنان، يا حنان...

وكان المطر.

رأيت نساء كثر أحلى من ملامح وجهها، فما الذي جذبك؟

ما الذي تركك أمامها كطفل أحمق؟!

أخ يا قصي! عندما التفتت نحوي شعرتُ بالسما من فوق تمطر، وبدموعها
حارة وملتاعة. تمنيتُ لو أني أخوها أسامة فأضَمَّها وأمسح دمعها وأخبرها
أنني لن أسمح لها بالبكاء بعد الآن.

قلْتُ أشياء كي أستبقِها وكي أعاود رؤيتها، لكنها أخذت حقيبتها بكلمات
قليلة والتفت كأنها لا تراني. وبقيت واقفاً تحت المطر منتظراً شيئاً لا يأتي.
الآن أتمنى لو أني ضممتها...

وبعدين معك يا قصي؟

قل لي يا أنا: أنت رأيت عينيها بالدموع، ألم تكن جميلة جداً؟

صوتها على اختناقه يعاودني مراراً، وهزة رأسها يمنة ويسرة دون كلام
تقذفني إلى مساحات من الغرق الدفين.

فهل يحزنك يا قصي أنها ثابتة في الذاكرة دون أن تطمح بأكثر من ذلك؟
نعم، يحزنني.

يحزنني أني لن أرها طويلاً.

يحزنني أنها لآخر، ولا مكان لي في قلبها.

من قال لك؟ ربما...

ياه! أصابعها على المكتب تحضرني، نتالي علّمتني كيف أشعلها واحداً واحداً،
ثم...

اختصر الطريق عليك يا رجل، سيشعل أصابعها آخر.

كُف عني يا أنا، ابق في داخلي دون أن تخرج بهذي الوحشية، سيقتلني ما
تقول.. معك حق، هي متزوجة. ما لي وما لها؟

لم يقتلك الآن ولم يقتلك سابقاً حين علمت أنها تزوجت؟!

هاه؟

أما كنت تستطيع أن ترفع سماعة الهاتف وتخبر أخاها: أريد حنان؟

«لا يخطب امرؤ على خطبة أخيه». حديث شريف حفظته.

أكنت تعرف أنك تحبها بينما شغلتك نتالي عن النساء جميعاً؟

كانت نتالي ذكية وفاتنة وقوية ومعدبة.

أنت تحبها لأنها عذبتك كي تصل إليها.

بل قل: كنت تحب الوصول الأصعب، ولم تكن تحبها.

نتالي التي استعصى عليك رؤية عينيها المنكبتين على القراءة، في كل مكان، وأيًا تكن الظروف. على مقعد خشبي كانت، فقررت أن ترى عينيها، استأذنتها في الجلوس على طرف الكرسي، فقالت: الكرسي ليس لي وحدي، ولم ترفع رأسها عن الكتاب ولا لمحتك، وغادرت من فورك. شعرت أنها أهانتك. بقيت تنظر إليها من بعيد وهي تقرأ. لقد غيّرت نظرتك في المرأة، لم تكن هذه جاهزة كأغلب نساء قريتك للحبل والعناية بالبيت والأولاد، ولا كأجنبية تفتح لك بيتها وصدرها دون مقابل.. أصبحت هذه المرأة بالذات هي التي لها تصبو: امرأة تصنع، تغير، ترقى، تسمو.

ثم، في الفصل الذي يليه، تفاجأت بأنها ستعلمك مساقًا كاملاً، ستري فيه عينيها على مهل، إلا أنهما كانتا هائمتين في شيء لا تدركه، تشعر في زرقته بحر هائج، لا قرار له.. اقتربت منها، تقرير سهرت عليه أسبوعًا بحاله، وأنت تعدل وتحذف وتضيف، تقرير لا يتجاوز الصفحات الخمس. أردته مبهرًا كي تنظر في وجهك أخيرًا وتربت على كتفك كطفل حصل على علامة فوق توقع أمه، أردت أن تعجبها، وحصلت على ما أردت.

ثم أكلت الكتب، أخذت تتحجج بـ: هذا الكتاب لم أجده، أيمكنني استعارته؟ ذاك سعره غالٍ، و... و... وسلسلة من المبررات، تقرأ، ثم تجلسان، وتناقشان طويلاً، بعد مدة، دعوتها على عشاء فاخر، ووافقت.

تزوجتها، حفل بسيط للغاية، وأصبحت لك.

وضحكت في جوفك، قهقهت فرحًا، أخذت تتمتم: لو في بلدك، لبقيت سنوات
وسنوات تجمع المهر، وسعر البيت، وأثاثه، وجهازها، و... و... وربما تملّ
من الانتظار وتقرر الفكاك.

أنتم يا قصي معقدون جدًّا، لو أنهم يكتفون بمهر.

يكفي هنا خاتم.

وتعلّمت.

وحنان؟

أحببتها اليوم فقط، وتريد للماضي أن يتحول إلى قصة حب مستحيلة!

اعترف بهذا.

خائن هو هذا القلب الذي جعلك محتاجًا لامرأة غريبة.

غلط، غلط.

أحببت عقل نتالي، أحببت وصولها، تحدد هدفًا، وسريعًا تصله، ثم تنتقل
لهدف أكبر، وتكبر، تكبر بسرعة تفوق قدرتك على اللحاق بها.

لا تنكر أنك تحب الشرقيات أكثر، أعينهن الواسعة تجعلك تسبح في الكلام.
نتالي كانت مستعجلة في كل شيء: الكلام والجسد والطعام والحب..

مستعجلة كي لا يفوتها سطر من كتاب، تقول لك: عمري ما أقرأه، وأريد
لعمري أن يكون طويلاً، طويلاً.

«اللَّهُ يَطْوِلْ عمرك».

لكنه كان قصيراً في عداد الزمن، سيارة هرستها، ولم يعرف أحد من الجاني،
حدث هذا بعدما نشرت مقالاً أحدث ضجة: «الصهيونية، باب جهنم المفتوح».

كنت تُفتن بها إن تكلمت، تسمع وتنسى روحك، تنسى أنك كنت تستدرجها
لإشعال الأصابع، وتبقى كذلك حتى الصباح. تسحبها تحت الماء، وتشعل
النار.. تضحك: الماء تطفئ النار.

هيا يا قصي.. اعترف، ألم تكن سعيداً مع نتالي؟

كنتُ هادئاً، مستقراً، منقوعاً بالحب المعجون بالعلم والكتب والحقيقة، كانت
رائعة، لكنها لم تكن لتقول لك أحبك إلا في الفراش، وأنت عاطفي، عاطفي
تريد البوح.

طيب، طيب.

كنتُ سعيداً، لم تحوّر الماضي؟ لا يجوز، عيب عليك.

لم تكن نتالي ضعيفة كما حنان. امرأتك -رحمها الله- لم تعرف الضعف، كانت
دوماً قوية وبادئة في كل شيء. وأنت كنت الضعيف أبداً. أما كنت تتمنى
غالباً لو أنها منحتك تلك الفرصة في ضمّها لمجرد حاجتها لك. هي لم

تحتجك. هل تذكر أنها بكث أمامك يومًا، أو أن نكسارًا ما في عينيها شجعك
على أن تربت على كتفها؟

أنت أناني يا قصي.

ألا يكفي أنها ضحت بعمرها لأجلك / لأجلكم يا أبله؟ وأي دليل أكبر من ذلك
على حبها؟

ضحت لأجل قناعتها بالحق، والانتصار له.

أوووه! أكرر: أنت أناني.

نتالي ماتت وصورتها تحتل عرض الحائط، في أغلب الغرف. أبقيت صورها
بعد وفاتها طويلًا، فكيف لأجل حنان خبأتها في درج مكتبك؟

خائن أنت يا قصي.

هل عُدتَ إلى فلسطين لأجل صبا فقط؟ ألم يكن كل شيء في ألمانيا رائعًا،
لولا أنك لم تدرك كيف تدبر أمرك بابنتك؟

كُف عن الضحك عليّ.

أنا أنت يا هذا وأحفظك عن ظهر قلب.

أردت أن تتزوج. صبرت كثيرًا على سنيك دون امرأة وفرطت معك في
النهاية، حاجتك للمرأة أكلتك، فرجعت.

أمك حدثتك عن الزواج، وأنت أردت أن تفعل.

تريد امرأة ضعيفة وقوية معًا، قوية أمام الدنيا وضعيفة أمامك. أوليس الحب ضعفًا؟

وأين تجد هذه المرأة وهذا الحب؟!

أما رأيت هذا في حنان؟

وما يدريك أنت؟!

النساء اللاتي قابلتهنّ قبل حنان كنّ ضعيفات أكثر.

بل قل كنّ منكسرات أكثر. حنان كانت قوية رغم دموعها.

كيف عرفت يا جاهل؟

أيّا يكن ما حضرت من أجله هنا، فقد حضرت.

حنان متزوجة، فأفق من حلمك.

ستبقى تبحث عن امرأة تشبه تلك التي تستحضرها كلما غرقت بالماء. حين تمسح عن جبهتك العرق، وتقبلك بين عينيك، وتعدك بثمار كاللؤلؤ.

ابنتك لؤلؤة، هي تكفي.

النساء سواسية، وأنت مرهق بالذكرى لا أكثر.

مرهق أنت.

-٢-

الأحد: ١/ يناير/ ٢٠٠٦

ها قد بدأت السنة الجديدة إذن.

قبل قليل شاهدتُ الألعاب النارية تفرقع على شاشات التلفاز في مختلف البلدان احتفالاً، أولها عمّان التي أزورها لقضاء عطلة منتصف العام الدراسي، كانت سماؤها تبرق بالألوان.

قبل قليل فقط، قلبت شوارع عمان مع أخي ولحست البوطة -رغم البرد الشديد- كالأطفال.

قبل قليل أيضاً ضحكت على خيوط البوطة الساحلة على ملابسي لفرط ما لعقتها.

وقبل قليل شاهدت أجزاء فيلم مفعم بالملل مع أختي واستمتعت بتفاصيله الراكدة.

كل شيء بدا ممتعاً.

غير بريدي الإلكتروني، فقد منحني شعوراً مبهماً سيطر عليّ فجأة.

كانت رسالة لؤي من بين الرسائل الفائتة منذ خمسة أيام، قال فيها:

To: Tayma@hotmail.com

From: loay_writer@yahoo.com

Date: 25/ Dec

: subject

صباح يليق بك..

أكتب على أمل، وافترض أن غيابك عن الماسنجر اليومين الماضيين انشغال فقط، فكرت بهذا كي لا أشعر بنقيضه.

ثم إن رقمك ليس لديّ كي أطمئن عليك، والشيطان شاطر.

أنتظر وعدك بنصّ.. أريده نصّا جديدًا، لن تقولي لا وقت لديّ.

وها أنا أبعث بدوري نصي «شقائق النعمان». اقرئيّه جيدًا وأريد نقدك، مؤمن أنك تعرفين الكثير.

أنتظر أنا يا تيماء

لؤي

السابعة صباحًا ☐

أعترف أنني شعرتُ بنشوة ما. فهو ينتظر إذن.

هو على أمل.

هو قلق عليّ.

هو يسألني جديدًا أكتبه.

لكني سرعان ما شعرتُ باختناق بعد قراءة نصه، أتراني أشعر بالغيرة من تلك المرأة التي كتبها وسماها شقائق النعمان؟

ألتك الدرجة هي رقيقة ورائعة؟

هل قال ما قاله لأنه عايشها أم لأنها خيال محض؟

«على مقربة من نظرك تقف، بذات البهاء اليومي، شعرها المنثور كخرافة حول وجه القمر، وعيناها المحلقتان كنسر، والعنب الذي تخيلت أنك تذوقه في حلمك الليلة الماضية -أنت لن تنسى شفاهها التي تحركت بابتسامة أمس بينما تركبان المترو معًا- كل ذلك يدفعك لأن تتحدث معها اليوم.

قلت: مرحبا، وانتظرتُ».

لم تكون مثل هذه الكلمات خيالاً مثلاً؟

ألا أبحث في واقعي عن لحظات تجود بها الحياة لأكتب عنها؟

ثم؟

ماذا يعني إن كانت واقعة أو خيالاً؟ ما أنا إلا محض قارئة ترغب في تطوير ذاتها كتابياً؟

أتكون تلك هي رولا؟!

فجأة شعرتُ بأشياء لم تكن بالحسبان، أو أنني لم أكن لأعترف بوجودها مطلقًا.

حاولت النوم، لكنني يئست فقممت.

بدلت بين محطات التلفاز، ولم أجد شيئًا يستحق. شربت الشاي، ثم القهوة.

أفكار كثيرة سيطرت عليّ.

لِمَ أبدو قلقه هكذا؟ ولم كل هذا الأرق؟

هو يتعامل معي بمنتهى النبل كأستاذ، فهل كنتُ أرغب بأكثر من ذلك؟

أتراني بدأت أشعر بشيء تجاهه؟

ألا يؤكد هذا أنني ما فتئت أحدث أمني عنه، وحين سألتني عن تفاصيله بدأت أحكي بإسهاب؟ ألم يدعها هذا تتمتم في أذني تمامًا: «احذري؛ أنتِ تفخرين به، وهذا يعني الكثير»؟!

سأنسى هذه السلبية التي تحركني الآن، وسأفكر بما يجب حقًا: هذه هي الساعات الأولى من العام. تُرى أي شيء ينتظرني في صفحات الغيب؟

أغمضت عيني وتدفأت بغطاء سميك، وقررت النوم. لكن أغلب الأشياء التي نريدها بقوة لا يمكن لنا فيها أن نقرر.

وجدتني بعد حين أفتح حاسوبي وأرسل له ردًا:

To: loay_writer@yahoo.com

From: Tayma@hotmail.com

Date: 1\ Jan

subject: كل عام وأنت بخير

صباحك كما تحب.

فبالطبع هناك أحلام نخبئها عن الآخرين لفرط ما نتمناها ونحبها.

بالنسبة لي، أنا بخير. شُغلت فقط بالسفر من الضفة للأردن في زيارة لأهلي.
الأردن جميلة.

ورغم أنها مفتوحة على بعضها، ومبتهجة اليوم، لكنني عدت إلى الشوق للبلاد.
هناك شيء يجذبنا لتربتها بشكل مفرط وغير معلن.

لعلك مجرب، فالأردن ومصر وسوريا ولبنان، وغيرها لا تفرق بالنسبة لغريب
فلسطيني ما دام البعد واحدًا.

لعلي لم أبارك لك العام الجديد بعد، كل سنة وأنت إنسان. فبقاء إنسانيتنا
يعني أننا أكثر من «الخير» الذي يردده الكثيرون، ولا نعرف أين مكانه عند كل
منا.

لديّ أمانٍ كثيرة هذا العام، كثيرة وبسيطة مثلي تمامًا، ولا بد أن يكون هناك
أمنية أو اثنتين سرًّا لجعل الحياة أكثر تقبلًا، ومتعة ربما.

ع فكرة: ها قد بدأت أكتب النص، وعذرًا لتأخري، اليوم فقط رأيت رسالتك.

أسعدني سؤالك عني.

فشكرًا.

تيماء

أشعر الآن براحة ما، بتحرر من شيء كنت قد كتبتة بين السطور، وفرغ مني.

لحظة..

هل حقًا فرغ؟!

الثانية فجرًا

-٣-

تمر الساعات طويلة ما يلبث الشعور بالانطفاء أن يتسرب ويبت في عمقي
تضاربًا، أركن إليه في النهاية، ولا أحاول فهمه. تخيلتُ أن رؤية حنان وحدها
ستجعل أيامي تمرّ بشيء مغاير، إذ شعرتُ أخيرًا بحركة في القلب والجسد،
لكن كل شيء يعود للخواء، فلا بدّ لي في النهاية أن استسلمت لواقع زواجها،

وأنها محض صدفة تلك التي جعلتني أزور والدها قبل وفاته بشهر ونيف،
ليفضي إلى تواصل امتد حتى وفاته.

سؤال واحد يا قصي، واحد فقط: لماذا يبدو الحاضر خالٍ إلى هذا الحد؟

أي شيء حدث فجعله ساكنًا ومملاً وصامتًا؟

لم تكن هكذا.

أتدري؟ لو أن بإمكانني سماع صوتها، هذه الرغبة ما تفتأ تنفتح عليّ كذراعين،
وتضغط على ضلوعي، رغبة تزيد من لذتها وإلحاحها.

فكيف يمكن أن تخرج من دائرة بهذا الإحكام؟

اتصل بها، الكبت سيضخم رغبتك. قل لها: أحبيت الاطمئنان عليك فقط.

أيكفي يا ترى؟

طيب، لو.. لو زرتها. سأقف عند باب بيتها، أدقه وأقول إنني كنت مارقًا فخطر
لي أن أختًا هنا قد تحتاجني في شيء.

أخت يا قصي؟

أخت؟!

شيطانك مبدع!

منذ رأيته وأنت تتخيل أنك تمسح دمعها بأصابعك، ثم تمص إصبعك بدمعها!
منذ رأيته وأنت تتخيل أنك تربت على كتفها، وتحنى رأسها على كتفك، ثم
تحضر الحكايات، فتخبرها عن ابنتك صبا، وعن ألمانيا وأيام دراستك، عن
أسامة وأبيها، عن أمك والملح الذي ترشه عليك وهي تقرأ سورة الإخلاص
والفلق والناس مخافة الحسد والعين، ستجمع لأجلها كل ما يمكن أن يُقال.
ستنزف حكايا.

هل ستحكي عن أحلامك فيها؟

ألم تقف أمام المرأة مرات كثيرة كلما فطنت لقصة وتسرد تفاصيلها لمرآتك
كأنها هي، حنان؟!

ثم تقول أختًا!

أما تجاوزت ذلك حين حضنت الوسادة، فأخذك الجنوح. وبكيت آخر الليل
لأنك...

ثم تقول أختًا!

اعقل يا قصي. اعقل!

ثم أين أنت من المحاضرات التي عقدتها عن حقوق الفلسطينيين في الملتقى
الشبابي الثقافي؟

أتراك ستترك التفكير في طرق مختلفة الطرح لأجل امرأة لا تعلم سببًا
لتفكيرك بها، امرأة متزوجة أيضًا؟

أي جنون هذا يا رجل؟!

هل ستركن كل ما أخافك قبلها؟

المرة الماضية، نشب شجار حول حقوق الفلسطينيين بين المكتوب والواقع.

كنت قد سألت الموجودين أمامك عن جدوى معرفة الحقوق رغم عدم السعي إلى تطبيقها، حتى في العلاقة بين فلسطيني وآخر، فثارت ثائرتهم.

أحدهم قال: «إن الحوار الفلسطيني الفلسطيني لم يعد مجدياً، فالكل متمسك بمكانه دون حراك، ثم أننا مش مقصرين بالمرة، فأيننا لم ينعت الآخر بما هب من الصفات؟ بل ونسفك الدم، ونجيز ما لم يجزه الله للحيوان، وحين يأتي الكلام عن إسرائيل نشجب، ونستنكر عملية هنا أو هناك، وننسى أنه دفاعنا الطبيعي عن حقوقنا».

فبدأ فلسطيني آخر يحكي: «إن تلك العمليات التي تحكي عنها تقتلنا بصورة أو أخرى، ألا ترى أي تشديد يُعلن ساعتها؟ المُدن والقرى والبلدات تُغلق، الدنيا تُغلق في وجهنا دفعة واحدة، الانتظار على الحواجز يصبح لساعات، وحواجز طيّارة تنتقل هنا وهناك، يصبح الوصول لمدينة ك نابلس أشبه بمعجزة، ألا تنكر أنك تصل إلى عملك وقد أوشك على الانتهاء كلما حدثت عملية؟ علينا أن نشعر بأنفسنا على الأقل.. ماذا جابت لنا العمليات تلك غير الاختناق، وازدياد بناء المستوطنات، والتحجج بأن الفلسطينيين يقتلون الأطفال والنساء؟ كّف عن الحديث عن تلك العمليات، يكفيننا اختناقاً».

قالت امرأة صارخة: «لكنها تفعل شيئًا، تخيفهم، تدميهم فيتخبطون، كل ما يفعلونه تخبط لا أكثر.. الحق لا يؤخذ إلا بالقوة، بالقوة».

قال آخر: «هذا ما يريدونه، أن نشعر بقلّة جدوى دفاعنا، بأننا نُقتل مخنوقين بالحصار، يوهموننا أننا الضحايا، هذا ما يريدونه».

وبدأت الأصوات تحتدّ، لكن سؤالاً واحداً بث ضجيجاً غير معقول: «لو قلت عن رجل يفجر نفسه استشهادياً، أو قلت انتحارياً...».

وعلت معمعة الأصوات قبل أن يكمل الشاب كلامه، تقاذفوا السباب والاتهامات، وفقدت السيطرة عليهم يا قضي.

فقدتها حتى أصاب قلبك كثير من حزن.

طلبت من الجميع أن يجيب عن سؤال واحد تطرحه، فهدؤوا.

قلت: من منكم أيها الحاضرون المثقفون يفلح في تعريف الحوار بعد هذه الدّوشة؟

من منكم، أيها القلقون على الحواجز والإغلاقات التي تقيمها إسرائيل بعد كل عملية، من منكم أيها المصفقون المختبئون خلف الأبواب كلما سمعتم عن تفجير جديد، من منكم يستطيع أن يجيبني عن سؤالي الجوهري: أيكم لم يساهم في بناء جدار الفصل الذي نعتّه بالـ«العنصري» كلما ذكر؟ أليس هذا اختناقاً أيضاً؟!

أيكم لم يفرح لأن بابًا للرزق فُتح، فحمل الرمل والأسمت والطوب المسلح، وأنكم ذاتكم من قمتم بمسيرات شعبية ضد الجدار في كل الجامعات.

والآن يا أصدقاء هذا الملتقى الثقافي..

هل ستستطيعون أن تأتوا المرة القادمة دون أقنعتكم؟

وكانت توشك ثورة أن تقوم بعد الكلمة الأخيرة؛ كانت صفعة.

عندما انفص الجميع، قالت جيهان سكرتيرتك: ألم تخف؟ قد يؤدي بك هذا الكلام لما لا تُحمد عقباه.

وكنت لا تريد أن تفهم كلامها، إنك لم تفكر فيه حتى. شعرت أنك ستنفجر إن لم تقله، فهل ما قلته كفيلاً بإسقاط تلك الأقنعة الكثيرة؟

الحرب الشعبية اشتعلت وانتهى، في كل مجلس تدرك أنها تتزايد.

أتراهم سيأتون؟

عليك أن تقرر موضوع الاجتماع القادم، وأن تعجل في بعثه بريداً إلكترونياً لكل من في المجموعة.

«الحوار مع الغرب».

عنوان كبير، يليق باستكمال ما بدأته يا قصي.

لو أنك تسمع آراء حنان في هذا العنوان تحديداً، أتراها تشبه والدها؟

الإثنين: ١٦ / يناير / ٢٠٠٦

يوم قرأتُ نصه اشتعل في صدري شيء ما.

فكيف وأنا أغوص في ماء لُجي، لا تنطفئ النار؟

كيف تبدو «شقائق النعمان» تلك يا ترى؟

منذ ذلك اليوم وأنا أخافه، أقصد أنني أخاف التعلق بالكلمات، خوف وشوق غريبان، لم أعد أفهم نفسي.. تناقضات، تناقضات.

إحساس غامق يصرخ فيّ: تيماء، افتحي بريدك فقط، لِمَ الهروب؟ قد يكون بعث شيئاً يُسكت. ولا أدري ما الذي سيُسكته تحديداً! لكنني أمشي، فأتناسى.

ما الذي يحصل فيّ؟

لِمَ أشعر بالوحدة قوية وصاخبة إلى هذا الحد، وأتوهم أن بريداً يمكن أن يكون بَعَثَهُ قد يبدد الوحدة، ويجعلها بلا معنى.. ولعله أيضاً قادر على ملء الحياة صخباً؟

حين تنفّختُ بهذا الهاجس، قررت أن أمشي.

مشيت طويلاً تحت المطر وحيدة، ولم يحدث أن تغير ما في جوفي كالعادة.

المشي كان يفتح صدري على الألوان، والوجوه، والحركات.. أنظر في المارة،
وأرسم حكايات لكل واحد، وأضحك لشطح الأفكار بعيدًا.

لكني اليوم أعود، برغبة أشد، ووحدة أكبر، لقد رأيتُ الوجوه صماء؛ تعابيرها
هربت.

استسلمتُ طبعًا، وبكل فخر.. وفتحت بريدي الإلكتروني، وعندما رأيت رسالة
باسمه بدأ الاضطراب يزداد:

To: tayma@hotmail.com

From: loay_writer@hotmail.com

Date: 16\ Jan

subject: كل عام وأنت الخير كله

عزيزتي تيماء:

مساؤك كفرحتي برسالتك، وكراحة بالي التي سكبتها كونك بخير. إذن أنتِ
مبسوطة في الأردن وأنا هنا في مصر أتقلّى عليكِ وأضرب أخماسًا في
أسداس. سامحكِ الله.

سأعتبرها خيانة كبيرة.

هاه! ما رأيك؟

لا جديد لديّ تمامًا أخبرك به، غير أنني قرأت نصك «شرفة في القلب»، ستنافسينني في الكتابة، فلديك نفس جميل جدًا، ربما يكون موضوع الوطن، والتنقل خلاله والسفر خارجه عاديًا ومتداولًا، لكن المختلف في حالتك هو طرح هذه الفكرة، وأسلوب عرضها. سعدتُ بما قرأت.

أخالفك الرأي في شيء واحد فقط، فالسفر يا تيمما يفتح النوافذ، ويجعلنا نتنفس.. صحيح أن للأمر علاقة بالحنين الذي يبقى يجزنا، لو أنني أتحدث عني فحدثي ولا حرج.

لكنه يجعلنا منفتحين على ذواتنا أكثر، وأن تكتشف ذاتك هو أمر يسعى إليه الآلاف، ولا يجدونه.

وجدتُ نصًا شعريًا جميلًا جدًا عند صديق مصري، لقسطنطين كافاي، «إيثاكا»، هذا النص فاجأني وبعثرني. لا أريد إفساد المشهد، سأتركك تكتشفينه وحدك، بعثته رابطًا مع الرسالة.

أما سياسيًا، فأنا أنتظر.

الانتخابات التشريعية اقتربت، بضعة أيام فقط.

نحن الآن أمام توقعات كثيرة ومفتوحة، هذه أول انتخابات تشارك فيها معظم الفصائل الفلسطينية. إنه أشبه بعرس ديموقراطي كبير، يتحدى الاحتلال والمنطقة برمتها.

أترقب كأبي فلسطيني، وأدعو أيضًا أن تكون النتيجة أيًا كانت خيرًا.

كنتُ أتمنى لو أني أستطيع المشاركة فيها، لكن برنامج الدكتوراه والعمل المتواصل يمسكني بيدين من حديد.

تعبت.

ربما آخذ إجازة لثلاثة أيام. أود قضاءها مع الأصدقاء في أسوان. هي منطقة في صعيد مصر، تبعد عن القاهرة قرابة أربع ساعات. حيث الشجر والنيل، والمزارعين بجلابيهم البسيطة، والنساء السمراوات، ولعل النيل هناك مختلف. لم يسبق أن زرت أسوان لكن الجميع يخبرني أنني سأغيّر من رتابة الأيام، على الرغم من شعوري بأن شيئًا فيّ بدأ يتغير، ويمنحني انتعاشًا كرزاذ المطر.

لا أعرف يا تيماء..

متفائل بالسنة الجديدة. لديّ أمل في أن تكون مميزة، سأحتفظ أنا أيضًا بسر أمنية أو اثنتين، فإن أردت أن تعرفيها أخبريني بسر أمنيتك أولاً.

لا أعرف لم أخبرك بكل هذا، لكنني أسعد وأنا أرى أصابعك تضغط على الحروف فتنتج رسالة ما.

حاولي أن تجمعي كل تفاصيلك في عمّان وأخبريني بها، واحدًا واحدًا.

نسيت أن أقول لك: وأنت تكتبين نصك الجديد تذكرني هذه الأحجية: «الأدب الجيد هو الأدب الذي يخرّب، يفجّر، يدمّر».

كوني بخير دومًا.

لؤي

لا أعرف ما الذي حدث فيّ بعد هذه الرسالة. كنت سعيدة لدرجة أنني خفت، خرجت للصالة وبدأت أمشي على الكراسي والطاولات، أحدثت ضجة كبيرة في البيت.

جاء إخوتي ووالديّ فقلتُ إنها حالة جنونية لا غير، وإن بإمكانهم أن يناموا مرتاحين لأنني سأكف عن فعل ما أفعل بثوانٍ، لكننا أنا وإخوتي قلبنا الليلة نغني، صوت أخي محمد رائع وهو يقلد أحد «الحدّا» الشعبيين الذين يغنون للفرح. محمد غنى واحدة تُختتم بها حفلات الحناء، حين يمدّ العريس يده كي تُحنى:

«سَبَل عيونه ومدّ إيده يحنونه» ومدّ أخي يده.

قال لي إنه سيغني في عرس مريم هذه الأغنية تحديداً.

جاء والدي على أثر الضجة الثانية وأدخلنا إلى غرفنا وهددنا في حال سمع صوتاً بعقاب ما.

هههههه، ضحكنا سرّاً، تسللنا إلى غرف بعضنا بعض، وبدأنا نتهامس. اكتشفت أن للهمس لذة فائقة.

حين ناموا عدت لحاسوبي.

لكن والدي ظهر قائلاً: هيا إلى النوم، بسرعة.

وها أنا أكتب هذه الصفحة سريعًا، كي أدخل سريري، قبل أن تعاود كبسة
الأمّن الليلية.

الثالثة فجرا (:

الثلاثاء: ١٧ يناير- ٢٠٠٦

قرأتُ «إيثاكا» وحاولت التحليق.

إيثاكا

متى عزمت الرحيل إلى إيثاكا

صلّ أن تكون الدرب طويلة

فيها غمرة من المغامرات، غمرة من المعارف

لا تخش وحشًا أو ماردًا

لا تخش إله البحر الهادر، أو إله الزلازل

لن تصادف أيًا منهم على الدرب

ما دامت أفكارك تحلق عاليًا

والعاصفة تداعب روحك وجسدك

لن تصادف وحشًا أو ماردًا

لن تصادف إله البحر الهادر، أو إله الزلازل

ما دامت روحك تخلو منهم

وقلبك يبعدهم

صلّ أن تكون الدرب طويلة

أن تكون نهارات الصيف كثيرة

ستغمرك المتعة والفرح

متى عبرت موانئ تراها للمرة الأولى

انزل الأنواق الفينيقية

وابتغ أفخر البضائع

ابتغ أمهات اللآلئ والمرجان والأبنوس

ومن العطور أكثرها إثارة

ابتغ كل ما أعطيت من العطور المثيرة

زر ما شئت من المدن المصرية

لتستقي وتستقي العلم من مناهله

احفظ إيثاكا في ذهنك

فبلوغها الهدف

أبطئ في ترحالك

فالأجمل أن تطول الرحلة سنوات وسنوات

أن تجنح عند الجزيرة وأنت هَرم

وقد أثراك حصاد الدرب

لا تتوقع أن تغدق إيثاكا الثروات عليك

فقد وهبتك الرحلة الجميلة

لولاها لما سرت على الدرب

نفدت عطاءات إيثاكا لك

وإن وجدتها في فقر

فلا تحسب أن إيثاكا قد خيبتك

يكفيك الحكمة التي بلغت

والتجربة التي عايشت

ولا بد أنك فهمت

أهل إيثاكا

هل انتكست بعد «إيثاكا»؟

لا أعرف! ربما خِفت من رجل يسعى لرحلة تتجاوز الوصول إلى الدرب، إلى المغامرة والتجربة والحكمة.. أتراه يتوق للرحلة كي يسير على الدرب ولن يرتاح إلا كهلاً على ضفاف إيثاكا؟!

ربما أفسر «على خاطري» وليس الأمر كذلك.

ربما!

ثم، ما شأني به؟

الكلمات هي همّي، وحدها الكلمات.

وبعد؟ ما الذي ينتظر الفلسطينيين قبل وأثناء وبعد الانتخابات؟

أفكر في إجابات، وأنسى، أو أتناسى الطريق إلى «إيثاكا».

العاشرة صباحاً

-0-

دقّت جيهان باب المكتب.

بعد انتظار قليل دقته بعنف.

بدا قصي شاردًا وتائهاً. نظرات عينيه استقرتا على مزهرية الفخار، ولم تحيدا إلا بعد أن وضعتُ جيهان ورقة أمامه.

كانت إجازة الأمومة تنتظر توقيعه.

أخبرته أنها قد ترشح سكرتيرة إن لم يكن قد وُجدت أخرى تحل مكانها.

قال: لا بأس، سأتواصل معك. ووقع على الإجازة بعد أن دعا لها بالسلامة.

حين أغلقت جيهان الباب على قصي تسمرت عيناه على المزهرية من جديد، كانت محفورة بعناية فائقة، وردتان من النرجس، تبدآن من مكانين بعيدين، ثم تتعانقان. يتعانق الأخضر حتى يتشابك، وتبقى زهرتي النرجس متهدلتين على بعضهما في هدوء.

بدا غارقاً، غير أن احتكاك هاتفه في الطاولة مُصدراً صوتاً بغيضاً أفاقه، ولما سَمع صوتها خُلع قلبه، عُقد لسانه ونسي الكلمات، أراد أن يقول لجيهان الغي كل مواعيدي، اعتذري لأصحاب قضايا اليوم، أغلقي المكتب.. أي شيء، لكن لسانه عُقد.

على الهاتف قالت حنان: قصي، إنهم هنا، في البيت.. لا أعرفهم، نبشوا البيت كله، تعال.. أنا خائفة.

قالتها متعتعة، راجفة.

ركض إليها، لم ير شيئاً في الطريق، خبط سيارة أجرة بيديه حتى وقفت وطار إليها ناشف الريق.. وجدها مذهولة في حوش الدار. «ماذا حدث؟»

سألها. رفعت كتفيها وأنزلتهما، فصعد إلى البيت بخطوات واسعة، وحين وجد الدار غير الدار، ثار الدم في العروق. «اهدا الآن يا قصي» أخذ يتمتم نازلاً الدرج نحوها.

- أنت بخير؟

- هل يمكن أن تفسر لي لم دخل رجال فلسطينيون مثلي، بيتي ونبشوا كل ما فيه؟ لو كانوا يهوداً لصدقت ما حدث. ثم ماذا في البيت؟ هذا لم يحدث سابقاً.. أهنأك ما لا أعرفه يا قصي؟

- يجب أن ترتاحي قليلاً؛ أنت مجهدة.

- أرحني بإجابة ما، أنت تعرف. الكل يقول إنك كنت قريباً من والدي الفترة الأخيرة.. حين دخلوا البيت أمروني بإخراج كل ما لوالدي.. لو نظرت في وجوههم لعرفت أي حقد هذا!

- لماذا أنت في نابلس؟ أليس من الأفضل أن تعودي لتل اللوز أو أن تسافري إلى الأردن؟ لا يمكن لأحد أن يتكهن بمَ سيحدث مستقبلاً.

- ما الذي يمكن أن يحدث مستقبلاً؟ ما الذي حدث قبلاً؟

- طيب، أغلقي الدار، ولنتمشّ قليلاً.. إن كنت ترغبين؟

- لا بأس، على أن تخبرني.

مشيا صامتتين، يقيسان خطوهما، ثم، سألها:

- لم تجيبي على سُؤالي: لِمَ أنتِ هنا وحدك؟

- أجبني عن أسئلتني أولاً.

- لا تكوني يابسة الرأس هكذا.. واحدة بواحدة، أجِبي أُجِيب.

- أريد فترة من الراحة والسكون، العودة لتل اللوز ستقتل الباقي مني، هاربة من القرية ونظراتهم الوقحة لي، وكأنني عملت عاملة.

- كيف؟ لم أفهم!

- خالي عرض عليّ الزواج من رجل خمسيني، وهو يرمقني بنظرات ريبة طوال الوقت.. كذبت عليه، قلت إنني وقعت عقدًا للعمل في نابلس.. وهربت إلى هنا، ثم ماذا أفعل بنظرات الناس الدائمة، لقد تغيروا، وكأنني شخص غيري، هذا مؤلم.

- وزوجك؟ أنا لا أفهم؟!

- أنا الآن مطلقة يا قصي.. (قالتها سريعًا ثم تابعت ببطء) والآن أجبني عن أسئلتني.. يلا.

بينما كانت تخفض رأسها متجنبة الالتفات نحوه، أثناء نطق كلماتها، كان يحشر بسمة ملأت جوفه بالعصافير، شيء لم يدرك له مسمى، فبقي صامتًا محاولاً التوازن.

- ألن تجيب؟

كانت طوال الطريق تنظر أمامها مباشرة، الرصيف الرمادي، الشارع الذي رُفَّت منذ أيام بدا متشققًا، قديمًا.. قال لها متتبّعًا مدى بصرها:

- شوفي، هذا نتيجة مرور مصفحة إسرائيلية من هنا، نبي ويهدون، فنصرّ على البناء. يحدث هذا في كل جوانب حياتنا في نظري. أتعرفين؟ المكان الذي يهدمونه، يلفتون نظرنا نحوه، فجأة يملك بُعدًا جديدًا، نظرة مختلفة، فتتغمس الأمور في قالب من التحدي أولاً، ثم من الاستشعار بالتسرب.. نشعر أن شيئًا منا يُفقد، فنتمسك به أكثر، «بِنَقْرِبُ فيه» على قولة جدتي.

كانت حنان ما تزال تنظر أمامها فقط، بينما تنغمس بصوتها الداخلي، وأسئلة لا تنتهي:

«عن أي شيء يبحثون؟ ومن هم أصلاً؟ وما الذي فعله أبي حتى يستدعي كل هذا الحقد؟ ثم كيف أقول له: مطلقة، بذلك الهدوء والبساطة؟ ولم قلت؟».

- اسمعي حنان، لديّ اقتراح مؤقت لكنه جيد، فكري به على راحتك، جيهان سكرتيرتي ستبدأ إجازة أمومتها غدًا، أحتاج سكرتيرة في مكتبي، تبقيين في نابلس وتعملين كما قلتِ لخالك.

- أفكر، وأخبرك.

- أعرف أنك خريجة آداب، لكن العمل بسيط، إلى أن تجدي عملاً مناسبًا.

تنظر إلى حذائها الآن بدقة، وهي تمشي خطوات ضيقة سريعة كي تلحق خطوة واحدة واسعة وبطيئة من خطواته.

- تعبت.. نحن قريبان الآن من البيت.

أوصلها لباب الدار، قال لها برقة وحنو كبيرين:

- ألن يأتي أسامة؟ أظنك تحتاجينه الآن.

- قال لي إنه سيعود بعد شهر تقريبًا، تعرف؟ اشتقت له فعلاً. (صمتت قليلاً، ثم تابعت) ستركني الآن أبحث في حلقة مفرغة عن الذي حدث اليوم، لو منحنتني طرف الخيط على الأقل.. ما الذي يبحثون عنه؟ من هم؟

- ارتاحي من التفكير قليلاً، وإن أردت شيئًا، أي شيء في أي ساعة، ستجديني.

- أردتُ شيئًا ولم تعطني إياه.

ابتسم ابتسامة شاحبة، وغادر دون كلام. مشى مطرّقًا، كان يفكر طول الطريق الذي مشاه على قدميه دون أن يستشعر طوله. لم كان خائفًا عليها كل هذا الخوف؟ ولم شعر بقلبه يكبر حين قالت له إنها تطلعت؟ لقد آلمه أنه سعيد بوجعها. وحين وصل وجد قدميه تقفان أمام بيت أمه طارقًا الباب، فطلّت أمه تحمل صبا. قبّل جبينها، وحضن صبا.

وضعت ركوة القهوة على الغاز بينما أشارت له بـ«ابنة حلال» سكنت حديثًا في الجوار، قالت إنه يمكن أن يراها بينما تخرج إلى جامعتها صباحًا.

- يعني يا ابني شو فيها؟ بتنام اليوم عنا، وشوفها الصبح، إذا عجبك من بكرة بخطبها، بس قول إيه.

تقول الأم في لهفة. ويصمت.

قال لها: بكير!

فجفلت وذهبت لتجلب القهوة.

شرب الفنجان ببطء دون أن يتكلم، وحين قام حاولت أمه استبقاءه لأجل العروس الجامعية، لكنه رفض متحججًا ببعض القضايا. وحين تحرك خطوات للأمام، رنّ هاتفه.

كان صوتها الناعم يصله، دق قلبه على استعجال، ونشف ريقه كأنه مراهق يسمع صوت امرأة لأول مرة.

لكنها ما لبثت أن قالت: «أنا حنان يا قصي».

لم يكن يعلم لم دخل غرفة نومه القديمة، وأغلق الباب.

قالت أشياء عن نابلس، والعمل، وعنه.

لكنه لم يفهم شيئًا.

«تعالى من بكرة». هكذا قال باستعجال وسعادة غامرة.

كان يحدثها ناظرًا لتلك اللوحة التي علّقها منذ قدومه عن فتاة بثوب إسباني أحمر ترقص على شاطئ البحر. كان يتلمّس البحر في اللوحة. وسماعة الهاتف في يدك، ورغم أن كلماتها مقتضبة ومستعجلة لكن قلبه بقي يرجف بعد أن أغلقت الخط.

استلقى على السرير، وأطبق جفنيه ملء راحة شملته، إلى أن سمع أساور أمه وخطوها فنهض.

سألته: من هذه؟

هذه حنان يا أمي. أخت قصي جرير العيسى.

صمتت، واستأذنها في النوم الليلة في غرفته.

حين أرادت أن تحكي شيئاً سبقها: ألم تريدي مني رؤية العروس صباحاً!

-٦-

الثلاثاء: ١٧ / يناير / ٢٠٠٦

ربما نمت.

كنت طوال الليل بين النوم والصحو، بقيت أتأمل كلمات رسالته وقد حفظتها عن ظهر قلب. فسّرتُ الكلمات على كل الجهات: «عزيزتي / كفرحي / راحة بالي / أتقلّي عليك / خيانة كبيرة».

كنتُ أسكتُ قلبي عن التفكير إلى هنا.

استقرّ بي المطاف -بعد المناوشات الطويلة- عند اتفاق بيني وبينني على الحذر خشية الوقوع في إحساس ينال مني الكثير، مخافة ألا تكون كلمات لؤي هذه -كونه كاتبًا- إلا نثارًا من متعة لغوية وانتماء للحرف.

إذن فقد قررت ألا أخوض أي مغامرة حتى وإن كانت لغوية، وأن أحافظ على مسافة بيني وبين رسائله/ بينه.

لعل هذا أضمن.

لكني حين بدأت أكتب، نسيت كل شيء، ما عدتُ أريد إلا أن أتدفق.. تذكرتُ فقط جملته: «الأدب الجيد هو الأدب الذي يُفجر، يدمّر، يغيّر».. فهل ما أكتبه في رسالتي أدب أم أنه يتجاوز ذلك؟

To: loay_writer@hotmail.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 17\Jan

subject: عذرا لتأخري..

لؤي..

سلام كرغبة الكتابة فينا، وأتوقع على ذلك أنه سلام يليق بك، وبرسائك، وبروحك الجميلة.

عذراً لتأخري، فكلما قررت الكتابة إليك انشغلتُ بأمر ما.

سعادتي برسالتك تجعلني أكتب الآن، فجراً.. وقبل أن يلحقني ما يشغلني.

كنتُ وأنا أقرأ سطورك أفتح شفتي على اتساعهما بابتسامة لم تفارقني.

عن الأمنية السر، فهي لن تكون سرًا إن أخبرتك، وبهذا قد أخسر جزءًا من السرية التي أبنيتها حولي في محاولة لنسج شيء من «الأكشن» المفقود في حياتي، أقولها ببعض المزاح. جزء من أمنية العام: «لو أنني أنمو كرائحة النرجس بعد المطر!».

أقولها طمعًا في أمنيتك، وفضولًا بمعرفتها.

المهم..

عن تفاصيلي:

منذ يومين حضرتُ عرس صديقتي مريم. ولأنها كانت تحب أكل قاع طنجرة المقلوبة، فقد كانت خالتها تقول لها: ستتزوجين في الشتاء. وفعلاً.. لا أعرف إن كانت اعتبرت كلام خالتها حقيقياً وسَعَتْ لتحقيقه أم أن الظروف زجَّتْها في هذا التاريخ تحديداً.

كنت سعيدة لأجلها.

هذه المناسبات بالنسبة لي شيء مختلف عادة، فكيف إن جاءت كما عرس مريم؟!

ولأنها أتت بأسلوب فلسطيني خاص جداً، على خلاف الأعراس هنا، فقد شعرت بمذاق لذيذ جعل من الإجازة فرحة ما كنتُ أحسبها. مريم التي أتتني بمفاجأة أحييتني لليالٍ طوال.. حين دخلت وقد ارتدت ثوباً فلسطينياً مطرزاً أذهلتني، كان ثوباً أبيض نُقش بعروق الزيتون من آخره صعوداً إلى أعلاه، عروق دقيقة بخيوط حريرية حمراء وقليل من الليلكي.. قُبَّتْها دائرية مع

فتحة قصيرة إلى صدرها، ثم تلتف المربعات بين الأحمر والليلكي والأسود والأخضر على الصدر. وأكمامها واسعة جدًا، على شكل مثلث. ضمت خصرها النحيل بزناد مقلّم مزين بليرات فضية «عثملي».. وتركت شعرها على طولها، ولفته من الأعلى بعصبة مزينة بالفضة كالزناد تمامًا، وتركت «الملاية» البيضاء تصل حتى آخر ظهرها.

حين دخلت على صوت جدتها، وهي تزرغد لها، كانت كأنها عائدة إلى يافا التي خرجت منها عام ٤٨:

أيويها.. بحنة مكة جيت أحنيكي
أيويها.. يا بدر ضاوي والحلى كلو ليكي
أيويها.. ما بتلق الحنة إلا لإيديكي
أيويها.. يا مريم زينة العرايس لمحمد أوديكي
أيويها.. يا شعرك شعر السلسبيلي
أيويها.. ويسلمي هالكم الطويلي
أيويها.. ريتو يحرسك الله
أيويها.. من عين الحاسد والعزولي
ومن ثم، فإن ذهولي لم يتوقف إلى هنا، فهي لم تترك الفساتين المزركشة الحالية فقط، والأغاني التي تحمل نانسي وهيفاء، ومن لم أعرف فقط، مبدلة كل هذا بالأغاني الشعبية فقط، لا.. لقد امتد الأمر لسلسلة أخرى، من الكلمة المكتوبة أيضًا، وزّعت بيدها على النساء سلالاً صغيرة، في داخلها كيس حناء صغير، وكثير من حلوى بيض الحمام والملبس، ملفوفة كلها بشريط ذهبي، معلق في طرفه ورقة مغلفة حراريًا، كُتب عليها: «لأننا من هناك، من أرض

الزيتون والتين، ولأن لنا خيلاً كثيراً، وبيارات برتقال، وسهولاً في يافا.. نغني، ونفرح، ونخضّب الأيادي.. مؤمنين بالعودة، وبقلوبنا».

وحين دخل العريس، زفّه أصدقاؤه إلى باب الدار يغنون: «عريسنا زين الشباب، زين الشباب عريسنا»، ثم تناغم صوت النساء: «من وين جبت الحنا يما يا عريس، من مكة وإلا من باريس». أما العريس ذاته فقد كان خجلاً ملوئاً بالأحمر.. سلّم عليها، وقبّل رأسها، وغادر من فوره. كان قد ارتدى دماية بيضاء مخططة بالأسود، منقوشة، ومطرزة على أطرافها البيضاء نقش لزيتون، تكبر على قبتها.

مساء صعدت السطح أنظر ناحية ساحة دار العريس.. كان الجو بارداً جداً، لم تكن تمطر ليلتها.. كان أصدقاء محمد الذين قرروا أن يهدوه فرحاً ملوئاً.. حين ارتدوا دمايات*سود وحطّات فلسطينية، وبدأوا في «دبكة» على صوت أحدهم:

«طاحت الخيلة ترقص في ميدان العريس.. يا صلاتك يا محمد، يا خزاتك يا إبليس.

طاحت الخيلة ترقص في ميدان العسل.. يا صلاتك يا محمد، يا خزاتك يا شيطان».

ثم، اللحظة التي تجعل القلب يرفرف، حين جاءت أم العريس، لتغني معه:

«سبل عيونه ومد إيده يحنونه
غزال زغير بالمنديل يلفوله

يا إمي يا إمي عبيلي المخاداتي
وطلعت من الدار وما ودعت خيأتي
سبل عيونه ومد إيده يحنونه
غزال زغير بالمنديل يلفوله
يالمي يالمي طاويلي المناديلي
وطلعت من الدار وما ودعت أنا جيلي
واطلعت من الدار وما ودعت أنا أمي
أنا الغربية وهيلوا يا دمعاتي».

* الدماية الفلسطينية: ثوب يرتديه الرجال الفلسطينيون قديماً، مفتوح من وسطه إلى آخره يثنيه الفلاحون عادة إلى خصورهم وقت العمل، ويكون بين الأبيض والرمادي، وقد يكون مخططاً بخطوط سوداء أو رمادية دقيقة.

كان كل شيء يحمل طابعاً لم أشهد مثله حتى في بلدتنا الفلسطينية.

ليلة العرس، جاء العريس على حصان بني أصيل، وصارت النساء حوله «ينقطنه» ويغنين له، دقت أم العريس رأس العروسين ببعضهما قبل أن يدخلن حجرتهما، تمنياً بأن يجمعهما دوماً. وكأني في مكان غير الأردن، قطعة أخرى من العالم، قطعة من الفرحة الذي لا يمكن أن يأتي ببساطة، لبست مريم الأسود المطرز بالأبيض والأحمر، وهو لبس الأبيض الصافي. كانت سعادتها تفوق سعادة أي عروس، سعادة ترمز لرومية عتيقة، تشعل حولها الفرحة.

بعدها بيومين تجولت حول مدن الأردن: جرش، ومعان، واربد، والزرقاء،
ومأدبا. في مأدبا أعجبني المشي تحديداً عند الغياب. تعرف؟ مأدبا منطقة
زراعية جميلة. أتمنى لو أن بعض العناية تصلها، فهي حتماً ستكون غير. أما
جرش، فلا يمكن لي الكلام عنها. وقفت أمام المدرج الروماني وبقايا المدينة
متأملة أي تاريخ كان هنا. وتذكرت مسلسلاً تاريخياً قديماً عن المدينة
السورية تدمر، كان اسمه «العبايد» فيما أظن. بين إغماضة وأخرى كنت أرى
جرش تدمر.

أبدو قلقة بشأن الانتخابات ونتائجها.

ما الذي نريده نحن الفلسطينيون مثلاً؟

أن نجد من يمثلنا ويمثل أرضنا كما نرغب! أن لا نستسلم ونتنازل أمام
حقوقنا! وأن تنتهي المستوطنات، ويعود المهجرون، وينتهي الاحتلال!

ثم ماذا؟

من يستطيع برأيك أن يفعل كل هذا؟

أجزم أنه لا أحد.

لكني متعاطفة مع الجهة التي ستجعلني أرى الحقيقة دون لبس، ودون أوراق
زينة وهتافات أسخر منها في جوفي.

هل هذا ممكن يا لؤي؟

أدبياً:

قرأت مسرحيتين لتوفيق الحكيم: «الطعام لكل فم» و«أهل الكهف». وكتبت النص المرفق في هذه الرسالة: «المساءات الحزينة».

كما قرأت نصك «شقائق النعمان»، واعدتني عن إبداء رأيي به، فأنا أولاً لست بناقذة مطلقاً، ثم إن خبرتي قليلة جداً، لكنني سأكتفي بالقول إن النص أعجبني، لغته راقية وعذبة، كما أن خجلاً ناعساً تجلّى بجمال كبير. الآن قليل هو ما يُكتب عن هذا الإحساس الفاتن.

أنتظر نقدك لنصي.

نسيت أن أخبرك أن سفري للضفة سيكون في الثاني من فبراير، دعواتك.

أوووووه! ثرثرت كثيراً.

أعانك الله على قراءة كل هذا الصخب، والفرح، وقليل من القلق.

سلام بحجم كلماتك.

تيما

هل كتبت كل هذا لمجرد الرغبة في الكتابة فقط، أم...؟

ما الذي ينتظرني؟

السادسة صباحاً

لما عادت إلى الدار، راحت تعيد ترتيب الأشياء إلى أماكنها. دخلت غرفة والدها، دقت في كل الأوراق الجديدة والقديمة، حاولت أن تصل لنتيجة ما، غير أنها لم تجد شيئاً يستحق، ولا حتى قصاصات من التي كان يكتبها هنا وهناك. تذكرت ملفاً كان يجمع فيه مقالات معيّنة من الجرائد المحلية. بحث عنه في غرفته، ومن ثم في المكتبة، لكنها لم تجده. دارت الغرف تبحث، كان بحثاً هائماً، أنهكت تماماً، فنامت. استيقظت عند الثانية ليلاً، كانت ترغب في كبّ أسئلة كثيرة تخلّقت، في وجه قصي. لكن الوقت كان قد تأخر.

عادت إلى غرفتها، وبدأت تقرأ وصية والدها مرة أخرى، كانت مباشرة وواضحة، لكن جملة واحدة جعلتها تهجس أن شيئاً كبيراً حدث لوالدها دون علمها، إذ ما الثمن الجديد الذي دفعه والدها؟

لقد كتب: «يعزّ عليّ أن أفطس على فراشي بعد كل سنين العذاب في السجون، والمحاولة، والرغبة في تغيير شيء، لقد دفعت ثمناً جديداً لم يكن في الحساب».

أ يكون الثمن بعده عنها مثلاً؟

لا، لقد كان هذا ثمناً محسوباً مذ كانت صغيرة.. الأمر أكبر، أكبر.

بقيت تنتظر الفجر، ومن ثم أغلقت بابها، ونزلت إلى جارتها العجوز أم عبد الله، كانت تجلس في حوش بيتها. فاقتربت، سلّمت عليها، واستأذنتها في الجلوس قليلاً، فرحبت بها.

- هل حدث شيء ما لوالدي قبل وفاته؟ أي شيء مش طبيعي؟

- كيف يعني مش طبيعي؟

- هل بقي كما كان، ينزل إلى المقهى، ويستقبل أصحابه، ويذهب إلى الجريدة وأي شيء كهذا..

- كنت أشوفه بطلع كل يوم، عادي، وكان يزوره أبو خالد، وأبو عمر، والمصري، وتوفيق صاحب الدار، وقصي.. ها دول اللي كنت أشوفهم. خير يا بنتي؟

- ما في شيء، مجرد سؤال يا حجة. ما غاب أبدًا في البيت؟

- لا لا، بس شفت البيت ثلاثة أيام مظلم. توقعت أنه غدا تل اللوز، وقبل وفاته بكام يوم، راح ع تل اللوز كمان.

- متى غاب أول مرة؟ بتتذكري؟

- قوليلي شو تعشيت امبارح يا بنتي ما بذكر، بدك أذكر الشهور والأيام؟

صارت مؤمنة أن قصي بيده سر ما.. والآن، وهي تمشي في شارع البلوط، المزروع بشجر البلوط على جانبيه، الشارع الطويل الذي سيقودها إلى نابلس البلد، الطريق الذي لو انحرفت يمينًا لدخلت في مقبرة نابلس.

كانت تنظر من الحائط القصير إلى القبور المتناثرة وهي تتذكر زيارتها لقبر والدها في تل اللوز.. هناك القبور أوسع قليلًا، المسافة بين قبر وقبر أكبر، بعض القبور مزروع عندها شجرة، يسقيها الزّوار فتشرق وتورق. بعض الأشجار عند بعض القبور ذابلة، كان أهلها قد نسوا صاحب القبر وزرعه من الماء، وربما الدعوات. هناك قبور خالية أيضًا من أي شجرة، لكن الحشائش

الصغيرة كانت تنمو عند حواف رخام القبر. قبر والدها في تل اللوز كان حديثًا، لم تزرع قربه شجرة، ولم يكف الزمن بعد حتى تنمو الحشائش وتترعرع حوله. إنها الآن، تبتعد عن سور المقبرة القصير، وتمشي مستذكرة طريق القبر في تل اللوز.

كانت ساكنة. حنان، والمقبرة أيضًا.

لا يمكنها أن تنسى طريقًا مألوفًا كذلك، حين جادت عليها الدنيا بنظرة أخيرة لوجه والدها، فاستقبلته دون ملامح.

كل المشاعر وقتها هربت، الفراغ وحده من كان يحلّق حولها.

«هل رأيت يا حنان جرير العيسى التراب يُهال على جثته حقًا، أم ترى لك ذلك؟»

هل كنت محمومة لأنك لم تبكي، أم لأن اليقين بالفقد بات أكيدًا؟».

هي لم تره إلا في الأبيض. قبلت كله، وصلت عليه في مسجد القرية. ولمّا دفنوه منعوها عنه.

قيل لها إنه وُضع في لحد عليه بلاطات، ثم أُسقط التراب في القبر. كان مستقبل القبلة. رشوا عليه الماء، ودعوا له وغادروه.

لا تعلم لم ذكرت منظره وهو يدمع عندما رآها في سجن مجدو! حين لم يستطع أن يحضنها ولا أن يمنحها قبلة على خدها الذي بدا متوهجًا بالأحمر

الدافئ، وحين حاول أن يشبّك أصابعه بأصابعها حالت الشباك دون أي لمسة،
واكتفى بأصابع حاولت فتألمت بالدم؟

لماذا تذكر الآن سجن مجدو؟

هل لأن ألمها وهي تراه متأخرة مشابه لألمه حين لم يستطع أن يقترب منها؟
أتراه كان متألمًا في ذاك الوقت أكثر من ألمه حين لم يعرفها بعد أربع سنوات
من منع الزيارات عليه؟ أو حتى تلك اللحظات التي اكتشف فيها أنه حُرّم من
ماء يغرق في الحياة ويسري بالروح؟

فعن أي الأشياء ستحدّث والدها عند قبره؟

قالت لها أم أحمد إن عليها أن تدعو له، وإنها هدايا تصل على قدر المحبة.
فدعت.

ستدعو له عند القبر.

وستطلب منه الصفح، فقد خيّبت آماله العريضة بها.

«ياه يا حنان!

الأسئلة تبلعك أيضًا.

تغدر بك، وتأخذك إليها رغماً».

قبر أبيها أصبح أمامها، تتمم بخضوع: «السلام عليكم آل بيت الآخرة، أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

الخبيزة واللوف وورق اللساق والزعمطوط بأزهاره البنفسجية والزهرية والحنون وشقائق النعمان، كلها تحلقت حول القبور القريبة.. كان رخام القبر المنقوش باسم والدها ما يزال التراب من حوله طريًا. وفي لحظة سهو بدت طويلة، بدا وكأنما سمعت صوت والدها وهو يقرأ لدرويش يومًا:

سأقول :

صُبُونِي

بحرف النون، حيث تَعْبُ رُوحِي
سورة الرحمن في القرآن. وامشوا
صامتين معي على خطوات أجدادي
ووقع الناي في أذلي. ولا
تَصْعُوا على قبري البنفسج، فَهَوَ
رَهْرُ الْمُحَبِّطِينَ يُذَكِّرُ الموتى بموت
الحُبِّ قبل أوانِهِ. وَصَعُوا على
التابوتِ سَبْعَ سنابلٍ خضراءٍ إنْ
وُجِدَتْ، وَبَعْضُ شقائق النُعمانِ إنْ
وُجِدَتْ.

منقوش على الرخام: الفاتحة على روح المرحوم جرير أسامة العيسى.

تقرأ الفاتحة.

ثم تفتح شفاهها:

«أعرف أنك تسمعني، حتى وأنا أغرق بالصمت. يا بابا! لن أعود إلى الأردن، لم يكن لي فيها شيء من البداية، لكنني كنتُ أضحك على نفسي. وعدني أسامة أنه قادم بعد أقل شهر، قال لي إن عليّ التفكير في مغادرة نابلس والعودة معه إلى أمريكا. لكنني لن أردّ عليه، ولن أتركك.

فهل تصلك كل يوم دعواتي؟ أيصلك مني سلامي، وصباحي ومسائي؟

أنا لست حزينة يا أبي.

هذه الدموع، دموع رحمة فقط.

ما دمت تسمعني وتشعر بالذي أقوله فلست وحيدة هنا، ولا حزينة. سأسلك ذات الطريق، والأسئلة، والعتمة.

سأموت ذات يوم.

أتدري؟ أدعو دومًا أن أموت هنا، في هذه البقعة من العالم. لا أرغب في الموت خارج فلسطين. أريد قبرًا بجوارك يا أبي.

أستغفركَ يا رب.

وحدك على كل شيء قدير. ووحده من تعلم بأي أرض وأي زمن أموت. لكنه الدعاء..

غفرانك يا الله..».

تقرأ الفاتحة مرة أخرى على روحه. وتسلم على أهل القبور في طريق عودتها: «سلام عليكم آل بيت الآخرة، أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

ينتهي سور القبور، تقطع الشارع بين المقبرة وشارع المكتبة العامة.

تمشي، وتمشي. صار مكتب المحامي قصي قبالتها على بُعد عمارتين فقط.

فلماذا كانت تمشي خفيفة هكذا، كفراشة؟!

-٨-

الثلاثاء: ٣١- يناير- ٢٠٠٦

لم تصلني منه أي رسالة.

فتحْتُ بريدي الإلكتروني قبل اليوم خمس مرات في أيام متقطعة، لكني لم أَر أي رسالة منه.

كان قلقي عليه يمتد كبيرًا، وعميقًا في نفسي، فازداد خوفي.

كنت أود أن أعرف إن كان سعيدًا أو عكس ذلك، بنتائج الانتخابات. شغفة بمعرفة آرائه وأفكاره.

لكن، أين هو يا ترى؟

هل كان يشعر بحجم هذا القلق الذي أشعره الآن؟ ثم لماذا بدأت أعتبر هذا جفاءً متعمدًا؟ ربما يكون مريضًا، أو مشغولًا، أو مسافرًا.. ثم إنني ما أفْتَأ

أبحث عنه على شبكة الإنترنت: صورته، مقالاته، قصصه، حكاياته... وأنسى
في لُجّة ما يحدث أنه مجرد خيال وهمي في شبكة وهمية أيضًا.

خرج أهلي قبل ساعة.

قلتُ لأمي إني أشعر بالتعب، واعتذرت عن الخروج معهم لزيارة عمي. دخلت
السرير، لكن ذلك الإحساس بالترقب منعني من الراحة والنوم، ففتحت
المانجر، تمنيت كثيرًا أن أجده مضيئًا بالأخضر، لكنه لم يكن. كانت نزهة
صديقتي المغربية موجودة، الوحيدة التي أرغب بالحديث معها بين مجموعة
الأصدقاء على المانجر.

كنتُ أريد أن تقول لي: بلا خوف، اتبعني قلبك.

وهذا القلب الأبله، يتعلق بخيوط من هواء لا يمكن اللحاق بها مطلقًا. هواء
من الحب أم الرغبة به، أم الاهتمام، أم كلها معًا؟

فشرعنا نتحدث:

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

بتعرفني نزهة؟

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

شكلي رح أحب!

هيك، بدي شي يملأ حياتي، يزلزلني، يغيرني، ويغير رتابة الأيام، والأحلام.

(روح الإنسان بلد قصي):

□

(روح الإنسان بلد قصي):

حبي يا ختي متحبيش ليه؟

«..شَغَفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

يعني

«..شَغَفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

ما بعرف!

(روح الإنسان بلد قصي):

أنثى في مهب الحب

«..شَغَفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

حلو لعنوان فيلم عاطفي

(روح الإنسان بلد قصي):

هو عنوان الحرمان هههههه

«..شَغَفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

مالنا يا بنتي

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

؟

(روح الإنسان بلد قصي):

أتعرفين معنى أن تكوني أنثى في مهب الحب؟

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

ما معنى ذلك؟

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

هيا يا فيلسوفتي

(روح الإنسان بلد قصي):

أول همسة: معناه إنك قررت ولا أظن أن الحب يكون بقرار

(روح الإنسان بلد قصي):

ثاني همسة: إنك تصورت أن للأحباب مهبًا، مكانًا، حدودًا، والمفروض أن يكون في كل مكان كالهواء والضوء تمامًا.

(روح الإنسان بلد قصي):

إنك تصورت أن للحب بابًا، مهبطًا

(روح الإنسان بلد قصي):

ثالث همسة: أن تقول أنتى إنها في مهبط الحب معناه أنها أنتى يسيطر عليها العقل ولما قررت أن تكون ذلك ظنت أنها تخلت عن عقلانيتها في حين أنها لا تفعل شيئًا سوى عقلنة الحب والطريق إليه

«..شَغَفٌ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

أحقًا؟! أيعقل أني أفعل ذلك دون شعور مني؟

كانت كلماتها تسكب في روعي: هل قررت أن أحب حقًا؟ وأنا أقاومه وأضع العراقيل أمامي كيلا أنجرف نحوه!

هل يمكن أن أكون قد وضعت للحب -على افتراض أني قررت الحب- مكانًا؟ ولا مكان لنا، إلا هذه الشبكة الوهمية؟

وهل حقًا أعقلن الحب وأمشي في طريقه؟ بينما لا أبعث له رسالة أخرى تسأل عن غيابه؟

طيب.

لا تجيبي عن أي الأسئلة الفائتة؛ قد تكون صعبة عليك.

لكن أجيبيني فقط: لم ترغبين في مبادلتة الأحاديث والأسرار والحكايات؟ لم يعتريك القلق والحزن والتعب؟

آه يا تيماء!

أخشى أنك بدأتِ بالتعري أمام شعوركِ بغيابه / غيابه الضئيل.

الثامنة مساء

-٩-

أول مرة زارث هذا المبنى كانت تتحفز لشيء مهيب، واليوم تزوره لتعمل فيه. لم يكن ثمة أي فرق ظاهري بين المكان في الحالتين، لكن داخلها ينوء بكل الاختلافات.

«كيف تراكِ تتعاملين مع عينيه التي رأت دموعك وحزنك وغربتك؟ وهل يمكن أن تنسي صوته إذ ناداك، وحواره وصمته الأخيرين؟».

الدرجات الأخيرة تتعبها فتلهث كعجوز.

«لِم لم تصعدي بالمصعد إذن؟ أي شيء ترغبين في فعله إن تمدد الوقت لدقائق بدل الدقيقة؟»

ولِم أراكِ تغالين في الخوف؟ ألم يرحك من كثير حين عرض عليكِ العمل؟ ألم يقل داخلِك: نعم، دون أن تفكري حتى؟».

قالت لابنة خالها على التليفون: الشغل أحسن.. ولم يكن هناك شغل، كانت تحاول الابتعاد عن الشعور باختناق الفراغ، وسؤال الأيام القادمة.. «تعالى

عندي في أيام عطلتك، وجيبي معك ملبس وبيض حمام؛ عندي حكي حلو». ردت عليها أمل بفرح.

الآن هي على مشارف العمل، لم تكذب. الباب ذاته، واسم قصي الجمل يلمع بلوحته الذهبية على صغرها.

كانت الصالة التي تسبق مكتبه خالية تمامًا. الساعة ذات الإطار البني المعلقة على الحائط تشير إلى الثامنة إلا ثلثًا. ثلث ساعة جيدة للتعود على المكان. تفكر.

بينما فاجأها بارزًا من باب مكتبه مرحبًا. تسمع صوته قبل أن يظهر بكل شبابه وألقه. ويعاودها الارتباك.

فلماذا تراه الآن مختلفًا؟

لم يكن قد تغير فيه شيء، فهل اختلفت نظرتها له؟

«الآن، هو سيد المكان، وأنتِ جزء من المكان لا أكثر. تشبهين القلم والطاولة والمكتبة. كنتِ قبلاً ملك نفسك».

ستظل تفكر طول الوقت.

لكنها ستردع نفسها سريعًا كل مرة. «دَعكِ من الهبل» ستقول.

أشار بيده إلى مكتبه ثم إلى الكرسي الجلدي، فجلست. كانت الابتسامة لا تفارق وجهها البتة. دخل إلى ممر صغير تجهل إلى أين يفضي، ثم عاد يقول: كيف هي قهوتك؟

«وسط». قالت. ولم تزد بحرف.

حين قَدِمَ نشر كلمات الترحيب من جديد. جلس قبالتها. مدّ فنجانًا. فشربت بصمت. ما لبث أن قطعه. كيف القهوة؟ أجابت على عجل. طيبة.

لم تكن رغبة الكلام مواتية. وكان على خلافها.

قال: تأكدي أنني سعيد بقدومك. فابتسمت.

سألته عن طبيعة عملها هنا، فنهض إلى الصالة وقامت معه. جلس على كرسي مكتب السكرتيرة وأخرج دفترًا، وأشار إلى تاريخ اليوم، موضحًا أن عليها حجز المواعيد حسب أيامها بالساعة. ثم انتقل إلى مكتبة صغيرة تبعد ثلاثة أمتار، وأخرج مجموعة من الملفات. وضع أول ملف أمامها قائلاً: «كل صاحب قضية عندي لديه هنا ملف. سترين في دفتر المواعيد الأشخاص الذين حجزوا، وتجهزين لي ملفات قضاياهم قبلها بيوم. الأمر سهل. وستتعودين عليه وتحبينه. نسيت أن أخبرك أن كل ملف ورقي هنا يتم تصويره بالسكرانر ووضعه على جهاز الكمبيوتر. وهناك ملفات لزبائن قدامى، محفوظة فقط على الجهاز. قد نضطر أحيانًا لبعثها بيننا إلكترونياً. لديك هنا على أول صفحة من هذا الدفتر بريدي الإلكتروني، ورقم هاتفني الشخصي، قد تحتاجينهما».

أصبحت الساعة الثامنة تمامًا.

أمرها أن تفتح دفتر المواعيد، وتكتب مواعيد اليوم على دفتر خاص بالمواعيد. لم يكن ثمة أي مواعيد ما بين الثامنة والعاشر.

ساعتان دون عمل! قلقت؛ الانتظار يقلقها.

حسنًا، قال. لدينا بعض الوقت، أتحبين أن نفطر في الخارج؟

هزّت رأسها لليمين واليسار، فشعرت بخيبة ملامحه. لم تعرف كيف تداري ما رأت في وجهه. وقبل أن تفكر بأي خطوة كان قد استأذن وخرج.

«لم اضطربتِ أكثر؟!» حدث ذاتها.

«لعله الخواء والخوف يتسربان لنفسك، ويشكلان ضبابًا حول المكان».

دارت في الصالة، ثم دخلت مكتبه. بهدوء مشت ناقلة عينيها بين الصور. على الحائط علّق شهادة تخرج من جامعة بيرزيت. ثم الماجستير من جامعة ألمانية. صور طبيعية لأماكن لا تعرفها، لكنها تسلب القلب بجمالها. وفوق مكتبه مباشرة يتربع برواز لسورة الكرسي مخاط بخيوط ذهبية على قماش مخملي أسود. بصورة عفوية وقع نظرها على صورة لطفلة بيضاء فائقة الجمال، مربعة الوجه، عينيها زرقاء، وشعرها أسود، وبسمتها تأخذ اللب. تأملتها عن قرب طويلًا. فكان أن دخل قصي.

ارتبكت وصمت.

وحينما اقترب حتى أصبح خلفها، قال: هذه صبا. ابنتي. وتابع رافعًا إطارات الصور: هذه أُمي. وهذا أنا وصديقي في ألمانيا. هذه هي العائلة الكريمة كاملة. وهنا صورة لطلاب الثانوية العامة في مدرسة القرية. هذا أخوك أسامة. انظري.

كان قصي ودودًا جدًّا، وقريبًا جدًّا، وهادئًا جدًّا. ولم تكن.. كانت تحاول أن تخرج من الثقل والخرج والصمت فقط.

تحرك أمامها، وقبلالة المكتب، أشار لصورته طفلاً في الخامسة ربما، أسفل شجرة ضخمة.

سألها: أكيد تعرفين هذا المكان جيداً. كل أهل القرية تعرفه.

أجابت: إلا أنا! هذه الشجرة في قريرتنا؟

- نعم، لكن جدي لأمي قطعها. أما تعرفين الحكاية؟

- لا.

- غريب! جلبت فطوراً لنا. سأذهب لصنع الشاي، ثم أخبرك.

- سأصنعه أنا. فكرت بكسر حاجز كسره قبلها بوقت طويل.

- ممتاز! أشربه خفيفاً، بسكر خفيف أيضاً. سأتركك تبحثين عن الشاي والسكر. أتحبين الاكتشاف مثلي؟

- آه!

جمتله الأخيرة منحتها إحساساً بالنشوة.

- ١٠ -

الخميس: ٢- فبراير ٢٠٠٦

وصلت البلاد أخيراً.

كنتُ متعبة جدًا؛ كان الفراق يزيد الطريق طولاً وألمًا.

بكيت الليلة بكاملها. وعندما جاءت لحظة الوداع، مسحت دموعي كي أقوى
أمي التي أشفقت على عينيها وقلبها.

حزنت، لكنني دعوت الله الصبر، فمنحني. بقيت أفكر في دراستي، وعمري
الذي سأبنيه طوبة طوبة. كنتُ على يقين أن خيرًا ما ينتظرني. وأردتُ بقوة
أن أشعر بذاتي وبالمسؤولية. فهنا، في فلسطين، مع أحوالها المتقلبة تصبح
شيئًا آخر.

أمي قالت إنني تغيرت، إنني أصبحت أكثر قوة وجرأة ودراية. وهذا يكفيني
كي أتابع الطريق مهما حدث.

فجرًا، وأنا ما أزال في سيارة الجسر، سمعتُ في إذاعة BBC عن رسوم
دنماركية مسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، فأصابني الذهول.

لكنني انتظرت. ربما تكون مجرد إشاعة، وإن كانت حقيقة، ثمة ما قد يحدث
ليجعل هذا كله يتغير، هكذا افترضت.

تكلمت مع أهلي حال وصولي. كانوا بخير.

دخلتُ السكن الجامعي. كان خاليًا. لم أدِر كيف أواري شعورًا عميقًا بالوحدة.
تمددت لكنني لم أنم. وحين بدأت الدموع بالهطول خرجت للمشي.

كنتُ أمشي وأترنم مع لحن طفولي عن حمامة بيضاء تجلب الهدايا
والماضي.. لم أكن أشعر بحمامة ما ولا تخيلتها. ذاكرتي لم تستطع ذلك،

فعرفتُ أنني حزينة فوق محاولتي.

كانت المحالُ في شارع الجامعة مفتوحة. فدخلتُ مقهى إنترنت. على الشبكة
تضجُ الأخبار بتلك الرسوم، الكثير من المقالات التي تهدد وتعلن مقاطعة
المنتجات الدنماركية، وأخرى تحكي عن حرية الرأي والتعبير، كونه منهجًا
غريبًا أساسيًا. الرسائل الإلكترونية التي وصلتني في فترة انقطاعي كثيرة.
وجدتني أبحث عن رسالة من لؤي، ولما لم أجد انقبض قلبي. ففتحتُ
الماسنجر عساي أجده. أردتُ أن أسأله عن غيابه. أن أخبره كم أقلقني! وكم
خفتُ عليه!

وما أن وجدته مضاء بالأخضر حتى انتظرتُ في الصمت. كنت أترقب أن يبدأ
بالحديث معي. لم أعلم ما فائدة هذه المسافة الغبية وأنا ببساطة مشتاقة،
وأرغب حقيقة في الاطمئنان عليه!

ثوانٍ هي، حتى فُتحت تلك النافذة الموعودة.

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

أهلاً أهلاً تيماء

«..شَغِفُ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

أهلاً لؤي

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

كيف هي صديقتنا ماجدة؟ وصلني أنها متعبة

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

حقًا؟

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

لنسأل عن أخبارك أولاً

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

أظنها بخير

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

جيد أن السياق يتسع لي

لكن لا بأس. لِمَ اللوم؟

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

لِمَ تقولين: لِمَ اللوم؟/ من حَقك

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

لا أتوقع ذلك

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

لِمَ لا تتوقعين؟

لعله ظلم لي، وهو ليس في محله / أبدًا

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

أظلم نفسي في زحمك لا أكثر

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

لكن الأمور لا تقاس هكذا

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

وكيف تقاس إذن؟

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

من يعرفني يعرف أن هذا ليس طبعي

وأني لست من هذه الطينة

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

ومن أي طينة أنت؟

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

ربما لست أنا من يجب أن يحدد ذلك

أنتِ يمكنك أن «تحكمي»

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

لكني لا أعرفك حتى أحكم

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

القضية ليست قضية حكم تمامًا، بل قضية شعور/ إحساس/ ثقة

لم كل هذا الصمت يا تيماء؟

القضية قضية احتكاك كان بيننا

قضية سمعة

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

لا أمنح الإحساس ما تمنحه أنت، ربما أمنحه فقط ١٠%

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

أيعقل؟

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

قد يكون كل ما وصلني شيئًا خادعًا

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

لكنه على الأقل شيء

اسمعي تيمًا/ لديّ شعور أن لك الرغبة في قول شيء ما لي، قوليه، أنتظرك

«..شَغِفٌ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

قد تكون محقًا، لكنني لا أتوقع أن الوقت مناسب

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

ولماذا؟

«..شَغِفٌ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

سأؤجل الأمر إلى أن ترسل رسالتك. لن ألومك من جديد لأنك لم تبعث لي.

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

أوووه! عدنا

لن أوافق

صدقيني كنتُ أكتبها الآن. على كلامك هذا سأحذف نصفها

«..شَغِفٌ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

لا/ لا تفعل! ابعثها كما هي. أرجوك أستاذي

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

أنا من أرجوك. أزيل «أستاذي» هذه أثناء الحديث معي

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

أحاول أن أعبر عن احترامي فقط

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

أقدّر ما تقولينه. اعتبريها طلبًا. ثم لا أشعر أنني «ختيار» إلى هذه الدرجة!

«..شَغِفْ بشيء غائب، أضفي عليه الاسم..»:

هههههه. حاضر يا «لؤي»

«..يا صخب الطفولة، اقترب..»:

احذفي الأقواس حتى أسمع اسمي جيدًا

لم أقل له أي شيء مما نويت.

ما وصلني كان أعمق. ثم أنني لن أستطيع أن أقول له: قلقت عليك / خفت /...
كلها كلمات لا تبدو من حقي.

أي طفولة تلك التي يتمنى أن يقترب منها!

وأي قلق هذا الذي أكّنه لرجل لا أعرفه، ويعتريني كلما حدّثته ولو لشوانٍ
شعور بأنه باقٍ فيّ!

فما الذي سيقوله لي في إيميله ذاك؟

ولماذا نسينا في غمرة أنفسنا ما حدث ويحدث حولنا؟

أترانا نخون وطننا وديننا، إن نحن نسينا في لجة الماء كل شيء؟!!

الخامسة مساء

تأرجح

-١-

الشاي ساخن.

والفطور موضوع أمامهما. يلقم منه قليلاً ثم يبدأ في الكلام.

- سموها «ستنا الغارة» هي شجرة كينا كبيرة. كان الناس يخافونها، كنتُ أسمعهم وهم يرددون التعويذات قربها. أتصدقين؟ كانت العجائز يقتربن منها ليلاً، ويخفنّها نهاراً! ليلاً كانوا يأتونها، يتقربون إليها بالأغطية الجديدة ويَحِكنّ لها القمصان الشتوية، بينما كنا نموت من البرد. لم تكن «ستنا الغارة» تنطفئ أبداً. على الرغم من أننا لم نكن نملك الزيت كي ندرس.

من كانت له حاجة يتولى إشعال الفوانيس. بعض الفتيات كنّ يعلق قصاصة قماش على غصنها ويدعونها كي تسأل الله حاجة من سألها.

كانت حنان تفتح فمها مندهشة، تنتقل عيناها بين شفتي قصي والصورة. ثم تساءلت حين انتهى من حديثه، لما بدت على وجهه تلك البسمة المواربة التي توحى بانتصار ما، «هل كان يقصد أن يحدثك عن الشجرة أم...؟».

- أراك شاردة؟

- أتساءل عن السبب المباشر الذي جعل جدك يقرر أن يقطعها، حدث ما مثلاً.

- حسب ما قالته لي أمي إن لجدي أختًا تزوجت ولم تحبل. نصحتها إحداهن أن تخبر الغارة بما فيها، لتطلب من الله أن يرزقها. وفعلاً، كانت أخته تزورها يوميًا وتوقد لها، وتغزل الملابس بينما زوجها يكاد يشحذ الخبز! نصحتها جدي (أخوها)، أن تحيد عما هي عليه، لكنها أصرت. فقرر أن يقطع «ستنا الغارة» كي يخلص الناس من هذا الجهل الكبير.

- ولم يقف أحد في وجهه؟

- بلى. قالوا له إنه سيُشلّ من فوره، وإن اللعنة ستحلّ على القرية كلها، وإن البركة ستختفي وسيحل مكانها الحرمان والسخط والظلم.. لكنه أصرّ. أمي قالت إنه كان متنور القلب والعقل، أخبر كل الوساطة التي جاءت لتحاول إقناعه بالعدول عن قراره أنه لا بد فاعل، وأنه لن يحدث شيء، فهو مؤمن أنه لا وجود لوساطة بين الإنسان وربه. وأنهم إن كانوا مؤمنين حقًا فعليهم أن يرفعوا أكفهم إلى الله، لا للشجرة. وأن يوقدوا الطرقات المظلمة، وأن يتصدقوا بالملابس والأغطية على بعضهم بعض بدلاً من الشجرة أيضًا.

جاء بجرافة كبيرة واقتلعها من جذورها. نظروا إليه مترقبين أن يموت، أو يُشلّ، أو يمسح قردًا، لكن هذا لم يحدث.

ثم انتظروا أن يحدث شيء للقرية، ولم يحدث أي مكروه أيضًا. فعرفوا بعد حين أنهم كانوا مخطئين.

شايفة يا حنان؟ من يومها والناس تتعلم وتحرص على أن تُبقي عقولها مفتوحة. العلم والإيمان.

كان قصي يحدثها بثقة كبيرة متفاخرًا بما فعله جده.

قال بعد حين كلمات ما تزال تتردد في ذهنها: «وحده اليقين من يتكفل بقلب الموازين؛ كوني موقنة».

للمت بقايا فطورهما. وغسلت أكواب الشاي والقهوة. لم يكن هناك شيء اعتيادي تمامًا، كما أنه لم يكن هناك بالمثل أمر خارق للعادة.

بدأت الأشياء حولها متأرجحة.

نظرت من شبك المطبخ الصغير. كان الناس كالنحل حول سوق الخضار القريبة. بينما يقلون كلما ابتعدوا عنه.

سمعت طرقاتٍ على باب المكتب، توحى بابتداء العمل. أخذت أوراق الزبون، وسجلت معلوماته كما علمها قصي. ثم حجزت له موعدًا. بعدها توالى الزبائن ولم ينتهوا إلى الساعة الثانية ظهرًا.

كانت سعيدة بأن ثمة ما يشغلها عن الفراغ.

«لكن أين هي صورة أم تلك الطفلة الشقراء يا ترى؟

وهل سيجيبني إن سألته عن والدي وما حدث من جديد؟ أم أن على قلوب أقفالها؟» كانت تفكر.

السبت: ٤- فبراير- ٢٠٠٦

أرسل إيميله أخيرًا.

لا أود التفكير به الآن، سأسافر عبره على مهل.

To: tayma@hotmail.com

From: loay_writer@hotmail.com

Date: 2\feb

subject: مساؤك كعبقك

عزيزتي..

مساؤك كعبقك الذي طلّ اليوم من نافذة اعتبرتها مغلقة. فعلى الرغم مما
تفتحه من وجود، هي أيضًا تزيد حالة التوجس والانتظار والاحتمالات.
أتشعرين بذلك مثلي؟

أتعرفين؟

الواقع المحسوس يجعلني أمام مشاعري تمامًا. أحب ذلك أكثر. أن ترى الآخر
وتبادله الكلام والنكات والابتسام. أن تشعر بروحه تقفز من بين عينيه. لكن،
ورغم أن الماسنجر يعد في حالة البعد هذه نعمة فالأمر مختلف مع أمي، هي
لا تقتنع البتة بهذا الجهاز الذي أكتب منه الآن، تقول لي: «إنه يربطني» أحيانًا
أجد الهاتف جيدًا للتواصل، فحين تطلق ضحكة تأتيني صورة وجهها القديم
وهي تفتح كرغيف خبز شهية.

أحب خوفها وترقبها الدائم. أقول لها: بخير أنا. فتقول: أحب سماع صوتك. صوتك وحده من يكشفك. لكني أشتاق لوجهك متحرّكًا يا لؤي. تقول هذا فتزيد من شوقي، وتلغي قليلاً من الصبر الذي أحتفظ به في علبة مفتوحة. أما عن تأخري -الذي لن تلوميني عليه- فقد كنتُ في الشارقة.

دولة الإمارات العربية المتحدة.

كنتُ ممثلاً عن دولة فلسطين، في التقاء الشباب المثقفين العرب. لم يكن لديّ مجال كبير لبعث رسالة إلكترونية من هناك. فقد كان جدول الأعمال ممتلئاً، ثم إن رسالة تبعث حيث الاتساع ونجم الجوزاء على بُعدها أن تليق بسمائه المحلقة. أوليس كذلك يا تيماء؟

هناك، تعرفتُ على أصدقاء وصديقات من مختلف البلدان. على العادات والثقافات والطبائع. كما تنعمنا بجولة حول الإمارات. خلالها زرنا دبي/ وعجمان/ ورأس الخيمة/ وكلبا. ثم عدنا إلى الشارقة منغمسين في معارض للرسم، وورشات أدبية. قبل أن نسافر بيومين ذهبنا إلى العين وأبو ظبي. لا أستطيع أن أخبركم كم كانت رائعة تلك الرحلة. جربي أن تقدمي سيرتك الذاتية في العام القادم، فهي تجربة رائعة بحق.

بالمناسبة، قد أبعث لك برقيات تحمل صوراً لأماكن زرتها.. لتحضري فيها، ولو خيالاً.

عن العرس «العودة»:

لن تتخيلي كم أبهجنني ما نقلته لي، كم هو رائع أن ننقل شوقنا وإرادتنا وإيماننا بالعودة لحالة ملموسة ومختارة بدقة. التراث الذي أعلنته صديقتك يقول إنهم لن ينسوا، لن يتنازلوا، لن يتوقفوا عن الأمل والمحاولة والتدفق. هذا أسلوب راقٍ في تذكير آخرين نسوا ربما، وآخرين ركنوا لواقعهم، وغيرهم الذين لم يعد أمر البلاد وتراثه وأخباره تهمهم. حين كانت نكبة الـ٤٨ وجاع الناس باعوا حتى ملابسهم الشعبية، وصار الإسرائيليون يشترونها، مسجلين أحد أجمل أثواب بيت لحم «ثوب الملك» في موسوعة عالمية، على أنها تراث إسرائيلي، وأنه دليل على ارتباط جذري بالأرض.

ما فعلته مريم وعريسها مقاومة أخرى يا تيماء، مقاومة عملية.

عن البلاد:

انتهت الانتخابات فعلاً، وجاءت النتائج كما توقعت لصالح حركة حماس. كل المعطيات كانت تشير بالبنان إليها، لكنني أبداً لم أتوقعها كبيرة وساحقة بهذا الحجم.

فالفلسطينيون اليوم جربوا المفاوضات التي لم تُعد لهم أرضاً أو قدساً أو مهجرين، كما أنها لم تفتح حاجزاً أو معبراً. بينما يتغير الأمر كله إن كان عند الحديث عن أسير بيدنا، أو عملية استشهادية. هذه الحركة كسبت ما كسبت لأنها على الأقل حاكت ما يريده الفلسطينيون وهم مستعدون للتوقيع عليه جميعاً «لا للاعتراف بإسرائيل»، كما أنها لا تطبطن على يد من يحملون السلاح لأعدائنا ثم يتبادل معنا القبل.

لا أعلم يا تيماء ما الذي ينتظرنا كشعب. وهل تستطيع حماس الحركة المقاومة، أن تمثل دورًا سياسيًا، هي التي كانت حركة عسكرية منذ النشء؟
هنا الرهان.

وأظن أن الوقت كفيل بالإجابة عن أسئلة كهذه.

على صعيد الرسوم المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، فإن علينا أن نبذل ونغير. أن نحاور كي نوصل ما نريد. ليست المقاطعة المعلنة الآن وحدها قادرة على التحدي، نحن في تحدٍ أخطر من ذلك.

تحدي العقول والثقافة والفنون.

وإن علينا كمسلمين أن ننتمي لأنفسنا على الأقل.

لديّ مشروع أسعى لتمويله، سيتمكن من فعل شيء حقيقي غير هذا التخاذل، مشروع ينقل قضيتنا إلى الآخر فيجعله مفتوحًا لنقاش جيد، ونقد بّناء، فالإعلام الإسرائيلي فعل فعله في تخدير العالم الغربي، بل وتحريكه لصالحهم. أينما تنقلت في البلاد الغربية، فإنهم لمحض معرفتهم بأني فلسطيني، يقفزون للسؤال: لِمَ تقتلون الأطفال في إسرائيل؟

إن سؤالاً كهذا يجزّ داخلي ويشطرنني. مع مَنْ الحق برأيك؟ نحن أصحابه، فلم ما يزال الإعلام العربي هادئًا، لا يزيد إلا من القنوات الغنائية الخليعة، والأفلام التي لم تفعل سوى النفخ في قربة مثقوبة؟

إنني أسعى، لإعلام مختلف، بلغتهم، لا أقصد الإنجليزية أو الفرنسية وغيرهما، ولكن بطريقتهم التعبيرية، وأسلوبهم الذي يفهمونه.

تيماء..

ثمة شيء في حوارنا على المأسَجَر، شيء يريد أن يقول ما لا أقبله، لا أعرف.

سأكتفي بالقول إن ما أرتضيه لأختي هو حتمًا ما أرتضيه لك. لعلني مخطئ في هاجسي. أيًا يكن، فقد يريحك هذا.

كنتُ سأخبرك عن أمنيّتي، لكنني أرى تأجيل ذلك، حتى أسمع منك ما أردت. فأمنيّتي -على اتساعها- مكونة إلى أن تحكي ذلك القلق وتنزفيه لآخره، لا أريد أن يبقى منه شيء.

بالنسبة لنصّي «شقائق النعمان» فسأعترف أنني انتظرت أكثر مما وصلني. لا أفترض أنك ناقدة، هذا آخر ما يهمني. كنتُ أريد رأيك كإنسان فقط. صحيح أن ما وصلني جميل ويسعدني، لكنني من ذلك النوع الطامع بالمزيد.

أما نصك فهو دَبِق. كنتُ فيه متصالحة مع نفسك، ومتوحدة معها في ضرورة تكاتف الجهود للوصول. الحواجز كانت وما تزال تعطلنا عما نريد، لكنهم حتمًا يريدون أكثر من ذلك -كما قلت- وهي لفظة ذات بُعد فعلي. وأوافقك الرأي في أنهم يتعبوننا ثم يقدمون القليل الشحيح، ونأتي نحن ببلاهة لنحتفل بما حدث من تقدم في قضيتنا.

عن لغتك فقد كانت واضحة، وسلسة وممتعة، غير أنني أرى أن تحاولي تعميقها أكثر، وإبدال كلمات بكلمات أقوى وأكثر ملامسة لواقعنا. هنا نحن محتاجون لكل سلاح. واللغة سلاحنا غاليتي.

وهذا مثل بسيط خارج نصك. يكتب أحدهم ليصف الرغبة الهائلة في الماء قائلاً: عطش. بينما يمكنه إبدالها بشيء أقوى ويصف درجة أبعد من الرغبة العادية بالماء، ليقول: ظمأ.

هذا لا ينقص من قدر نصك الشهى. على العكس.

الآن أقرأ رواية «باب الشمس» للكاتب الجميل إلياس خوري. تعالي نتقاسم الآراء فيها.

الباقى سأخبرك به فى حوار على الماسنجر قريب.

كونى بخير.

لؤي

ألملم الكلمات.

قد أستطيع قول شيء ما لاحقاً.

الآن أرغب بالنوم فقط.

أريد أن أحلم.

أن أمسك حبال النوم، وأشد الأحلام، فتسقط فوقى، لترويني، لعلى أرتوي.

١١ مساء

-٣-

أنت لم تنم.

ما الذي يقلقك يا رجل؟

طوال الليل وأنت تتشظى، وتعدّ أحزانك وهمومك وآمالك القديمة. كنت تعدّ
فُتاتك.. فما الذي حدث كي تفعل؟

قررت أن تقول لها كل ما تريد دفعة واحدة: ستخبرها أن والدها أعطاك
أوراقه قبل أن يموت، أنه تألم، ومات من القهر. وتود لو تبوح بشيء غريب
تحسه، شيء من البعثرة والضياع.

لقد انتهى الدوام.

ستمشي معها، وستريها الملتقى الثقافي الشبابي، وستعرض عليها المشاركة
في ندوتك. خططت لذلك، وربطت على قلبك وحملت أوراق والدها، شعرت
بقلة جدوى مطّ الواقع، هي التي تبحث عنه كما لو كانت إكسيرا لحياتها
القادمة. عنيدة «وراسها يابس»، ولن ترضى إلا بالحقيقة كاملة.

كنت تشعر بحالة اقتراب وهي قربك تسير على مهل، كنت تشعر بحرارتها.

سألتك حين أشرتَ إلى الملتقى الثقافي:

- وماذا تفعل في الملتقى الثقافي؟ أقصد ما طبيعة نشاطك؟

- هناك ألقى محاضرات في حقوق الفلسطينيين. أظن أن معرفة كل شخص بحقوقه كما واجباته تحميه من الانتهاكات المستمرة، خاصة كشعب يعيش في أرض محتلة.

كانت ملامح الإعجاب تتفتح في وجهها الذي اختلست منه نظرة مبتسمة. عدت بنظركَ إلى شارع مكتبة البلدية، فخرج منها عُمر. تهلل وجهك على نحو مفرط، نظرتُ تجاهه. فلما عانقك بحرارة، ابتعدتُ خطوتين عنكما. دوّرت عينيكَ تبحث عنها، فاقتربت قليلاً، فقلت:

- هذه حنان يا عمر. أخت أسامة. أسامة جرير العيسى، أتذكره؟

- آه، طبعاً أذكره. أهلاً سيدة حنان. اسمي عمر القاسم. تشرفت بمعرفتك.. هل أسامة في البلاد؟

- لا، ما زال في أمريكا، سيناقش الدكتوراه ويعود خلال الشهر القادم.

- ممتاز، إجازتي لشهر ونصف. قد أراه. هل هاتفه كما هو؟

- نعم. تسعدنا رؤيتك سيد عمر.

التقطتُ عيناكَ عيني عمر وهما تجوسان الطريق بينها وبينك. وهما تلقيان نظرة أخيرة نحوها، فتدفقت الحرارة إلى وجهك، النظرة التي كانت تتفحص يديها.

فلماذا خفت وأنت تعلم كم هو محترم؟

طيب، طيب.

لا داعٍ لكل هذا القلق، ولا للهواجس المريضة. أعترفُ أنني خِفتُ من عُمر لأنه إنسان، إنسان من الداخل كما في الظاهر. كان مهذبًا جدًّا، ورائعًا.

أهذا أمر مخيف؟ لأنه كذلك عليك ألا تخاف أبدًا.

وأنت؟

اذهب لأمك واجعلها تمسح على رأسك.

لستُ صغيرًا يا قصي.

ورغم هذا فأنت تحتاجها. أوه! ستخبرني عن جارتها الحلوة التي زارتها.

بسيطة، أخبرها أنت عن حنان. أنك مقتنع بوحدة. ثم إنك مقصّر مع ابنتك، مقصّر جدًّا. لم تشتري لها الهدايا منذ زمن، ولم تأخذها -كما تحب- ولو لمرة في الأسبوع لتناول البوظة، أو وجبة سريعة، ولم تجلب لها فستاءًا ما. الأم غير يا قصي، عليك أن تقر بذلك. وصبا تحتاج أمًا. حنان طيبة القلب ويمكنها أن تكون كذلك.

ههههه، نتحدث كأنما هي ملك يديك، وما عليك إلا أن تختار اللحظة فقط!

لحظة!

هل قلت أنك مقتنع بحنان؟

من أين أتت هذه القناعة يا غبي؟

الأفكار تجيء وتذهب.

أليست هي ذات الأفكار التي جعلتك ترفع جؤالك لتقول لها: أريدك؟

فما الذي قلته يا شاطر؟ «حنان، أنت بخير؟/ أردتُ الاطمئنان!»! ما الذي ستقوله عنك؟ كنت طوال اليوم معها، لقد بدوت كمراهق.. فقدت قوتك، ووهنت.

ولما اعتذرت عن إزعاجها، أجابتك بعقلانية ستقضي عليك:

- بالعكس، كنتُ أريد الاتصال بك، نسيت أن أسألك عناوين أو هواتف أصدقاء والدي: أبو عمر، والمصري، وأبو خالد.

- ولم تريدنا عناوينهم؟

- سألتُ جارتنا عن الأشخاص الذين زاروا والدي مؤخرًا، أنت وهؤلاء هم من كانوا. وأنت لا تريد أن تحكي، أليس كذلك؟

- لماذا تصرين على نبش شيء فات؟

- ليس صحيحًا، هو لم يُفْتِ والدليل أن أشخاصًا دخلوا بيتي وعبثوا به قبل أيام، على الأقل أدرك شيئًا من الحقيقة، أنا لا أفهم سبب خوفك من إخباري، ألا تثق بي؟ ثم إنه والدي، والدي.

وأجّلت الكلام للصباح، رغم أنك أخذت أوراق والدها معك مذ كنتما في المكتب، تعكر مزاجك فغيرت رأيك.

مزاجي وتبدو كالأطفال.

فهل طمأنتك جملتها الأخيرة؟ «سلامي لك وللصغيرة ولأمها». أيروق لك أن تفسر صلابتها بأنها لا تعرف أن أم الصغيرة... أهي صلبة فعلاً أم أنها صلبة إن لم تتصرف كما ترغب؟!

عيناها متوقدتان.. اعترف.

الساعة تعدت الثامنة صباحًا وأنت في فراشك. لا رغبة لديك في شيء أكثر من النوم مرتاحًا.

لكنك الآن غير مرتاح. تعب الجسد يجعلك تغفو، لتوقظك الروح القلقة المرهقة.

نم. أغمض عينيك ونم. لن تسأل عنك حتى.

صدقني ستسأل عني. لا تهرب يا قصي. إنها الحياة التي لم تعطها ظهرك مرة.

أهه، كما قلت. انظر جيدًا، ها هو رقم مكتبك على شاشة الجوال الصغيرة، يبرق في الظهور مع رنة الجيتارة الهادئة.

- صباح الخير أستاذ قصي، تأخرت وهناك زبون ينتظر من ربع ساعة ويرغب في الاستفسار عن موعد قدومك.

- طيب، سآتي بعد خمس دقائق فقط، دعيه ينتظرني.

قل لي من المذنب الآن؟

تأخرت عن عملك ولم يسبق أن فعلت.

قالت صباح الخير، ولم ترد حتى.

لكنها قالت: الزبون يسأل. وهي؟ ألا تقلق عليك؟ رأيت، لن تسأل لولا أن الزبون سأل.

أنت تهدر وقتك يا عزيزي. ما رأيك أن تقترح عليها بثّ أشواقها؟ ما بالك؟
اعقل! استمع لأمك وتزوج تلك الجامعية في سنتها الأولى. افعّلها. ألم يقل
حسام حين قرر أن يخطب:

سأتزوجها صغيرة، هذا أفضل. أعجنها على راحتني، أشكّلها كما أشاء. لن تقول
لا، أو كيف، أو لماذا؟ ولن تزفر زفرة حارة لأجل الماضي المعجون بالحب
المفتقد. ستراني ولن ترى غيري في الوجود. سأكون الأفضل دون مقارنات
مع آخر، حتى لو كانت غير معلنة.

وسألك: أليس هذا أفضل يا قصي؟

لم تقف معه وتصفق له، جاءت كلماتك صفة. فكيف تريد اليوم أن تناقض
نفسك؟ يومها قلت: رجل مثلك عليه أن يبحث عن فتاة ناضجة لا العكس.
أنت محاضر في جامعة مرموقة، ويتوقع بالضرورة أن يكون معارفك
وأصدقائك على نفس المستوى الثقافي. ولكي تكوّن علاقات اجتماعية

ناجحة ستحتاج لامرأة ناجحة وناضجة. لا تقل إنك ستُعَلِّم تلك القادمة والتي عمرها قد لا يتجاوز الخامسة عشر. رغم كل ما ستقوله، ستبقى طفلة. وإن طريقتك هذه في الاختيار ما هي إلا هروب.. إنك تخاف، تخاف فقط. تحدث كثيرًا بعدها.

ولم تقل شيئًا.

فهل حنان ناضجة ومثقفة لتليق بك؟

هل يكفي أنك رأيته في يومها الأول تقرأ في كتاب أو دفتر أسود خلال فترات راحتها؟

أو أن تسأل أسئلة تعجبك. أسئلة تنزّحراكًا، وفضولًا، ورغبة بالمعرفة؟

وهل يكون القلق، كلمة أخرى، بمعنى ربيع؟

-٤-

الأحد: ٥- فبراير ٢٠٠٦

حاولت كتابة رد، عبثًا.

أشياء كثيرة مشتتة على الرغم من وضوح الصور والكلمات.

هل كنتُ معرأة إلى هذه الدرجة أمامه؟ أم أنه ذكي ليلاحظ خوفي من...

«ما أرتضيه لك، أرتضيه لأختي» ألا تعني أيضًا أنني كأخته؟

لماذا أحاول إقناع نفسي بذلك؟

لم أكتب أي حرف.

اكتفيت بالصمت؛ شعرت أن أي كلمة ستفتك بي. إنه يعرف ببساطة كيف أفكر وأقرأ وأحكي.. يعرف شكوكي، وهذا يكفي كي أقول إنه يعرفني، ولو وهماً.

مشيت في شوارع البلدة القديمة حتى تعبت رجلاي. خرجتُ منها بعد أن أكلتُ الكعك بالسهمسم الذي أصرَّ صاحبه أنه قادم من القدس صباحًا، رغم التشديد على الحواجز. شربتُ قهوة مُرّة بينما يتناهى إلى سمعي صوت سائقي الحافلات الصغيرة وهم ينادون على المتجهين إلى حوارة، وبائع الخضار يروجون بضاعتهم بأصواتهم: «بندورة، خيار، تفاح، يلا يا برتقال، كيلو الجوافة بعشرة شيكل بس، عالأفوجادو يا مشتري»، الكثير من الأصوات التي تضاربت في النهاية لتنتج خليطاً من الحياة. تابعت المشي حتى وصلتُ لكشك كتب صغير، لم أجد من بين العناوين ما ينادي علي: أنا هنا.

دلفت من باب صغير يؤدي إلى مكتبة عامة، في أحد الشوارع الضيقة، لأجد رواية باب الشمس.

لَمَّا عدتُ وأنا أحملها بين يدي، لمث نفسي كثيرًا، إذ لم أصرَّ لا إراديا على دفن روعي في تفاصيل لؤي؟ أي تفصيل يرد في رسائله؟ الأنبي بها بدأتُ أحياء؟!

باب الشمس.

آه! ثم ماذا؟

ما الذي أفعله بنفسي؟

ما الذي يحدث لي يا لؤي؟ ربي يسامحك.

السادسة مساء

نمت واستيقظت.

كانت جمانة قد أشعلت الراديو بصوتٍ عالٍ. نظرتُ إليّ وهي تغمزي: أحب
هذه الأغنية؛ اعذريني.

وعادت لتشغل شفاهاها بكلماتها، دارت في الغرفة كثيرًا. صرختُ: توقفي..
سيصيبني الدوار.

وما له لو أصابك! قالت لي، فابتسمتُ.

- شكله الوضع عندك متأزم! قلتُ.

- لا والله، بس حلوة ها الأغنية. شوفي: قد الحروف بحبك. ها الكتاب بجي
كم صفحة؟ شوفي كم حرف! هي بتحبه هيك.

- وإنّ، كم بتحبيه؟ سألتُ بمكر.

- بلشنا نلخبط. خلينا بالخط المستقيم. قالتُ، فضحكُ.

الخط المستقيم يعني ألا نحب.

- وين سرحانة؟

لم أجبها وبدأت صفحات الرواية الأولى.

كانت رائقة، فشرعتُ أقرأ لها أجزاء خطيرة منها. كنا سعداء.

عند منتصف الليل من نفس اليوم

-0-

أتظنين أنها سطور تيما من فعلت فعلها فيك؟ فمنذ جاءت وأنتِ تصبحينها.

غضب عنك، روحك تتنفس كلماتها، دون قصد.

متورطة.

شيء ما فيها يجعلك تشعرين أنها تسطّرك، تسطر مستقبلك، وأحلامك الصغيرة.

لم تجتهدي لتفسير ذلك، ولن تفعلي أيضًا.

دفتر تيما ذكرك بالانتخابات، ومن ثم بالرسوم المسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام، موقفك كان الصمت أيامها.

لم تفكري في أن عليك التحرك بأي خطوة في أيهما، بدوت خارجهما، وخارج العالم.

الآن عرفتِ ما الذي لم تحاوليه مع سميح؟

أن تتسع آفاقك لتناقشي، لتقرري وحدك ما تريدين.

حتى عندما طلبتِ ورقة الطلاق سألك: أهذا قرارك أنت؟ ومنحك إياها بعدما رددتِ بقوة: نعم.

ألن تنسي سميح؟

لا أريدك أن تنسيه، أريدك أن تكوني يقظة أمام أخطائك.
أنتِ أخطأتِ.

بعدما نطق اسم ريماء، لم تجري أن تتصافح القلوب.

الألم الذي لحقك كان موجعًا.

لا تكذبي.

جاء مرّات ليحاورك، لكنك أغلقتِ أذنيك، حاول محاورتك في مشكلاتكما،
في السياسة، في الاقتصاد، وضغط على أعصابه وتحدث في الموضة، عساه
يجد أي ثقب يدخل منه، لكنك أغلقتِ أبوابك وقررتِ الصمت.

ما الفرق بينك وبين شعبك المسكين إذن؟ وكل شعبة تغلق أذنيها أمام
الأخرى!

أتذكرين أي شيطان ركبك أيامها؟

وضعتِ صورة رجل لم تعرفيه خلفية لهاتفكِ مع كلمة «حبيبي»، وألقيته في طريقه.

بلهاء، وناقصة عقل.

عليكِ أن تعترفي، لا لشيء بقدر ما سيشكل وعيًا ضروريًا. أنتِ جزء من مشروع طلاقكِ، وتحملين الجانب الأكبر.

والآن، أما تتمنين رجلًا يشقّ غلاف هذه الوحدة ويمزقها شقفة، شقفة، فلماذا أراكِ تردددين يا حنان وقصي قادر؟!

ألا يحق لقلبك الذي لمس ما لمس في عيني قصي أن تمنحيه فرصة البقاء على قيد الإحساس؟

حين جاء صباحًا لم يكن على طبيعته.

قابل الزبون المنتظر، ثم لم يحدثكِ. لم يخرج حتى من مكتبه! شعرتِ أنه يتحاشاكِ لا أكثر. «ستصنعين فنجان قهوة كما يحب، وستسألينه عن حاله. لم لا تبادري؟» فكرتِ. ولما دخلتِ، بدا منشغلًا بالأوراق المنثورة أمامه، وضعتِ الفنجان، واستدرتِ ناحية الباب.

شعرتِ بخيبة تتسع كبقع زيت حين عمّ صمته المكان. ولما اقتربت من الباب، ناداكِ باسمكِ، أخرج ذات الصوت الذي تتوهين فيه، حينها عرفتِ كم كنتِ تنتظرين!

- حنان، أنا وحيد جدًا.

لم تعرفي أي رد هذا الذي يأتي على شكوى ملتبسة كهذه. فبأي قوة جرؤت يا حنان جرير العيسى على سؤال أحقق كذاك؟

- وزوجتك؟

لما شاهدت عينيه تلتمعان، عرفت.

- زوجتي ماتت منذ زمن.

فكيف؟ كيف جاءت الكلمات متأخرة لتقدم تعزية مواربة وخجولة؟

- يرحمها الله. صعبة هي الحياة.

اتسعت عيناه ودفع بالكلمات:

- في العمر ما يستحق الحياة، صعبة الحياة بالوحدة يا حنان، لكني آمل أن تكون مرحلة مؤقتة لا أكثر.

وصمت، استدركت قبل أن يقفل باب القفص إلى آخره:

- سيكون، حتمًا.

ابتسمت، وخرجت.

اعترفي أن إحساسًا غامرًا يشع الآن بالأسرار.

«أيعقل يا حنان؟ من كلمتين مواربتين تحملان ألف تفسير؟» تناجين نفسك غير أن صوته عاد وناداك: أتحبين المشاركة في محاضرة المنتدى الثقافي

الشبابي؟

وقلت نعم.

وبعد كل هذا، وقصي قد ألقى محاضرة في «الحوار مع الغرب»، تشعرين أنك أخيرًا، لم تخذلي نفسك. كان صوت قلبك عالٍ مع كل حرف ينطقه.

كان النقاش بعد المحاضرة متناغمًا، وحين نظر إليك مستحثًا لأي حوار أو إضافة، قلت:

«أظن أن الرسوم المسيئة للرسول أيقظت فينا رغبة في إفهام الغرب من نحن، وما نريد قوله للغرب.

كنت قد شاهدت فيلمًا عربيًا معنويًا باسم الإرهابي، وكنتُ أتساءل لِم لم تكن لنا مصطلحاتنا؟ فحتى كلمة إرهابي ما هي إلا امتداد لرضوخ حقيقي يبتدئ بالمسميات أولاً.

هذه الأفلام رغم عروبة مصدرها، ورغم صدورها من مناطق تعي تمامًا ماهية الإسلام لكنها كانت جاهلة وغريبة عنه.

فقد كان أشبه بإعادة تكرير ما قاله الغرب عن الإسلام، بل وإلصاقه بالإرهاب، الإسلام لم يكن عمليات قتل وتدمير وتقوقع على الذات يومًا، وليس أن تنفتح على الآخرين لدرجة الانحلال، على العكس، هو دين وسطي. في الفيلم شوّه الإسلام، وبدا كمرض معدٍ على الجميع التخلص من مسبباته لئلا ينتشر، والأسوأ من كل هذا أنه علق بأحزاب سياسية أيضًا.

ومن هنا، علينا ابتداءً أن نفهم ما هو الإسلام كي نحكي عنه ونتحاور مع بعضنا باسمه.

مثله مثل قضيتنا الفلسطينية، علينا أن نفهمها جيداً، ومن ثم، نحاور بها الآخر. فثمة مداخل من الجهل، تجعل منا صِفراً فجأة أمام الآخر».

حين نظرت في عيني قصي، ملأهما رضى جعلك تندمين على التجاوز الذي لم تحاوليه وحاوله سميح طويلاً يا حنان؟!

والآن قلولي: أتحبين قصي يا صغيرة؟

-٦-

الاثنين: ٣٠- فبراير

الأيام مزدحمة بالأعمال. ولا وقت أمام هذا الفصل الدراسي الدسم.

وصلني منه، ما دَوّخني.

علقتُ هذه الرسالة فوق سريري، علقتُ القصيدة.

To: Tayma@hotmail.com

From: loay_writer@hotmail.com

Date: 30\feb

subject: ماذا بعد

بدون عزيزتي..

فأنا عاتب عليكِ، وأكثر.

قلت: يا رجل انتظر.

وانتظرت.

انتظرتُ حتى تخمرتُ شوقاً.

فغيابك طال، طال يا تيماء.

هذه قصيدة «إلى ولدي» للبياتي، حين أتلو حروفها، أشعر أن نجمًا قريبًا،
يوشوشني نورًا، وفجرًا على الرغم من الحزن الذي قد يكون. حتمًا هو حزن
مستفز لفرح أكبر. تذكرني ذلك وأنتِ تقرئينها، ولن أزيد بحرف واحد.

«٢»

مدن بلا فجر تنام

ناديت باسمك في شوارعها، فجاءني الظلام

وسألت عنك الريح وهي تئن في قلب السكون

ورأيت وجهك في المرايا والعيون

وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد

وفي بطاقات البريد

مدن بلا فجر يغطيها الجليد

هجرت كنائسها عسا فير الربيع

فلمن تغني والمقاهي أوصدت أبوابها؟

ولمن تصلي أيها القلب الصريع؟

والليل مات

والمركبات

عادت بلا خيل يغطيها الصقيع

وسائقوها ميتون

أهكذا تمضي السنون؟

ونحن من منفى إلى منفى، ومن باب إلى باب

ونزوي كما تزوي الزنابق في التراب

فقراء، يا قمري نموت

وقطارنا أبدًا يفوت

سلام

لم أقو على شيء. فالكلمات فوقى، وتحتى، وعلى جانبي.. الكلمات
تحاصرني، تحاصرني..

سألتنى جمانة عن القصيدة، وعن لهفتي، وعن فرحتي البائنة. فلم أجبها
بشيء.

لكنى عرفتُ أنى كنتُ سعيدة جدًا.

إنى أضحك، وأترك لقلبي أن يحلق خارج الغرفة والأسوار.

الخامسة مساء

-٧-

لم تجرؤ حنان قبل أن يمنحها قصي ذلك المغلف البني على نخز الذاكرة، رغم
كل ما ظنته ذاكرة، فقد حضر ما جعلها تدرك أن للأحداث القديمة طعمها
ومرارتها وصوتها، وأن ما كانت تهذي به طويلاً ما هو إلا نعيم حقيقي، مهما
بدا الألم خلفه عظيمًا، مقارنة بما قرأته. حضرت كلمات والدها.

تربعت على فخذيها، جادت عليها ببكاء طويل.. لم تستطع أن تمدّ لها صدرها
فتسكتها. لقد أدركت ما لم يسبق لها أن منحته جزءًا -ولو بسيطًا- من
تفكيرها.

كل ما أكتبه الآن، هو خلاصة ما فكرتُ به، أنا جرير العيسى، أثناء سجنى
الأخير، من ١٠ إلى ١٧- ديسمبر ٢٠٠٧.

رأيتها.. فقبض قلبي.

شعرت أن شيئًا سيحدث، غير أنني طردت الفكرة المتشائمة من فورها،
وأكملت طريقي إلى بيتي في تل اللوز. أنزلي السائق صَجْرًا عند مفرق
الطرق بين بيت الخالدي واللّحام، وجدتها هناك، عند المفرق، نظرت ناحيتي،
لكني قتلت النظرة بكسرهما. النظرة الأولى التي سقطت على ملامحها لم
أكررها، غير أنها كانت تفي بالكثير.

كان عليّ أن أمشي أمتارًا قليلة لأصل إلى بيتي. ولما وصلتُ الزقاق قبل
بيتي، تفاجأتُ بأحدهم من خلفي، وما هي إلا ثوانٍ حتى أصبحتُ معصوب
العينين والفم، وتزجني الأيادي فيما بينها ككرة، ثم أتلقى ضربًا من كل اتجاه.
جسدي الضئيل لم يستطع المقاومة، فأخذوني. كانت الدنيا سوداء فقط، لا
أذكر أي لون. تخبطتُ وأنا أحاول أن أعدّ أعدائي لحصر من يكون هؤلاء، غير
أنني لم أجد. كانت علاقاتي لا تتجاوز سوء التفاهم هنا أو هناك، ثم أنسى
الأمر برمته.

رُميت كقطعة لحم نتنة في غرفة مظلمة، بعد أن فُكَّت عصابة العين. للحظات
ظننت أنهم مستعربون، أقصد تمامًا مجموعة من الجنود الإسرائيليين الذي
يظهرون بملابس مدنية، لكن خيبة أمل كبيرة قتلتني حين عرفتُ أنهم
فلسطينيون مثلي.

عدتُ بذاكرتي لثمانى سنوات من السجن سبقت، كانت كلّها ثورة وتحديًا
ووجودًا وانتماءً، كنا نصنع من السجن حياة تكفي كل من في الأرض. نقرأ
ونكتب ونرسم ونتبادل النكات وندرس ونتناقش في الكثير من الكتب التي

نمررها بيننا. كنا نزعل ونرضى، نغضب ونفرح.. في بداية ذلك السجن، شعرتُ بالاختناق، لكنني بعدما بدأ التحقيق معي تشكلت دائرة كبيرة من المواجهة، لتُخرج حالة تفوق ما تخيلتها، رغبة شديدة في البقاء. ولما سمعتُ المؤبدات التي حُكمت عليّ، أدركتُ أنها حياتي، وعليّ أن أحسن التصرف. كنا نفعل كل شيء مؤمنين بوقت نخرج فيه للهواء والشمس دون سياج وحصار. أما اليوم، بعد أن خرجتُ من سجني الثاني، دون أن أدرك سبب دخوله، شعرتُ أنني سأموت.

وُضعت في قبو مظلم بادئ الأمر، تحسست طريقي إلى مكان أجلس فيه. كانت أرضيته مبللة بالماء البارد، فاستسلمت. دقائق لم أستطع فيها أن أبصر أو أسمع، فاشتعلت حاسة الشم. كان ثمة رائحة متناثرة لم أستطع لملمتها البتة بين روائح كثيرة، حاولت فصلها واحدة واحدة: بنزين، زيت مقلي، مرقة دجاج، غائط، بول، دم، عطر خفيف. شعرتُ أن الخدر في أطرافي بدأ، ما لبث أن امتدَّ إلى كل جسدي المبلل. لم أعرف كم مرَّ من الوقت، لكن ما أقلقني أن صورة تلك المرأة عادت تمامًا، بذات النظرة التي رمقتني بها عند المفرق، قبل أن أسجن بقليل.

أذكر أننا استأجرنا غرفة في بيت زوجها أبو عمران أيام حرب ٦٧، لم تكن تتجاوز خمسة عشر عامًا، جميلة وفتية. ربما كانت من عمري. كبرتُ بينما أنجبت بنتًا وولدًا، أصبحتُ شابًا فارع الطول، بينما تركها زوجها محاربًا في الأردن مع الجيش العربي. كنتُ أحضر لها ولأولادها الحلوى كلما سافرتُ إلى جامعة بيروت. لا أذكر متى أخذت تدلق الماء على الساحة أمام غرفتنا منحنية بثوبها المرفوع، ولا متى بدأت أُمي تحذرني من النظر ناحيتها،

فأطلق بصري لأعرف أي شيء فيها يدعو للخطر. هل أيقظت في جوارحي
أحاسيس مبهمة وواضحة معاً؟! لا أعرف! لكني أعرف مشاعر الغضب التي
نالت مني في الوقت الذي دخلت البيت مستأذناً، لأفاجأ بأبيض جسدٍ باهٍ
تغسله بماء الوضوء. ذلك الأبيض زلزلني. خرجت يومها ولمحت شابين
ينظران إليها من على سطح منزل قريب ومهجور، فار الدم فتشاجرت معهما،
ثم عدت إليها فضربتها. حين خرجت أمي على صوتها، شعرت بالخجل،
وذهبت إلى صديق لي في قرية مجاورة. عدت مطأطئ الرأس، كانت أمي قد
جهّزت غرفتنا، مانحة المفتاح لصاحبه البيضاء. وأجر والدي لنا غرفة أخرى
عند أبو مالك، حيث أغلق باب الغرفة المطلّ على بيتهم، وجعل بابها ناحية
الشارع. من يومها وأنا لا أقوى على النظر في وجه أمي، كنت أخشى أي نظرة
تعاقبي بها، أو أن تنزل كلمات لم أرغب في سماعها.

بعد الحادثة بشهر سألتني أمي إن كنت أرغب في الزواج، فلم أتكلم.

في موسم الزيتون، عملنا في أرض أبو مالك، نخرط الزيتون، ونحرق الأرض
بعد ذلك، على أن يمنحنا رُبْع الناتج من زيت الزيتون. في ذلك الموسم
أحببت، جاءت بنت أبو مالك التي لم يسبق لي أن رأيتها، لتساعدنا، جاءت
البنت ذات الضفائر الذهبية والثوب المطرز بخيوط من حرير، فوقع.

طلبتها عند نهاية الموسم، فأصبحت شريفة امرأتي التي أعود إليها كطفل
شقي لتلمّني وتمسح روعي بالعسل.

وصرتُ أبا أسامة. تحوّل اسمي إلى أبوة تركض حولي بكاء طفل ولعابه،
كلّما نادوا عليّ شعرت بيده الصغيرة تسحبني إلى بستان من الزهر. ثم جاءت

حنان بعده بسنتين، كنتُ قد بدأتُ العمل في الجريدة، بشهادتي لأول مرة،
وحين كبرا قليلاً فقط، كنتُ قابلاً في السجن، فلا أذكر إلا دموعهما ولعابهما
وبولهما.. رغم أنهما كانا أكبر من ذلك يوم سُجنت.

أما السجن الثاني فهو مختلف.

ليس لأنني اعتدتُ السجن وأصبحت الجدران مهما ضاقت عادية، ولا لأن
الهواء والضوء ممنوعان تماماً، إلا من شحيح لم يستطيعوا منعه، بل لأن هذا
السجن -رغم أنه لم يستمرّ إلا أسبوعاً واحداً- بدا مؤلماً أكثر من ثماني سنوات
كاملة.

كيف يمكنك ابتلاع فكرة أن يكون صديقك وأخوك عدواً مرة واحدة؟!

وكيف ستتمكن من الحديث عن الاحتلال ومأساة سرقة الأرض والتراث
والتفاصيل الدقيقة، وأنت ترى أنك تُسرق وتُطعن من خلفك، في أكثر الأماكن
أماناً بالنسبة لك؟

كيف يمكنني أن أنسى ما حدث؟

-٨-

الأحد: ٢ - مارس - ٢٠٠٦

To: loay_writer@hotmail.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 2\march

subject: عاتب إذن

عزيزي..

سعيدة أنا بعتابك، فالعتاب أيًا كان هو في النهاية رغبة في الوصال لا العكس.
اعتب، فستجد أذنًا تسمعك.

علّقت القصيدة فوق سريري؛ أردتُ أن أشعر بالكلمات كل لحظة.

هناك خيال غريب لديّ يقول إن الكلمات عندما ننام تنهض، وتعزف موسيقى
حضورها. ونحن في المنام نسمع بشيء منها.

فقد حلمتُ الليلة بكلمات القصيدة ذاتها ترقص تحت ضوء من اللون الأزرق.
أطلب تفسيرًا منك إن كان لك في تأويل الأحلام من شيء.

تعرف؟

هذا الحصار المعلن ضدنا غريب جدًا ولا منطق له.

على ماذا يعاقبون هذا الشعب يا لؤي؟

أنا لا أفهم؟

هم قالوا انتخابات، وحدثت كما يريدون، وبكثير من الخبراء والمراقبين
الدوليين.

هم أعلنوا النتيجة واضحة: حماس فازت.

فلماذا يعلن علينا الحصار إذن؟

على أي الأشياء هذا العقاب؟

أشعر بأنفاسي مختنقة حين أفكر في الأمر.

بكل الأحوال..

لديّ هذا الأسبوع فرصة للتنفس، فقد انتهيت من الامتحان الأول. يمكننا أن نتحدث على الماسنجر.

بصراحة: مش عارفة أردّ على شي من رسائلك، سأنتظر أن نتحدث.

سلام مؤقت.

ووجدته.

كانت صورته قد أُدرجت لأول مرة على أيقونة الماسنجر، لم أتحدث هذه المرة أيضًا. لم أبدأ لأنني وقفت أمام الصورة متفحصة كأني لا أعرف صاحبها. أذكر أنني رأيته قبلاً في الكثير من المواقع التي تُدرج مقالاته وقصصه وحواراته. لكن هذه مختلفة جدًا، وجميلة. أحاول تذكرها الآن فلا أفجح. تعبرني لحظة ألم قاسية منحتها لنفسي وله، حين دار الحديث على نحو مغاير لما وددت قوله.

الآن أتذكر كلماتنا تلك وتعتريني الحسرة:

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

انتظرتُ رذك ولما لم يأتِ قلتُ «أتحركش» لأذكرك.

:«..»:

ومن قال أنني نسيت؟ لم أجد الكلمات، كانت تهرب.

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

ممممم، تهرب إذن!

تعرفي؟ أحببت تلك الخيالات التي تحيط بالكلمات حولك، أعجبنى هذا الهاجس. قليلون هم الذين يعطون للحرف حجمه، ومكانه الصحيح.

:«..»:

أها، لم تخبرني، ألك في تفسير الأحلام باع؟

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

بالمرة. خسارة!

:«..»:

سأبحث عن يوسف غيرك إذن.

“..أمشي كأني واحد غيري..»:

لا لا، سأحاول أن أكونه، أتركينني أجرب؟

:«..»

جرب، لنرى.

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

هذا يا ستي، ستحييك الكلمات في عوالم جديدة، وستصبحين بها امرأة
نفسك، أو...

:«..»

أو ماذا يا أفندي؟

:«..أمشي كأني واحد غيري..»:

حلوة «أفندي» هذه!

:«..أمشي كأني واحد غيري..»:

اسمعي، أريدك صريحة إذ تجيبين على سؤالي.

:«..»

سأكون؛ قل.

:«..أمشي كأني واحد غيري..»:

هل تعمّدتِ الابتعاد؟

:«..»

ربما.

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

ولم ذلك؟

:«..»

أحيانًا أود أن أخبرك بتفاصيلي، بكل شيء دفعة واحدة: ما أريده، وما أحتاجه، وما أشعر به. لكنني لا أستطيع.

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

ولماذا لا تستطيعين؟

:«..»

لأنك رجل. هناك حاجز أضعه عادة في علاقاتي مع الرجال تحديدًا. لو كنت عجوزًا لكان الأمر أسهل في التقبل ربما.

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

فهمت.

شوفي، بيننا حالة صداقة تجعلنا نتحدث ونبوح بما نشاء مع حفظ مساحة
يراها كل منا ويقدرها كما يشاء.

بيننا حالة اقتراب.

:«..»

وأي تعريف هذا للاقتراب؟

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

الاقتراب هو القرب الذي يجعلنا ننتظر الآخر لنحكي له، أن نشعر أن هناك من
يهمنا فعلاً.

لا أريد أن أُلّف وأدور، سألقي ما عندي: أحتاج للحب يا تيماء.

أريد أن أشعر به في المرحلة القادمة تحديداً، متعب أنا ومرهق، وأرغب في
الالتكأ على شخص يعاونني على الزمن، لقد كبرت. ثم إن مشاعر صغيرة في
داخلي نحوك تكبر مثلي.

:«..»

لكن ما بيننا ليس حباً!

هو إعجاب كل ما بشخص الآخر.

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

صحيح، وللدقة أكثر: إعجاب واقتراب.

الاقتراب لا يكون دومًا، هي حالة نادرة تعني الابتداء.

تصمتين؟

ربما لم أقدم الأمر بأسلوب يليق، لكنني أتساءل هل يأتي الحب وحده أم علينا البحث عنه في داخلنا، بأن ينبش كل منا ذاته؟

:«..»

الحب هو الحب، يأتي وحده دون أن نشعر، الحب لا يُبحث عنه أبدًا.

:«..أمشي كأني واحد غيري..»:

ليس إلى هذه الدرجة.

هناك في كل حب حالة بحث، بحث كل منا عن الآخر، وعن تكملة ذاته في الآخر أيضًا. أتفهميني؟

:«..»

لا أعرف.

:«..أمشي كأني واحد غيري..»:

أريد أن أعيش في الحب.

«...»:

ومن قال لك إني أريد ذلك؟

«..أمشي كأني واحد غيري..»:

ربما استعجلتُ، و...

أعتذر.

وخرج من فوره.

بقيت أحاول تجميع ما قلته واستيعابه. لم أستطع.

الآن وأنا أكتب أبكي، أبكي تلك اللحظات الجميلة التي دمرتها بكلمة واحدة، ولم أتمكن من تصحيحها.

أدرك أنني أريد أن أحبه، وأريده.

لكن، أتى لهذا الوهم أن يقترب؟

السابعة مساء

-٩-

كل ما أكتبه الآن، هو خلاصة ما فكرتُ به، أنا جرير العيسى، أثناء سجنني الأخير، من ١٠ إلى ١٧- ديسمبر ٢٠٠٧.

أثناء سجنى المرة الأولى هبطت عليّ الشهوة لكل شيء دفعة واحدة، خصوصًا كوبًا من الشاي الساخن، رغم أنني لم أكن أحب الشاي مطلقًا. صرْتُ أذكر الأيام التي جلستُ فيها حُرًا دون شاي، فأندم. ولمّا انتقلت للسجن الجماعي، صرْتُ مسؤولاً عن عمل الشاي، وحتى لا تنتهي حبيبات الشاي السحرية، كنتُ أجفف التفّل، وأعيد استخدامه حتى لا يعدو صالحًا.

ذات يوم أرسلتُ أم خالد مع شريفة زوجتي رسالة. استغربتُ بالفعل، فهي لم تكن تسلّم عليّ حتى لو كنتُ مارًا بجوارها في الشارع نفسه. قالت فيها إنها رأَتْ رجلًا يعمل في بناء بيت قرب داري، يدخل على زوجتي، ويخرج بعد أكثر من ساعة، وأن «فهمك كفاية».

لم يكن لي أن أسأل أحدًا في أمر كهذا، وأنا أعرف شريفة جيدًا، وأعرف كم هي طاهرة ونقية، أردتُ ألا أسأل كي لا أثير مزيدًا من الكلام حولها أيضًا، لكنني أخذتُ أتقلب لليالٍ طوال، في شعور أنني أفقد الكثير أثناء سجنى. خِفْتُ على شريفة، فهي تحتاج لرجل يحميها من كلام الناس، ولعلّها لا تحتمل المكوث بلا زوج طيلة حياتها بعد أن حُكِم عليّ بخمسة وعشرين مؤبدًا، فقررتُ أن أطلقها، وقد انشطرتُ إلى قطع صغيرة، وبكيت كامرأة. ولمّا حانت الزيارة التالية عرضتُ على شريفة الطلاق، فبكت وقالت سأنتظرك، وإن أخوها انتقل للعيش معها.. فعدتُ إلى زنّانتي راقصًا من الفرح.

أشياء بسيطة كانت تفرحني، كما كان يحزنني أول الأمر أي بسيط.

أما هذا السجن الجديد، فلم يطل في القبو المبلل بالماء البارد، فقد انتقلتُ بعد أن أعصمتُ عيناى إلى غرفة، صوت بابها حادّ، لم يُزيّت منذ مدة بعيدة،

وحين أجلسوني على كرسي، تحرك قليلاً للخلف، فعرفتُ أنني سأجلس على كرسي قد لا يحملني لضعف صوته. كان صوت المروحة عاليًا، ولما بدأ من أمامي بالحديث، دخلني حزن كبير. سألني:

- من انتخبت في المجلس التشريعي، حماس أم فتح؟

- لم أنتخب أحدًا، كنت نائمًا في البيت.

- لكن عندي معلومات دقيقة تقول إنك انتخبت، ثم ما هذا التقرير الذي كتبتَه في الجريدة؟ ما دخلك أنت في السياسة يا أستاذ؟ صحفي وآمنًا، لكن لشو حشر الأنف بكل صغيرة وكبيرة؟

كان يحكي أول الأمر بلهجة معاتبة وفيها كثير من لوم، كنت ما أزال معصوب العينين، وفي قلبي ألم يزداد مع كل كلمة، ثم عاد إحساس ما يطفو ويعلو. بدأ بعدها يهدد، وعندما لم أتكلم إلا على قدر سؤاله، أخذ يركلني بقدميه.

لقد شعرتُ بالقرف.

كنتُ سابقًا قد قرأتُ «شرق المتوسط» و«شرق المتوسط مرة أخرى» لعبد الرحمن منيف، لقد شعرتُ بامتداد مخيف لها، وبقسوتها أخيرًا، القسوة المختلفة عن عبور الكلمات خلال الذهن مكونة الصورة المُتخيَّلة.

انتقلتُ بعد التحقيق وسلسلة التعذيب إلى حجرة بحجمي تمامًا، لا تزيد عن جسدي ولو سنتيمترات للأعلى أو للجوانب. الغرفة التي كانت طويلة بحجم الباب، أبقتني واقفًا ليومين. كانت قدماي قد تورمتا، ورحتُ أسرح وأحاول إكمال قصصي القديمة.

حين خرجتُ من السجن الأول، كنتُ كالغريب التائه، أبحث عن أي شيء يعيد
تركيبي مع المجتمع ولّمي فيه، فجأة تشكلت الغربة، فمضيت أقاتلها. عدتُ
إلى بيتي وشريفة وأولادي. كنتُ حزينًا؛ فكرتُ في شريفة التي تنتظر رجلاً،
وعدتُ إليها دون ذكورة، فقدتُ الماء، ولم أكن أدري أي شيء هذا الذي
سيكفي لإكمال الطريق. وحين استقبلتني خجلى، متعثرة بشيء تجهله
علمت كم باعد السجن بيننا حتى كأننا أصبحنا غريبين عن بعضنا.

خيّرتها للمرة الثانية بأن أطلقها، لكنها قالت: لم أنتظر ذكراً قط، انتظرتُ رجلاً
وحبيباً يا جرير، حبيباً. فقَبَلْتُها ملهوقاً يملؤني التوق. بدت خجلى شهية كأول
ليلة قضيناها معاً عند زواجنا، لكم تمنيت يومها لو ملكتُ الماء الذي يكفي
شوقي كله لها، فلو ملكت لكنتُ أنجبت ليلتها توائم كثيرة بحجم بعدنا ذاك.

نادت عليّ امرأة من حي قريب، تقول إن أم خالد تحتضر، وإنها ستقول لي
شيئاً، فلما أصبحت عندها طلبت الصفح، أبديت استغرابي، فقالت وأنفاسها
تتقطع: لم يكن ثمة أي رجل غريب دخل بيتك أو خرج منه، لم أرَ أحداً، بقيت
أثرثر عليها أينما جلست، فلم تعد تخرج من بيتها، سامحني يا ولدي.. واحذر
أم عمران، «رح تضل وراك وراك». فصمت، كررت: سامحني كي أرتاح. لكني
قبل أن ألفظ بشيء صرخت: شايف خيط نمل ممتد من ثلاثة بلاد قبلنا،
بتلتف على رقبتني، شيلوهم عني، شيلوهم عني.

ولم يستطع أحد إزاحة شيء لم يره غيرها.

أكملت أم عمران ما بدأت أم خالد، وبعثت الكثير من التفاصيل التي تطعن
في شريفة، فهِرَبْتُ أسرتي إلى نابلس المدينة حيث أعمل.

لم أكن أنتظر أن أعود، وفي عينيّ أم عمران ذات الألم الذي شهدته يوم
مددت يدي عليها، لكنها حين نظرت إليّ للمرة الأخيرة قبل سجنني بلحظات
شعرت بوجع ينزّ من عينيها، فسامحتها.

في سجنني الأخير، علمتُ أن الفارق بين سجن وآخر يكون في القلب تمامًا،
القوة، والرغبة في التحدي، تعيش وتكبر كلما كان العدو حقيقيًا معلنًا، لكنك
في اللحظة التي تواجه جزءًا من حقيقتك وذاتك، كما في سجنني الأخير،
يتشظى فيك الألم فيضعفك. أنت تنتظر أن يكون الشعب بعموم أفكاره
وأحزابه كاليد التي تصفق بالأخرى، لكن الواقع كان مختلفًا، مختلفًا جدًا.

في تلك الفترة رحت أتمتم ثم يعلو صوتي ثم أصرخ بكلمات أحببتها من شعر
الماغوط:

الآن

في الساعة الثالثة من القرن العشرين

حيث لا شيء

يفصل جثث الموتى عن أحذية المارة

سوى الأسفلت

سأتكئ في عرض الشارع كشيوخ البدو

ولن أنهض

حتى تجمع كل قضبان السجون وإضرابات المشبوهين

في العالم

وتوضع أمامي

لألوكلها كالجمال على قارعة الطريق
حتى تفرّ كلُّ هراواتِ الشرطة والمتظاهرين
من قبضات أصحابها
وتعود أغصانًا مزهرة (مرةً أخرى)
في غاباتها
أضحك في الظلام
أبكي في الظلام
أكتبُ في الظلام
حتى لم أعدُ أُميّز قلمي من أصابعي
كلما قُرِعَ بابٌ أو تحرّكت ستارة
سترْتُ أوراقِي بيدي
كبغِي ساعةَ المداهمة

من أورثني هذا الهلع
هذا الدم المذعور كالفهد الجبليّ

ما إن أرى ورقةً رسميةً على عتبة
أو قبعةً من فرجة باب
حتى تصطك عظامي ودموعي ببعضها
ويفرّ دمي مذعورًا في كل اتجاه
كأن مفرزةً أبديةً من شرطة السلالات
تطارده من شريان إلى شريان

وفكرت في هذه الكتابة من يومها، أن تكُتب يعني أن تُشفى، أن تفهم.

حين نُقلت في اليومين الأخيرين من زنازاتي الطولية لأخرى أوسع، أستطيع فيها مدّ قدميّ وتحسس جسدي الذي تصلّب، رأيثُ شريفة في كل سهوة وقعت فيها. كانت تبدو بثوب أبيض ترقص فيه وتناديني طوال الوقت. اليوم الأخير من سجنني رأيثُ سقف السجن يُفتح لي وتهبط من أعلاه، بثوب جلال كل السقف، وجعله أوسع، وحين هبطت قربي، مدت يدها وأخذتني. عرفت أنني سأرحل معها قريبًا، فضحكُ ملء روعي.

وخرجتُ من السجن.. شعرت بالثقل في كل حركة، كنتُ مكسورًا من الداخل.

رحتُ أحاول إنهاء غربة تشكّلت واتسعت اليوم أكثر، غربة في وطن يُضيّقه أهله حتى الموت، وصرْتُ أعبّ هواءً دون جدوى. لم أرد يومًا أن أموت مغبورًا، مقهورًا، ووحيدًا، ما كنتُ أرغب في أن تتعفن ذاكرتي في السجن الأخير ذاك. ووددت لو متُّ حرًا كما كنت، بعد سجنني الأول. لكن هذا لم يحدث.

شريفة تنادي عليّ منذ آخر يوم في سجنني، تأخذني فاستجيب طواعية. إني أريد.. أريد.

-١٠-

الخميس: ٣٠- مارس

لم يبعث رسالة أو إيميل.

لم يعد يتمتم بسؤال طائش.

ولم يرجع قلبي لتلك الاحتمالات التي تمنحني شعورًا مغايرًا بالحياة.

أعترف أنني مشتاقة لحضوره بإفراط. أتذكر فلسفته الخاصة عن الشوق، أن ينتظر حتى يتخمر شوقًا.. أظنني تخمّرتُ منذ فترة طويلة، لكن لا مكان للكلمات.

بعد أيام من حوارنا الملعون عمّ صمت كبير في داخلي، ثم قلت إن الأمر لا يستحق كل هذا الحجم، وإنها لم تكن عبثية تلك الكلمة التي أفلتت رغماً.

لكن هل خرجت رغماً حقاً؟

ألا يعني ما قلته خوفاً من مشاعري لا غير؟

حاولت مقاومة الحب.

مقاومته تماماً.

وها أنا أفقر لكل شيء سوى التعب والاختناق. أتمنى كل ليلة لو أنني لم أعرفه، لو أنني لم أتعلق بالكلمات وبالرسائل، والمشاعر الفضفاضة.. لكن لا فائدة من كل هذا اللوم، أمر وانتهى.

انتهى.

الكلمة تؤرقني جداً، أكرهها على اتساع معالمها ووجودها وحضورها المقلق في جوفي.

فهل فقدته؟

فتحت الماسنجر مرات عديدة، لكنه الصمت.

تمنيت أي كلمة تُحكي، فأسمعها.

أسمعه!

لم أعرف كيف يمر الهواء عبر أحباله الصوتية ليشكل بؤرة الصوت
وارتجاجه.

لماذا تعشش الرغبة في صوته الآن؟!

لماذا تأتي كل الحكايات، عندما يستحيل سماعها؟

هل حقًا يستحيل يا تيما؟

العاشرة ليلاً

لقد فعلتها.

تواصلت مع مجموعة من الصديقات لأجد رقمه، لا أعرف إن كان ما أقوم به
يعد لبسًا/ تسرعًا/ خطأ، لكنه على الأقل نداء قلبي وحاجته، حاجته التي
أراحتني.

كنت سعيدة وأنا أبعث له رسالة قصيرة، شعرت أن الدنيا تتسع فجأة، قلت:

- سيدي البخيل جدًا:

مساء الجنون الذي يزيح هزائنا المعلقة جانبًا.

ببساطة، تذكرتك.

قلت: الموت يمازحك ليصيب غيرك يا تيماء، فمتى تستعيدينه؟

وجاء رده، لينفخ في روعي رذاذًا من المطر الناعم اللذيذ:

- ههههه. ابتسامة تليق بك سأطلقها على روعتك. لست بالبخیل مطلقًا على الأصدقاء. كلي لهم.. أسعدت بك، في هذا المساء المرهق الذي يطلب خبرًا سارًا فجئت أنت بألقك.

ثم بعث مرة أخرى:

- صحيح، ما قصة الموت هذه؟ قل لي بسرعة صاروخ. انتهى رصيدي، سأكمل حوارنا غدًا. هيا قل لي.

لم يكن ثمة وقت يلائم حقيقة الموت الذي كنت أقصده، فهل يمكن لي أن أقول بعد ما حدث أن الموت هنا هو الحب بعينه، أم...؟ سارعت أقول بدورة مواربة رغم صدقها:

• ع مهلك علي شوي، الموت هنا ليس سوى رمز.. فكر يا فهم! نم باكرًا؛ لديك عمل شاق كما أحس. تصبح ع خير.

رغم أن كلمة أصدقاء تلك واضحة الملامح إلا أنني كنت سعيدة.. سعيدة بدون حواجز للفكرة ذاتها، ها أنا أردد قبل أن أغلق الدفتر وأناام:

كم من الفرح مَدِينَةٌ أنا لك يا لؤي!

الواحدة إلا ربع

ضجيج

-١-

١٦ من تموز- ٢٠٠٦

To: tayma@hotmail.com

From: loay_writer@hotmail.com

Date: 16/7

Subject: بين الفرح والحزن، سلام لبيروت

فيروز غنّت:

لبيروت من قلبي سلام.. لبيروت.

وأجدي اليوم أغني معها: لتيما من قلبي سلام.

أنتِ التي تحاولين جاهدة إخفاء خوفها المتأرجح بين الحروف والفراغات

الصامتة، لكنه رغماً عنك يرشح من صوتك المبحوح الخجل.

أنا الذي يصلني منك لأول مرة باعثاً مفاجأة سارة، محوِّلاً الترقب فيّ إلى

ضجيج فقدته منذ القديم.

سلام لبيروت، وسلام لك.

نحن الذين ينتأ فينا وجع فقدان والحرمان ليكبر كبرعم مع كل الحوادث
الكبيرة والصغيرة على السواء.

إنه لبنان.. البلد الذي تقاسمنا معه تاريخنا المليء بعثرات الطريق، والسقوط
والصحو بعده.

هي حرب تموز، حرب لبنان الثانية.
وأمامها نقف متأهبين على أصابع أيدينا عكسيًا، في انتظار اللحظات التي قد
تقلب جزءًا من الخذلان المتكرر على المدى.

ببعدي هذا عن أرضنا التي ننعثها غالبًا بـ«المقدسة»، دون أن ندرك أن تلك
الكلمة ليست مجرد حروف مرصوفة في الكتب والكلمات الخطابية الكثيرة
وبيانات التنكير التي تختفي تدريجيًا، مع الاعتياد.

«مقدسة».. إنها كلمة سحرية فوق ما أتصور، فهي تكتسب قدسيته من
جنوحها كطفل نفاعاً بشبابه فينا.

هي فيّ، في داخلي.
لم أدرك ذلك إلا ببعدي عنها، فحين ينتشر الفراغ عميقًا في القلب، نعرف كم
كانت تعني بالنسبة لنا.. نعرف أننا كنا نحب.

كم تمنيت لو أنني حظيت بفرصة قربي منها ولو بكوني مراسلاً في هذه
الحرب، حين أبدو متأكدًا أن قدرتنا تزيد على الترقب الذي يضعفنا.

لم أخبرك بذلك؟!
أجهل السبب.

ربما لأنني فلسطيني أحتاج من يناصفني أرجاء شوقي أو أجزاء الحديث عن
فلسطين العصيّة على الفهم، أنا إلى الآن لا أفهم كيف تقسو فنقترب! إنها
المحبوبة يا تيمّا، تزيد صورتها في الإلحاح مع بيروت ومشاهدها.
وربما لأسباب أخرى عليك محاولة تخيلها.
أعرف -على الأقل- أننا نستطرد في حواراتنا عندما نجد من يمنحنا أذنًا قادرة
على استيعاب واحتواء أكثر من الصوت ذاته.
إن لم يكن الأمر كذلك، فهو أُملي على أقل تقدير.
لن أقدم لك شكرًا تقليديًا، لقد كانت بهجتي بك عظيمة.. صوتك يا تيمّا لا
يستحق شكرًا عاديًا، سأشكرك على طريقيّتي، فانتظري.
كتبْتُ كي أقول لك: سعيد أنا بصوتك، وأكثر.

لبيروت (تلك المدينة الأنثى) من قلبي سلام.
ولتيمّا ألف سلام.

دمت بود.

-٢-

منذ الصباح ووجهها باهت وغير مُفسّر مطلقًا. قلتُ لها إنني أستطيع العمل
وحدّي اليوم، وبإمكانها أن تعود للبيت.

ودخلت في الصمت، ثم سقط دمعها، فما عرفت ما يمكن أن يمسح دمعها.
أردت أن أقرب وأمسحه بيدي، لكن شيئاً أجمني. أردت أن ألقى نُكتة، بحثت
عن شيء أحفظه، ولما اكتشفت أنني لا أحفظ شيئاً، صنعتُ شيئاً خفيفاً كما
تحب، ورحتُ أحكي لها:

كانت جدتي لأمي بلا أرجل.

أذكرها، أذكر وجهها المربع وصوتها العالي. بقيت تتوهم أن باستطاعتها
الوقوف لفترة طويلة، وفي اللحظة التي تدرك فيها أن محاولاتها يائسة، تبدأ
بالبكاء. كنتُ صغيراً حين كانت في السبعين من عمرها، وعندما كانت تضعني
على فخذي المقطوع، كنتُ أصرخ، وأهرب، فتبكي جدتي أكثر. لم يستوعب
عقلي الصغير إن كانت جميلة أم لا، لكن الجميع يعلم أن صورتها الفاتنة
المرسومة كتحفة، هي السبب في قطع قدميها فيما بعد.

حين هاجروا كانت ما تزال شابة، كان الماء يُجلب من بئر على طرف القرية
اسمه بير الراسي، النساء يحملن الجرار الفخارية على رؤوسهنّ. يضعن
أسفلها عصبة من قماش ملفوف، وفوقها الجرة. تقول أُمي إن جدتي كانت
تتباهى برشاقتها وقدرتها على حمل الجرة مملوءة بالماء دون أن تمسكها
بيديها، كانت تركض بالجرة. ولما رآها هاشم التمرجي، صرخ بين الشبان:
«يقطع أهلها، غزال، غزال..»، فوقع من فورها، وكُسرت الجرة المملوءة
بالماء فوق قدميها. كانت تنزف دمًا وألمًا، وحين توقف النزيف بعد حين، فار
الألم فلم تستطع المشي. عرضوها على طبيب عربي، قال إن قدميها كُسرتا،
فجبرها. بعد شهر جاء الطبيب، وفكّ الجبص، كانت العظام معوجة، فعاد
وكسرها وجبر القدم من جديد. ولما حاول الطبيب فكّ الجبص للمرة الثانية،

كان الجبص قد تخلل في لحمها، ولن يخرج البتة، فهرب الطبيب. حين بعثوها إلى المدينة، كان القرار: قطع الرجلين حتى فخذيهما.

كانت جدتي قبل ذلك تصرخ من الألم، لكنهم كانوا ينعنونها بالماءعة، ولم يفلح قسمها المتكرر في جعلهم يصدقون. لما قطعت قدمها، صدقوا.. متأخرًا جدًا.

أمي لم تكن بعد، كان كل أخوالي وخالاتي. ذات ليلة عاد فيها جدي من عمله متعبًا، فأدار لها ظهره ونام. ولما سمع شهقات بكائها الحارق، استيقظ وأقسم أنه يحبها، ويريدها كما هي. ليلتها أصبحت أمي مزيجًا من ماءيهما. مات جدي بعدها، رآه مجموعة من المستوطنين الجدد متسللاً إلى إسرائيل للعمل، فقتلوه.

أصبحت جدتي بلا معين، فانتقلت أختها للسكن معها، خالة أمي لم تكن تنجب، كانوا ينادونها في الخفاء «بيت الخراب»، كانوا يعدّون الرحم بيتًا، فإن حمل بالثمر صار عامرًا، وإلا فهو الخراب. التصق ذلك اللقب بخالة أمي، وحين انتقلت إلى بيت أختها انقلب لقبها، وأصبحت «عمّار». تحوّل بيت جدتي إلى جنة. تحيط في أطرافه زهور لم تكن، أصيص الورد، وشجرة عنب كبيرة جلبتها من بيتها، وزرعتها فامتدت عريشة. وصار البيت الهادي لقلّة حركة جدتي عامرًا بالنساء والأحاديث. يجلبن معهنّ الفريكة وحبوب القمح، والشعير، وينقبنها وينظفنها.

نظرتُ إلى وجهها بعد أن حكيتُ لها، فرأيتها بلا دموع، وبملامح أقرب للأسئلة المفتوحة.

- ألحظ أن الكلّ يفقد، فلم يصبح الفقد عنوانًا للحياة فجأة؟

- ليس عنوانًا مفاجئًا للحياة، إنه طابع الحياة. الفقد في أساسه كسب من ناحية ما، ربما نجهل ذلك ساعة الفقد، لكننا نشعر بعد حين أن الكسب هو الشيء الوحيد الذي لم نفكر فيه، بينما كان حاضرًا بقوة.. طوال الوقت.

- والدي خسر، فقد الكثير.. لا يمكن أن تقول إنه كسب حين سُجن للمرة الثانية، بينما كان يظن ويظن قبل سجنه، رأيته خلال كلماته منكسرًا.. فأين ذاك الكسب؟

- نعم، خسر شيئًا، لكنه بشكل أو آخر أدرك ما يحدث تمامًا، أخرج كثيرًا من أحداث حياته ورثبها، حكى عن الماضي وعن أشواقه.. عنه وعنك وعن عائلته.. ألا تظنين أنه كسب، وأنتك فعلتِ؟

- ربما، ربما.

ساعتها، وبينما تفتح شفتيها قليلاً لتنطق شيئًا أجهله، جاء أول زبون، فقمنا.

- ٣ -

تيماء..

التي رسمت بقلمها المرتبك، الحائر، المجنون، الهادي، سطورًا من الدهشة والأرق المعجون باللذة.

كأنك بخطوطها الواثقة الرقيقة تصبحينها يا حنان دون أن تعرفي كيف!

ربما توقعت كل شيء منها، كل شيء.. هي التي تطبع مستقبلك ببضع كلمات انتظرتِ قراءتها بأناة شديدة، كأيامك.

كل التواريخ بعد رسالة بيروت غابت، مكان الأيام منزوع من الدفتر، وكأنها بذلك تحذف جزءًا من عمرها.. فكيف استطاعت؟ ثلاث ورقات فقط هي التي بقيت بين كل ذلك التمزيق، التاريخ الأخير الذي بدأت منه قراءة هذه اليوميات، وهذان التاريخان فقط: ٢٦ من سبتمبر، واليوم العشرون من شهر نوفمبر. فأين ذهبَ الباقي؟ ولماذا قفز التاريخ من شهر مارس إلى تموز؟

حين فتحتُ التاريخ القادم بعد تموز مباشرة، فوجئت بلون صفحته الزرقاء، وبأزهار ياسمين كثيرة مزروعة فيه، وبصورة لطفلة ترقص في ثوب أبيض.. فكيف للزمن أن يختفي بعد كل هذا الفرح الذي قرأته وشممته؟ هل تجمد الزمن عند تلك اللحظات؟

أفارقت الحياة؟

أم ولدت في دفتر آخر، أرادته كلون الياسمين عوضًا عن هذا الأسود الفاحم؟ تكوينِ التأويلات الكثيرة بنار الفضول أول الأمر، ثم تبدأ الوحدة بتسلككِ فتغدو الوحشة مفرطة.

أهي معمعة هذه التي تجري في داخلك؟ أم أنها هواجس الفقد ومساحته المؤلمة؟!

لو أني أعرف ما الذي فعلته بعد تلك الوقفة على أعتاب كل شيء.. هي التي تبدو قطة شقية، وامرأة هادئة، وطفلة لاهية، وزهرة توشك على البكاء عند

الفراغات بين صفة وأخرى.

أين تلك الصفحات يا تيما؟

الثلاثاء: ٢٦ من سبتمبر- ٢٠٠٦

هل قالها حقًا؟

أقال أحبك قبل خمس عشرة دقيقة وعشر ثوانٍ؟

أقالها أم أني لفرط ما انتظرتها تبدو كحلم بقي يقفز متجسدًا بوهم يصل
الأذن؟

ذلك الوهم الشهى العبق الواعد بالكثير.

ياه كم انتظرته!

«بحبك».

قالها، لن أكذب أذني إذ أسمعهُ يوشوشني:

- تيما؟ تيما؟

- نعم، تيما.

- تيما؟

وقالها.

تسللت البرودة والدفء معًا، لم أعد أميز شيئًا تحديداً، وغرقت في وجد وصمت، صارت أصابعي مرقصًا، ودمي، دمي شلال مطر، وقلبي، قلبي عصفور ينقر القمح فرحًا.. ثم إذ استطال صمتي، استطرد:

- كيفك؟

- تمام.

- كم يعني؟

ولم أدرك كيف قلت ما قلت:

- رأيت المطر الذي نزل لأول مرة اليوم؟ هل أخبرك أحد كم كان غزيرًا وعظيمًا ورائعًا؟ أنا «تمام» أكثر من ذلك.

- الله يرضى عليك.

سمعت أنفاسه اللافحة حينها، أنفاس مبتسمة ومطمئنة وقد تكون.

- وأنت؟

- أشعر أنني ولدت من جديد، إحساس مفرط بالحياة، بأنني أريد أن أكتبك على كل شيء، وأنني أرغب لو أطيّر، أطيّر وأحلق كفراشة خفيفة نحوك.

...

- تيمًا، اتصلت فقط كي أخبرك بذلك، بأنني طفل بك، وبأنني.

وكررها ثلاثا.

- وتقولين عني بخيل يا شحيحة؟

- وأنا أيضًا.

- إنت شو؟ قوليهـا، أريد أن أسمعها بملء روعي، قوليهـا.

وقلتها متلعثمة بحروفها على خجل.

ها أنا أهذي بعده:

يا سماء أمطري زهراً واسقي بعطش الذهول أرضي.

يا أرض غني، ارقصي، فعيوني موجوعة بالحب حد البكاء والضحك معاً.

يا حزن، ثم، غب عني، لقلبي الآن فرحة بُعدك، فها هو القلب خارج زمك.

وخارج هذا الجسد.

خارج هذا الجنون.

سأمشي ببطء.

الشارع لوحة زيتية، والمطر يد رسّام، وأنا بينهما، أهذي، وأهذي.

الشمس التي بانت أشعتها رقيقة خلف الغيم، واختفت على عجل، لو أنها

تمعن النظر في قلبي الذي أشرق مثلها أخيراً!

بعد صوته المعجون بكلمة: «بحبك»

الإثنين: ٢٠ من نوفمبر- ٢٠٠٦

مساءً أرسل رسالته التي أَلقت نارًا في صدري، نارًا أواريتها وأغطيها، مخافة أن يشعر بها أحد غيري، أن يشم رائحتها: «مشتاق،.. وأحتاجك».

في تلك اللحظات، شعرتُ بدخان ناري، أغلقتُ باب الحمام عليّ وغرقتُ تحت الماء. الجو في الخارج بارد جدًّا، وأنا أحاول أن أطفئ جسدي. حين خرجتُ، كانت رسالته الثانية تنتظرنِي: «قولي شيئًا يبلّ هذا الريق الناشف».

فأرسلت وفيّ نارٌ لم تزل: «ربما كان يجب أن أقول هذه الحقيقة الصامتة: ذراعاك شراغان أبحر بهما إلى دنياءك، وصدرك بابك السحري.. وأنا طفلة تنتظر أن ترويك، لترتوي. بحبك».

نظرتُ في المرأة، الماء الذي يقطر من جسدي لم أجففه، وشعري المبلل أفردته على ظهري العاري، وما زلتُ أشعر بنار تستفيق في جسدي. قررتُ أن أنشفه. رويدًا رويدًا أمرّ عليه، رويدًا رويدًا يجفّ. ترنّ رسالة فأركض إليها، وأبلعها كومة واحدة، أمرّ على الكلمات سريعًا، ثم أعود لأكررها ببط شديد: «ابتهجي. انتظري مني ما يكسوك بأحلام أسطورية. سأنزع عنك ريش الحرام لتصبحي عصفورتي التي لن تتوقف عن الغناء. لو تدركي كيف يفكر لؤي بحبيبته؟ أحتاجك، أحتاجك».

أتوقف في العريّ، أدلكُ جسدي برائحة الياسمين، أدلكه وأنظر فيه.. أخجل مني، فأرتدي منامة خفيفة. أغطي جسدي، وأنام.. أحاول النوم فقط، لكني كلما أغمضتُ عينيّ جاء وأخذني.. أخذني، لأغرد دون توقف.

فهل ما يزال كل شيء في هذا الجسد لي حقًا؟!

بعد رسالة العصفورة وأحلام أسطورية

-٤-

«كان صوتها يسبقني إليّ» قال لُعمر.

وقفتُ عند الباب مسلوبًا أستمع لأغنية فيروز التي تهدد بها ربما كي تنام وهما.

توهمتُ أنها تضمّ ابنتي صبا، وأناي سآتي خطوتين وأضمهما معًا، لكني عدتُ بنفسني إلى مكاني: أمام باب المكتب، عند الثامنة صباحًا.

سلمت عليها وصوتها ما زال يتردد في الغرفة، عمّ الصمت للحظات قبل أن تردّ السلام عليّ وتتورد وجنتاها باحمرار نشر في جسدي قشعريرة لذيدة.

تعديثُ الصالة سريعًا كي أحتفظ بشعوري لفترة أطول دون أن يتناثر.

ثم إن شعورًا بالذنب راودني، إذ كم كنتُ عجولاً بدخولي ذاك، وبإحراجها، خطوتُ نحو المطبخ مارًا بمكتبها. وضعت ركة القهوة وعدت إلى الصالة حيث مكتبها. أخفضتُ رأسها حال رؤيتي، فتقدمتُ معذرًا، فصمتت. كانت

ملاحمها تتورد من جديد. وجهها لا يعرف الكذب، لذا سأحبها أكثر. وقلْتُ وأنا أنظر في عينيها مباشرة:

- هل أعقد صفقة معك؟ ابنتي تُتعب جدتها إلى أن تنام، سأحضرها عندك كل ليلة، أجزم أنها ستغفو عندما تسمعك.

لم تتكلم، هذا عرض جدِّي. قلْتُ. ووضعتُ فنجان القهوة على مكتبها، جالسًا قبالتها، على كراسي الانتظار ولم أقل شيئًا.

لم تخبرُ عُمر عنها؟ تريد أن تبعده عنها بلباقة، وتعرف أنه لن يقترب لو علم أنك تفكر بها لحظة؟

أنت مرتاح الآن؟

ماذا عن ذلك الدفتر الأسود؟

سألتها عنه فلم تجبك. كان صمتها يقول إنه كتاب خاص أكثر مما تصور. «أنا غبي لأنني سألتُ» مطرّقًا تقول لنفسك. حاولت أن تنسى تلك الصفحة التي وقعت عليها عينيك وهي تبدأ بـ«عزيزي لؤي».

- تحب غيري حتمًا، لو لم تفعل فلم كل هذا الخجل والصدّ؟

- إن كنت مؤمنًا أنها تحب غيرك فعليك أن تنسى.. إنها نعمة أن تنسى، نعمة. ثم طوال الفترة التي ستمكث معك هنا كسكرتيرة ستتعب. عد إلى أمك اليوم لتخطب لك جارتها التي أخبرتني عنها.

يفكر: مالها الجارة؟

شابة جامعية لم تجرب قبلاً، وجميلة أيضاً. رأيتها خارجة من باب بيتنا هي وأمها، سلمتُ عليهما ودعت لي أمها بالخير.

دخل يومها بيت أمه، فهجمت عليه تقول: شفتها شو حلوة وبنت ناس؟ والله إنك بتستاهلها يا ابني، حط عقلك براسك وتزوج.

- لكن، قل لي، هل تأكدت أنها تحب غيرك؟ يقول عمر.

- كيف أتأكد؟

- اسألها يا رجل! ما بك؟

لم يكمل قصي ما حدث في ذات اليوم. حين دخل مكتبه وأغلقه ساعة، ثم ما لبثتُ أصوات مألوفة في الاختلاط خارج المكتب، تصل إليه.

خرج فوجد أمه، وصبا ابنته.

كانت يد أمه في يد حنان.

وحين اقترب نظرتُ أمه نحوه وسألته: هذه حنان؟

كانت تنتظر إجابة.

وكان يفكر: كيف عرفت أمي اسمها، وفيما إذا كانت تعرف شيئاً آخر غير الاسم أيضاً؟

حنان قالت بعد أن سحبت يدها من يد أمه بهدوء شديد: نعم يا خالة، أنا هي،
نور المكتب بوجودك.. تفضلي.

اقتربت حنان من صبا، ومدت لها يداً.

بدأت صبا خجلى جداً، كلما اقتربت منها حنان، ابتعدت خلف جدتها.

لكن نظرة أطلق قصي لها العنان في وجه حنان دون وعي جعلت لونها
متدفقاً بالحمرة. كانت تحاول الاقتراب من صبا، لكنها هربت لأبعد من ذلك،
إلى قصي. حينها توقفت حنان عن اللحاق بالطفلة.

حمل ابنته، فاحتضنته بقوة. فكّر أثناء اقترابه من حنان وأمّه كم قصّر في
تربية صبا، فهي على الدوام خائفة من أي شخص لم تعتد عليه.

قبّل أمه على جبينها، بعدما أخذت صبا منه.

قرّبتها أمه من حنان، ثم أخذت حنان الطفلة ووضعتها على حجرها.

بدأ لقصي أن شيئاً جارفاً يموج فيه. وتمنى في قرارة نفسه لو أن أمه تطلبها
له الآن تحديداً.

هدأت ابنته في حجر حنان. بدأت تعبث بشالها البنفسجي. ثم نطقت: بابا.

كانت الطفلة تنظر إلى حنان وتقول بابا، وكاد قصي يأمر الطفلة بتهجئة
«ماما»، أراد أن يقول لها: هذه ماما.. لكنه أحجم.

هل يبدو ذلك تسرعاً يا قصي؟

لم يجد بُدًّا من السؤال، ولم يجد وقتًا للإجابات.

حين ناولت حنان الطفلة لأمه وغادرت لصنع شيء يشربانه، لم ينتبه إلا وعينا أمه عليّه. كان ما يزال يرقب حنان في حركتها باتجاه المطبخ. حينها فقط، عاد كما لو أنه لم يتزوج قط، خجلان من عينيه، خائفًا وسعيدًا في الوقت ذاته من أي اكتشاف ستنتطقه أمه.

كان يترقب شفاه والدته. لكنها خببت أمله ولم تنطق.

-0-

كانت حنان تجلس على كرسي أمامي في مسرح قصر الثقافة برام الله.

احتفالية «وين ع رام الله» بدأت اليوم بأمسية شعرية لمحمود درويش، ذلك الرجل الذي يمتهن دفع اللغة إلى هاوية المعاني لتفاجئنا فنفيق. أرادت أن تبلل عطشها لسماعه متحرّكًا، دافئًا كما في قصائده، بلامح وجهه الكاملة.

حملت الدفتر الأسود أمامها، كما أخبرت تيماء، لكنها لم تأت، وحين بدأت الأمسية جلست وسط مدرج المسرح، مقابل منصة درويش، كان قصي يجلس في الكرسي المجاور، وفيما بدأ درويش قصائده، وشوشها: درويش يودعنا؛ كل قصائده عن الموت.

في تلك اللحظة نظرت حنان في عيني قصي تمامًا، كانت ترى بريقهما في الإضاءة الشاحبة، وحين بدأ الثلاثي جبران بعزف مقطوعة «ربما» شعرت أنها حزن شاسع يمكن له أن يطفئ كل هذا الخوف الذي بزغ فجأة.. لكنها نظرت

إلى المسرح، فيما الثلاثي يعزف، وراحت تذكر أول رسالة تجاسرت على
بعثها لتيماء، تذكر كيف كتبت سؤالاً ودفعته إلى بريدها:

كيف أمكنك التخلي عن دفتر ذكريات كهذا؟!

حينها ردت تيماء، دون أن تسألها من تكون:

To: hanan_82@yahoo.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 23-7

Subject: RE

يا إلهي!

الدفترا الأسود معك إذن؟!

سأقول لك:

ألقيت الدفتر للمرة الثانية في المكان ذاته، ليس لأنني لا أرغب فيه، بقدر ما
أختبر شعورًا أن عودة ما ستحين.

المرة الأولى ألقيته لثوانٍ فقط، حتى إذا مشيت قليلاً، جاء شاب يناديني «لو
سمحت» ولما توقفت ابتسم في وجهي قائلاً: «هذا لك، سقط منك».

ولأن هذا الأمل لا يفتر، أعدت إلقاءه بعد عام من محاولتي الأولى.

حين عاد الدفتر أول مرة آمنت بعودة لؤي، ولّما لم يعد، قررت أن أكرر الفعلة.
الأمل هذا قاتل.. لأن حبله لا ينتهي عند مكان واضح المعالم، إنه يقذفني نحو
الضباب، والصمت، والوحشة.

«عليّ أن أؤدب نفسي». قلتُ وأنا أكرر الفعلة، وألقيه.
فإن عاد الدفتر، فسأكرر الأمل هذه المرة إلى أن أموت.
فهل يعني سؤالك، أن الدفتر آيل للعودة لي؟!

تيماء

To: tayma@hotmail.com

From: hanan_82@yahoo.com

Date: 23-7

:Subject: RE

العزيزة جدّا تيماء..

من الضروري أن أقول لقلبك إنه رائع وصادق، ومربك.
وإني سأشتاق للحظة تطل عيناك من خلف الستار لأعرفهما. أتخيلك الآن
وأنت ترفعين حاجبيك، وتمطين شفتيك.

إن كنتِ تيماء «الدفتر الأسود» ذاتها، فقد قلتِ قبل عامين تمامًا، في الحادي عشر من شهر آب تحديدًا: «أظن بي حاجة لأن أسمع ثورة عقلي وقلبي، وهما يقولان لي الآن:

يكفي أنك تشعرين بالشمس إذ تصحو وتنام.. إنها مثلك».

لأنها مثلك أريد التتمة، أريد تلك الأيام المنزوعة، آلمني أنني لم أجدها.. ما الذي حدث؟

عقلي وقلبي ما عادا قادرين وحدهما على إكمال القصة كلها، قصتك، وربما قصتي.

الدفتر الأسود عندي الآن، وجدته في حافلة على جسر نهر الأردن. أظننا سافرنا في نفس اليوم إلى ذات الجهة.. ألا ترين أن القدر قد خطط لنا اللقاء؟ أود لو أسلمك إياه بيدي، أريد للأمل أن يجد طريقه نحو قلبك.

هل أنكأ الجرح إن سألتك أين هو لؤي؟

ملاحظة: سأكون في رام الله يوم افتتاح «وين ع رام الله»، سأستمع إلى درويش في قصر الثقافة.. قد يكون جميلًا أن نلتقي.. سأحضر معي الدفتر الأسود، وسأنتظرك عند الباب حتى بدء الاحتفال، سألبس عباءة سوداء، وشالًا أبيض منثورًا بأزهار سوداء. إن تأخرت فسأجلس في الوسط ما أمكنني.. أتمنى أن تفعلها وتأتي.

حنان جرير العيسى

To: hanan_82@yahoo.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 23-7

Subject : جسور

سأكتب يا حنان.

قررت أن أفعل ذلك أخيرًا.

فما زلت أحتفظ بوجه امرأة مشلوح بقطع من الدهول والصمت والصدق، لا أدري لِمَ ظننتها أنتِ! مجرد شعور.

حين بدأ الثلاثي جبران في عزف «سفر» ما بين أشعار محمود درويش، شعرت بغصة تخنقني، وتعلو، تدحرج الماء الساخن على خدي، أردتُ ألا أمسحه، فقد كان أشبه بنزول مطر استطاع غسل الغبار الذي غطاني طويلاً. ما زلت أتذكر وجه المرأة التي أظنها أنتِ، ساهم، وقربك رجل بدا وهو يسرق النظر إليك كل لحظة، وكأنه سيبوح لك بشيء ما.. فهل كنتِ هي؟ مش عارفة! كان بيني وبين امرأة تلبس ذات الملابس ثلاثة كرايس يملؤها الفراغ، واثنان من الشبان. أردتُ الاقتراب من ذلك الأمل الذي قد يكون معك، كنت أرى الدفتر الأسود بين يديك.. لكني دفعة واحدة جبت.

هل من السهل أن أشمّ خيبتني، وأخذها بين يدي؟!!

لقد اكتشفتُ أن ما بيننا ليس محض لقاء كان على وشك التحقق، بل كان
قدرًا رسمنا ملامحه معًا.. كان كتلك الأيام البعيدة التي مرّت كالريح.

لذا قررت أن أكتب.. المرأة التي أظنها أنتِ حملت دفتري بحذر شديد، وبرقة
هائلة حتى دخلني اللوم من تركه بين حقائب الحافلة، هكذا، وحيدًا. كنتِ
تمسكينه كما لو كان كنزًا.

هل شعرتِ بكل حرف إذن؟

أتعرفين: ثمة تيماء مكسورة كمزهرية خاوية. هل أعترف بأن بريدك انتشلي
من بئر عميق، عميق؟!

هذه أول رسالة بريدية خاصة أبعثها لجهة غير لؤي.

سعيدة لأنني أفعل ذلك. سعادتي بكلماتك الماء، أطلق عليها «الماء» لأنني
أشهد انعكاس الحياة فيها، وربما فيّ.

سألت نفسي قبل أن أبعث هذا الرسالة، إن كانت هذه هي الإشارة التي
انتظرت.

فقد تركتُ دفتري وأنا أقرّ أن الجسر بيني وبين لؤي قد انقطع، تركته على
الجسر، في حافلة تتنقل بين النهر وضفته الغربية.. فهل يمكن لي أن أفرح
لأن الجسور قد تمتدّ؟!

وأن السرّ يكمن في القلب قبل أي شيء.

أضحك الآن.

أمسح الجملة السابقة ثم أكرر كتابتها، أقول: «عمره الأمل ما بنطفي».

لكني بدأت أخاف أكثر.

«ولم يكن بين حاضري وحاضرك أي جسر فبأي سرّ التقينا؟!».

كانت هذه جملته يا حنان، أسرارته وحكاياته ودفؤه الذي ما زال يخترقني.

مضت سنتان إذن.

هل مرّ الوقت سريعًا هكذا؟

كنت أتمنى لو أنني نسيته.

وحين قالت لي صديقتي نزهة: من قال إن النسيان ممكن؟ هل يمكن أن تقتطعي من عمرك سنتين كاملتين بكل ما فيهما؟ تظلمين روحك إن فكرت بذلك.. عليك فقط أن تحولي ذكراه من الذاكرة الفعلية إلى الأخرى، الرخامية.

حاولت ذلك.

لم يكن بمقدوري قص ذاكرة، ولصقتها في مكان آخر.

كان كل شيء مؤلمًا، الأماكن والأحلام، وأسماء الأبناء، والأغاني التي وعدني أن يغنيها لي.

كان الألم يزداد في النهايات خاصة.

في تلك الأطراف بين نهايات الوصال وبدايات الفرقة.

عند ذاك الحد تمامًا.

تصبح الأشياء معتمدة جدًا، وغير قابلة للتصديق.

دخلتُ غرفتي في السكن الجامعي، لم أتوقع أنني لن أستطيع دخولها والنوم فيها من جديد مطلقًا.

كان في كل زاوية.

كل حركة كانت تتنفسه.

رائحته القوية والقاسية، رائحته الصلبة، رائحته الرقيقة، رائحته المؤلمة.. كيف يمكن تحمّلها؟!

كل هذا رغم أن التواصل بيننا بقي ملتبسًا، ووهميًا، وخياليًا.

وسكنتُ الصالة أسبوعًا كاملاً، وسط ذهول بنات السكن اللواتي ظنن يسألنني: أنت بخير؟

لم أكن بخير.. كنتُ أفكر بالرحيل من كل الأماكن التي حُفر فيها دون إرادتي، وبتخطيطي أحيانًا.

لقد أردت حقي في أن أتنفس، أتنفس على الأقل.

وغيرت سكني بعد يأسٍ من التناسي.

لملمت أشياءي كلها، وأشياءه.

لمست الموضع وفتحت كل الذاكرة على مصراعيها:

الهدايا، الكتب، الصور الكثيرة، الكلمات المبتوثة على الأوراق الأولى من كل كتاب، العروسة الخشبية الروسية، الشمعدان، الحكايات التي علقتها عند رأس السرير.

ما الذي سأنساه يا حنان؟

الآن أدرك بامعان كم تبدلت الحال! فما بين اللحظات البريئة التي كتبت فيها مذكراتي واليوم، شرخ هائل من التجارب العملية والقصاصات الصغيرة لأحلام لم أصلها بعد.

لقد تغيرت.

تغيرت يا حنان.

فهل سيفيد أن أقول ذلك؟

سأخرج الآن لأمشي.

تيماء

-٦-

«لم تكن السماء صافية هكذا قبل اليوم». تقول ليلي وهي تمشي ببطء وتتنفس عميقًا، وتنظر حيث الشجر والسماء، تنظر كأنها طفل يرى الدنيا أول

مرة.

فتطلق حنان ضحكة طويلة وهي تغمزها: كأن حسام قادم اليوم؟

فتضحك ليلى.

في يد ليلى لوازم الشاي على النار: إبريق شاي صغير، وأكواب كبيرة، وسُكر، وأكياس شاي، وزجاجة ماء، وقدّاحة. بينما تحمل حنان قالب كعك صنعته مع أمل، أما أمل فتحمل سعاد.

هنّ يمشين بين العصر والمغرب. في ذلك الحدّ الدقيق من التحوّل. كان الجو يميل للبرودة، الأغاني التي غنيتها مطلقاً زفرات بين كل مقطع وآخر، جعلت الطريق يطير لحنًا كالفرّاش، السماء التي تصفو، والزيتون الذي يمتدّ في الأفق يجلب جمالاً فائقًا.

أسفل زيتونة جلست ليلى وطفلتها، وحنان، أما أمل فأخذت تبحث حولهنّ عن عيدان يابسة يمكن أن تشتعل. صفت حنان عددًا من الحجارة الصغيرة على شكل دائرة ووضعت أمل ما لقتته من حطب فيها، وأشعل عود الثقاب، لتشبّ النار عالية، حتى تتمكن من الحطب، فتهدأ رويدًا رويدًا. وُضع الإبريق، وانتظرن.

- هناك كنا نلعب يا حنان «عرب ويهود»، أتذكرين؟ نختبئ خلف الزيتون، فيحمينا، ونفسد على الأولاد وأماكنهم ونضحك بعلو أصواتنا، حتى نتعب حناجرنا من شدة ما مرّ الهواء وعاد. تقول ليلى لحنان.

تعلّق أمل:

- يا حسرة! لم ألحق لعبة «عرب ويهود» وكأنها انقرضت. صرنا كالبنات فعلاً نلهو بباربي، ونخيظ الأثواب. ونشاهد التلفاز، ونتعلم كيف نحب.

- على أيامنا، كانت الرسوم ناعمة: «ليدي»، «وسالي» «والفتى النبيل». اليوم هناك «بوكيمون» «وأبطال الديجيتال» وما لا أعرفه أيضاً، وكله حول فكرة الانتصار والتحكم بالعالم. قالت حنان.

- تذكري يا حنان لما مات عمي عبد الله بكينا لأنهم ببساطة حرمونا متابعة الرسوم المتحركة. قالوا: هذه شياطين، والملائكة بدها توخذ عمك. وحين سألنا: أين ستأخذه؟ ومن هي الملائكة؟ ولم ستأخذه؟ لم يقل لنا أحد. قالت ليلى.

الصمت الذي حل على غير المتوقع قال إنها أيام لا تعود.

زفرت حنان وتنحنحت. كانت تعلم أن ليلى ستفتح السؤال:

- لم تطلعت؟ كنت تحبينه، ماذا حدث؟!

- تعرفي يا ليلى. هناك مساحة لا يمكننا أن نقبلها مهما كنا محبين، نحن لسنا ملائكة. ربما لهذا طلقني. لأنني لم أستطع. كان يعمل طوال النهار، حتى إذا جاء الليل سحب نفسه للشرفة ووقف، وحين تقترب خطواتي منه يشعل سيجارته فأعرف أنه يريد أن يبقى وحيداً. كانت الظنون تأخذني إلى هيأتي: لعله يمقت هذا اللون الذي أرتيه. لعلي لم أتعطر كفاية. لعله لا يحب أن أفرد شعري، أو يرغب في التجديد.. لكني لم أكن أظن أبداً أنه يعشق امرأة أخرى. لا يمكن أن ألومه لهذا، هو عاش حياة مختلفة، طفولة ومراهقة وشباب، ثم

يأتي ليقبل ببلاهة ابنة عمه لأجل هوية فلسطينية؟ هل أبدو أناانية إن قلت إنه ليس مبررًا كافيًا لتحطيم قلوب كثيرة كان أملها أن تعيش؟ لا أريد أن أعلق ما حدث بالتاريخ الذي جاء على غير ما نشتهي ولكني أفكر أحيانًا بأني وسميح من ضحايا حرب ٦٧ غير المعلنين؛ حين انتظم عمي في الجيش الأردني أخذ معه عائلته، ولما هدأت الدنيا، بدؤوا بالتعداد واعتبر عمي وكثير من الفلسطينيين في الجيش الأردني لاجئين في الأردن، وحرّموا من الهويات الفلسطينية. أذكر سميح صغيرًا فقط حين كان أبي يقطع تصاريح دخول لهم. لكن كل هذا انتهى منذ خمس عشرة سنة. الأمانى بالأرض التي قد تعود كان هدفًا وطنيًا. أن يعود -ولو أحفاد عمي- للأرض يعني انتصارًا ما.

صحيح تألمت، لكنني عرفت على الأقل كيف تكبر الأحلام، وكيف تموت صغيرة جدًا. وأحلام البارحة تصبح اليوم مجرد رماد خفيف، يتخلّق بعدها مستقبل مغاير تمامًا.

أخذتا تنظران إلى النار وهي تأكل الحطب، وتدفع ماء الشاي. ابتسمت حنان محدقة في أمل:

- نحن عجائز، لا بأس علينا.. والحلوة؟ كيف حال أستاذنا المحترم؟

- أي أستاذ؟

- بدون غشمنة، احكي.

- لا شيء عندي، هو جيد، بخير ويسلم. قالتها بسرعة خجلى.

ولمّا نظرتُ حنان لوجه ليلي سألتها:

- وأنتِ؟ أين وصل الإبحار على مركبك السحري؟

- آه من حسام! أحبه، ولفرط ما أشعر تجاهه بأمومة تشبه أمومتي ناحية سعاد وحذيفة، أخاف أن أفقده.. أشعر بفراغات فجأة تكبر، يغيب كثيرًا دون أن يخبرني أين. يقول إنه يعمل فقط، أصبحت جُلّ مشكلاتنا خوفي.. أشعر أنني سأفقد. كلّما نام قربي، تمسّكتُ به بكل ما فيّ، وأخذتُ أتنفس رائحته. أعبّ منها وكأنني قد أنساها يومًا. لا شيء يعكر صفونا سوى شعوري ذاك.

وجهها بدا حزينًا دفعة واحدة، العينان تلتمعان بالدمع. تأخذ سعاد في حجرها وتقبلها.

- يا ليلي، لا تعلقي روحك بوهم الغياب، ستفسدين متعة الحاضر.

أنزلت أمل الشاي بعد أن غلته جيدًا مع الميرمية، وصبّته وهي تقول:

- ولا يُعلَى على ميرمية الصيف.. ريحتها من بُعد بتنشّم.

سألت أمل حنان بعد الرشفة الأولى من كوبها، عن الدفتر الذي قرأت لها منه.

- في الحفظ والصون، وقد ألتقي بصاحبته قريبًا.

- ألن تقرئي لي منه حين نعود للبيت؟

- سنرى.

نظرتُ ليلي في وجه حنان طويلاً، ثم سألتها بمكر كأنما تكتشف شيئًا:

- حنان، أنتِ تحبين.. اعترفي. وجهك، أعرف وجهك ونظرة عينك وصوتك.
أنتِ، نعم، نعم.. لكن من؟ أعرفه؟

- لا لا، هذا ليس حبًا، إنه سعادتي باجتماعنا من جديد.

- وصية قبل أن تغادر: ادهني نفسك بالسمن، واختاريه بلدي أحسن، كي
تزحلي من الكلام والتعليق والنظرة، انتبهتُ إلى كلمة ألقته الشائبة.

- لا تقلقي، لم يعد يعنيني شيء.

- ألم أقل لكِ إنكِ تحبين؟ ألا يبدو هذا صحيحًا يا أمل؟

-۷-

To: hanan_82@yahoo.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 27-7

Subject: كي أتحرر، أتحلل

أنهيت عملي متأخرًا اليوم، كان المكتب مزدحمًا بالتقارير التي عليّ تحريرها،
وبأفكار لتقارير أخرى تليق بموجة الاحتباس الحراري، وبذلك الارتفاع القافز
في أسعار السلع المختلفة، وبشح المطر، وبقلة الحياء في القنوات على
تزايدها، وبزيادة التوتر السطحي في العلاقات السياسية الداخلية.

أوه!

كم تبدو القائمة يا حنان طويلة!

سأكتب اليوم كي أتحرر.. أتحلل!

هذه الكلمات وجدتها في مذكراتي للعامين الفائتين كثيرًا، قرأت منه قبل قليل هذه الورقة الساهية، ربما كانت قبل القطيعة بقليل، على ما أذكر:

الخميس: ٢ من نيسان - ٢٠٠٧

قررت أن أتحلل منك.

أنت تلاحقني في كل مكان، وتثير الحزن.

الحزن.

سأتخفف منك هكذا، بالكتابة لك. فهل ستحاصرني هكذا أكثر؟ أم أني أخنق نفسي في دوامة الأحلام والآمال العريضة؟!

أغنية أميمة (التي سمعتها في حافلة الجامعة) تأكلني، هي تغني لليدين. فلم أحرم من أن تلمني بيديك؟ أن تشتعل الدنيا بالمطر وأن يزهر الرمان ويمطر بنا؟

تغني أميمة:

إيديك يعطوني الأمان

بلموا الخوف اللي من زمان

عم تكبر بين ضلوعي

أنت لا تأتي والدنيا تجف حولي. شيء فيّ يعوي طويلاً.. ما الذي يحدث لو
لملمتني شوقاً. أنا المنشورة على كل الطرقات والأماكن التي تحملك كلمة هنا
وهناك.

فما الذي أفعله بالكلمات وحدها يا لؤي؟

ليتني أستطيع أن أبوح هكذا ببساطة شديدة، أمامك مباشرة: كم أشتاق! كم
أحن! كم أتمنى!

فلم تصبح البلاد والحدود حاجزاً هائلاً يبعد القلوب والأرواح التي تآلفت على
شيء مبهم لا تعريف محدد له؟

لم لا أستطيع أن أتورد خجلاً بينما يطل وجهك من بعيد، لو تتقدم من الأفق
فأعرفك من بين الآلاف أمامي، وأحمل تلك الرجفة التي تسري في عروقي.

لو أني أتوتر بك.. أتلعثم، أتأتئ كالأطفال، وأتوه بين ما يمكن قوله!

لو أني أملك أن أحبك كما أود!

لو أن الكلمات تُنطق برعشة الشفتين حباً!

لو!

لا أريد الكلمات أبدًا، أريد نظرة تشعل صدري الصغير بأحلام أكبر، أكبر.

أشعر بالعجز.

العجز من أن أشعرك أكثر، أن أشعر بقلبك الأخضر، وببسمتك التي تمنيت
مرارًا لو أن الصور لم تأتني بها.

أكره الصور.. أكرهها.

هي تجعلني مفتوحة على شهوة حضورك. وشهوتي لا تنتهي.

يفترض أن أفرح ربما لأجل الصورة التي حملت بها باقة كبيرة من الورد
الجوري الأبيض والأحمر وتلك الفروع الخضراء، لكنني أصبحت الليلة حزينة
وبكيت، إذ ما أشهى أن تطل بها على قلبي الضعيف الذي أحبك بكل ما أعطي
من قدر، من دم، من صوت، من أحلام.

فهل يبدو هذا أنانية مني يا لؤي؟

أنانية أن آمل رؤيتك صامتًا ببذلتك البنية وبتلك اللفحة السوداء.

بنظرة واحدة بعيدة لا أكررها.

سأكتفي.

أعدك.

أظهر أمامي فقط، وكفّ عن كونك الشبح الأكبر.

ألا يكفي؟

لقد تعبت..

تعبت.

الثامنة مساء

في تلك الأيام كنت أوشك على قطع كل شيء لفرط انتظاري، كان انتظارًا يطول، ولم يكن قد حدد مساحة مستقبلية له، ربما سنتان، ربما ثلاث، ربما خمس.

وتلك الـ«بيجوز» كانت تقتلني.

كلما قررت أن أنهي ما بيننا ظهرت أمامي كلماته، كانت -رغم فرط تعبتي- تخدرني تمامًا.

«لأنه العطر

إليك، كله لا نصفه

في عيون الزمان».

كان هذا أول إهداء أتلقيه يا حنان، فوق رواية العطر لباتريك زوسكيند.

جاء بخط أسود وبتوقيع هندسي مبتكر. فكرت كثيرًا في مقصد «عيون الزمان» فلم أهتم إلى أن جاء بريده يحمل «عيون الزمان» وهي أغنية

أجنبية أخذت عنوان “ONLY TIME”.. ترجمتها لمياء يس:

ومن ذاك يدري

شعاب الطريق الى أين تمضي

شعاع النهار الى أين سيفضي

ومن ذاك يدري..

أبروي فؤادك أزهاره

بنع الحبيب الذي اختاره!

ومن ذاك يدري..

لماذا يذوب الفؤاد حسيّرًا

إذا الحب أعرض عنك وفرًا!

ومن ذاك يدري..

بأن الدروب إذا ما التقت

فقد أدرك القلب عهد الهناء!

ومن ذاك يدري..

متى يستكين النهار

وليلك في كبد الليل ضاء!

ومن ذاك يدري..

أبروي فؤادك أزهاره

بنع الحبيب الذي اختاره!

ومن ذاك يدري..

شعاب الطريق إلى أين سيفضي!

عيون الزمان

فمن ذاك يدري؟

عيون الزمان.

فهل كان بالإمكان أن أنسى حينها، وأنا اليوم لا أستطيع؟!

سأكتب إليك قريبًا

أمي تنادينني الآن

سلام.

To: hanan_82@yahoo.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 2- 8

Subject: رسائل، رسائل، رسائل!

من أكثر الأحلام المفتوحة على المدى رسالة مكتوبة بخط يده، ورائحة عطره، ودفء الكلمات، عنوانها بـ «كبياض الثلج أو أكثر».

باسم الله

إليك..

سنوات ولم أكتب فيها صفحة واحدة كاملة.

للدقة أكثر، لم أكتب إلا رسالة واحدة لأمي بناء على طلبها النديّ الشهي.

قالت: أريد أن أراك في خطك.. رائحة قلمك.

هي لا تؤمن بالرسائل الإلكترونية، تريد الكلمات أن تصلها بدفء.

دفء الحروف.. وبرائحة الحبر وأخطاء لحظات الكتابة، وتوهج الفكرة، وتعثر الإحساس.

هنا.. الورق أكثر من مصدر دفء.

كالمنديل أو أقل.

الآن أكتب مسرعًا؛ صديقي يحضر حقيبتة ويطلب مني أن أجلب الكتب.

فكرت بالكثير الذي يليق بك.. عطر، بلوزة.

لكنه الوقت.

وعهدًا لن يقف الوقت إلا عبدًا أسيرَه لمصالحنا.

عذرًا هذه المرة على تعثر الكتابة.

هي دليل براءة ورغبة عارمة وأكثر.

بكل حب، و...

صحيح: لم أكتب شيئًا على مجسم «ألوان».

أتعرفين لماذا؟

للخيال.. للخيال..

ولأضع ذلك في أذنك تمامًا..

تمامًا..

تمامًا.

قد تسأليني عن ذاك المنديل..

كان هذا أحد أجزاء هديتي التي بعثتها، اخترته زهري اللون، صغيرًا، كنت أُلّفه حول رقبتى عادة، لم أعلم لم بعثته.. لكني كنت أعرف جيدًا لم بعثت الشمع المعطر محاطًا بورق ياسمين مجفف.. لمّا جاءت الرسالة هذه، ارتفع الدم ساخنًا إلى وجهي بينما رأيت مجسم «ألوان» كما سمّاه، كان شمعدان ممتزجًا بألوان أعشقها، ابتداء من اللون البنفسجي، وانتهاء باللون الزهري الفاتح.. شمعدان يذوب فيه الشمع.

حلمت مرارًا بالكلمات التي سيضعها في أذني تمامًا.

رددتها كثيرًا، وأنا أضمن الحروف ونطقها.

للحق، كانت تلك أجمل لحظات الاكتشاف أبدًا.

كانت تشبه صندوق العجائب الذي يفتح كل حين بابًا من الدهشة، تلك الهدايا أدهشتني.

مع الرسالة أيضًا، كان ديوان أدونيس.

خاطًا على صفحة بيضاء أوله:

٢٠٠٧-٣-٢

القاهرة

٢٠٠٧-٣-٢٢

التاريخ الأول، يوم شراء الديوان.

والثاني يوم الكتابة معلناً أنه سيتجه حيث الـ«تيماء».

لديّ حالة جديدة أعيشها:

أشتري ما أحب، وأدخل في الخيال.. تخيلي -أنت بدورك- أن أهدي إليك ما تتمنين.

إنه يوم سريع، أكتب فيه بسرعة وقلق، أملأً وطمعاً.

هو أدونيس في بداياته.. يستحضر كل شيء.

ذات البدايات..

وتخيلي القادم.

سأتخيل اليوم الذي أمنحك هديتك وجهاً لوجه.

كوني حاضرة.

ب...

قد لا تكفيني الحروف اليوم وأنا أتذكر، وألمس، وأشعر بالنشوة كما لو أن الهدية واصله وساخنة تَوًّا.

يومها قسمتها على ثلاثة أيام ويزيد، وبقيت أترقب كل يوم من الثلاثة ما سيحمله اليوم الذي يليه، اليوم أبدو كما لو أنه هنا، وكما لو أنني سأخبره: ياه يا لؤي! أنا أطيّر، أطيّر، أطيّر بمطرك!

حين بدأت أقرأ في الديوان، كانت هذه القصيدة تغمر كلي:

«أحبك، حتى كأن الحياة ابتكار لحبي

أحبك، والضوء في ناظريك انزوى وانغمر

وشعرك شلال ثلج على كتفيك انهمر

كأني أجزّ ورائي السنين وأستنفد

وحولي في بيتنا سريرك والمقعد

ومعطفك الأسود

ونارك والموقد

سألتك

خليه

خلي سراجك يستسلم

ويدفنه المخبأ المظلم

وقولي لعينيك أن تغمضا

أنا، الآن، فجر طويل طويل

تكاد تقول الثواني: مضى»

أدونيس

لا أعرف يا حنان.

أذكر القميص الذي اخترته له، أذكر لحظات تجوّلي في سوق نابلس، وأنا أبحث عن شيء يليق، أحس بمقاسه، وأنقب عن الألوان وما يعكس لونه الصافي، الأبيض أكثر. اشتريت قميصًا، وندمت لأنني بعثته كما هو، ملفوف بعلبته وبغلاف الهدايا، وبكلمات كتبتها خلسة في محاضرة مملة كي أشعر بانتعاش أحتاجه. تمنيت لو أنني لبستُه، وبللته بعرقِي. كنتُ مؤدبة فوق ما أحب. نعم اضحكي، هكذا بالضبط، مؤدبة زيادة. حين وصلني منه لفحته، مررتها على كل جسدي، ياه! كم كنتُ في حاجته! أقرأ الآية «هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ» فأعود وأرتدي شالاً أرسله، ولفحته.. وأفتح قلبي.

أحد أكثر الأيام التي لا تُنسى، حين كنتُ غاضبة لأجل شيء لا أذكره البتة، أذكر فقط أنني دخلتُ الماسنجر بـ«نك نيم»: «كنت أظن، وأظن، وأظن.. وخاب ظني».

تخاصمنا قليلاً، وخرجتُ ضيقة الصدر. لم أنم ليلتها، كنت بين الصحو والنوم. في الصباح سارعتُ إلى جهازِي، لن تتصوري سعادتي بالهاء وأنا أقرأ رسالته: «ونام الكلام على حاجة ضاربة»:

عزيزتي:

كلمات عبارتك ترن في أذني.. كما كانت أُمي عندما تزعل مني.

أصاب بشيء ما..

«كنت أظن وأظن وأظن.. وخاب ظني»

هناك خيبات لا نحتملها

حقًا شيء لا أحتمله، كزعل أمي تمامًا

أتساءل: متى يزول عقابك؟

سلام الشبح الكبير

خرجت تنهيدة كبيرة بحجم بحار الأرض كلها، بل بحجم الأرض. لم أتردد لحظة في أن أرسل له:

لؤي..

كنت على طول المساحة التي أخطوها على هذه الأرض أتساءل عن قدرتها على حفظنا فوقها.

وعندما توفي خالي سألت عن قدرتها على حفظنا داخلها.

قرأت برقيتك الإلكترونية فوجدت الجواب:

الأرض أمّ، هي لا ترفض شخصًا فيها.

على أمل أن أكون أمًا كما الأرض إذن.

تيما

الحقيقة التي تصعب عليّ ليست متعتي في رسائل تثير الدهشة والحب فقط، بل في تلك الطفلة التي كُنتها، أخذت رسالته، وكتبتها على ورقة، وصرْتُ أضعها أسفل وسادتي، وأنا. ثم وضعتها داخل وسادتي. لما نقلتُ أشياءي بعد تخرجي من الجامعة، وكنا منفصلين، وأعدتُ تنظيفها، وجدتها في الوسادة. يومها بكيت. كان بابًا جديدًا لم أتوقع أن يُفتح، فأغرقني بالشجن.

اليوم يشع السؤال ضخماً، وأنا أُطلب للزواج مرات وأرفض، هل يمكن لي أن أجد حبًا يفوق هذا الذي أغرقني؟ كثيرًا ما أتمنى معرفة رجل يفوق لؤي في التفاصيل، يفوقه في قدرته على إقناعي، على إدهاشي، في بعثرتي، وفي إرضائي.

أتراه كان حبًا، أم إعجابًا مدهشًا، أم قريبًا أدبيًا حاولنا أن نعيشه؟

أترانا حاولنا، أم عشناه حقًا؟

لأنه غرس فكرًا وتاريخًا وصوتًا أدبيًا، ولم يكن محبًا ومحتاجًا فقط؟ وهل سأنسى رجلاً كان كل هذا؟ كلما نويثُ بكتابة بحث جاءت أيامنا، حين كنا نوقد بعضنا بأمل ويقين في البلاد وفي خير ينتشر فينا.

كلما أتت أمّ شاب لتفحص ملامحي جيدًا ومعاينة طولي، وزجّني عن الباب لأقدم قهوة تركية لابنها، ونظر إليّ الآخر طويلاً، وأتى بأسئلة فاعرة تكسّرني، أمضي.

أسأل: لماذا مضيت؟

وهل كان بالإمكان ألا أفعل؟

هل أبكي الآن لأنني فقدته، أم أني أتذكره لمحض الحديث عن رجل لم يمر فقط، بل كان كلي، حين بخلت بكلي حتى عن نفسي؟! سأعود..

حين أتمكن من بعضي.

-٩-

To: hanan_82@yahoo.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 6-8

Subject: بحر يا بحر..

أتحبين البحر مثلي؟

أمام البحر حاولت أن أنسى البارحة، كان البحر هادئًا، مستعدًا لسماع همومي وأشيائي على بساطتها.

كتبت الكثير مما أردته للبحر، ثم ألقيته في قنينة كقصة أحببتها:

اسمع يا بحر، أريد أن أنسى

أن أحلم ملء عيني

أن أرقص، وأجن

وأن يأتي أبله مثلي على حمار دون أن أشرط بياضه. أقصد الحمار طبعاً

وأريد أن يأخذني الأدب عميقاً

مثل قاعك «دون أن أموت»

وأريد أن أعيش في مكان بلا ضوضاء

ولا مُسَيِّل للدموع

ولا مجندات يفتشنني وكأنهن سيُخرجن من جوفي شيطاناً

مكان بلا حواجز، ولا إغلاق حول المدن والقرى

مكان بلا أسرى، وأمهات ينعمن بتفاصيل الحياة السخيفة كلها

هاه؟

أسمعتني؟

بعد أن ألقيتها تذكرت بريداً أرسله بعد زيارته للإسكندرية، طبعاً أوقن أنني لن

أنسى بكل فخر:

صباح ذلك الجميل الذي يحلو ويطفو حول الأرواح المتعبة من واقعية الحياة وزخمها.. إنه البحر حين يحنو.

وصلت البارحة، تمنيت أن أحمله معي وأعود، لكنه أعظم من أن أفعل.. لذا لؤي في أفضل حالاته، على أمل أن تكوني كذلك أيضًا ويزيد.

ومقالة تلت زيارته تلك:

«البعض يصل البحر بمشكلاته وهمومه وقلقه، لكن البحر يدفع مرتاديه إلى البوح في مشهد اعترافي طويل، فالاعتراف للبحر هو جزء أصيل من الرغبة في التخلص من الهموم والقلق، ومن يقوم بهذا الدور أكثر من البحر صاحب الأسرار ومبتلعها تمامًا كما يبتلع السفن والبشر، في هدوء نراه يفعل ذلك، فأمواج البحر الهادئة تبدو كمن يطلب من هؤلاء المتعبين التأمل فيه، الحكيم معه، وإيداعه الأسرار والحكايات، يرمون أسرارهم تمامًا كما يفعل الغالبية عندما يقذفون حجارتهن الصغيرة في جوفه، وكل حسب حكايته، لكن البحر أبدًا القادر على استيعابها ومن دون مقاطعة إطلاقاً».

آخر مرة تحاورنا فيها بعد إنهاء علاقتنا، أرسل لي «أسوار الحد» لـ فروغ فرخزاد من مجموعة «تولدي ديگر».. ميلاد آخر، وترجمة حميد كشكولي:

عادت الآن، في هذه الليلة الساكنة

أسوار الفصل

أسوار الحد

لتنمو مرة أخرى

مثل الحشائش

لكي تصبح حارسًا على مزرعة عشقي.

والآن تقوم فوضى المدينة مثل سرب أسماك مرتبكة بمغادرة ظلمات
شواطئي

الآن تفتح النوافذ مرة أخرى في لذة تماس العطور المنتشرة.

الآن تقوم الأشجار في البستان الغافي بالانسلاخ عن جلودها
ولا تتوقف التربة عبر آلاف المنافذ عن جذب ذرات القمر الدائخة للأعماق

تقدّم مني الآن
استمع إلى خفقات العشق المضطربة، التي تنتشر مثل ضربات طبول الأفارقة
في صيحات قبيلة أعضاء جسدي
إنني أشعر

إنني أعرف أي لحظة هي لحظة الصلاة
فالآن ستتضاجع النجوم كلّها
أنا بجانب الليل، أهبّ من نهايات النسمات
أنا متكئة على الليل
أتهاوى بضائري الثقيلة كالمجنون في راحتيك
وأقدّم الأزهار الاستوائية من المناطق الدافئة الفتية هدية إليك

تعال معي
تعال معي إلى تلك النجمة

إلى تلك النجمة التي ظلت بعيدة منذ آلاف السنين عن تجمد التراب
ونواميس الأرض البالية
حيث لا يخاف أي واحد من النور
أنا أتنفس في الجزر العائمة على الماء
أنا أبحث عن وصلة من السماء الواسعة
خالية من تراكم الأفكار الوضيعة

ارجع معي.. ارجع معي
إلى ابتداء الجسد
إلى مركز معطر لنطفة ما
إلى لحظة خلقت فيها منك

ارجع معي
فإنني دونك أبقى غير مكتملة
الآن تطير الحمام من قمم صدري
الآن فراشات القبل الهائمة بين رموش شفاهي غارقة بالتفكير بالهروب
الآن محراب جسми بهم بالقيام بفاعلياته.

عدْ معي
فأنا لا أقوى على الكلام
لأنني عاشقة
ولأن كلمة «أحبّ» تأتي من عالم العبث والتهرؤ والتكرار.

ارجع معي!
أنا عاجزة عن الكلام.
دعني أحملُ من القمر، متكئةً على الليل
دعني أمتلئ من قطرات المطر الصغيرة
من القلوب الفتية
من فضاء الأطفال الذين لم يولدوا بعد
دعني أحبلُ
لعل عشقي يصبح مهدَ ميلادٍ لعيسى آخر.

بعد تلك الكلمات، وددت لو أراجع.
وودت لو أهدي إليه كل ما في من ذرات.
لماذا لم أقل شيئًا.. كنتُ أتألم بعمق فقط.

في هذا التاريخ تمامًا، تاريخ هذه الرسالة، أرسل آخر رسائله القصيرة على الإطلاق.

كنت قد عدت من الأردن يومها. في غرفتي الصغيرة، أتابع من الشباك المطل على حديقة رائعة الخضرة منظر عش عصافير صغير صنع على طرف الشباك المقابل لغرفتي. كانا عصفورين، الأول يبني، والثاني يرتب القش.

حين رنت رسالته، انتابني خوف ما.

كان قد قال:

«صباحك خير. كيف حالك أختي تيما؟ أردت الاطمئنان فقط، أنت بخير؟».

اعتصرت كلمة «أختي» كل قلبي، وزجّتني في مساحة لم أكن أود الدخول فيها، فلم لا نبقى ذكرى دون أن نخدشها، لم نتحول -كذبًا- إلى ما لا نستطيعه.

قال لي مرة إنه يستطيع، كي لا يخسرني، بل وكي يسأل ويطمئن، ويطلّ عليّ حتى وإن كان بمسمى آخر.

الواقع أنني لم أستطع.

كنتُ مختلفة، وصديقة مع نفسي وأنا أخبره أنه يشق على قلبي.

فلماذا أرسل تلك الرسالة إذن؟

كتبت له، ودموع ساخنة تحرق وجهي:

«صباحك فل، أنا في أحسن حالاتي. أشكر سؤالك يا لؤي».

فهل كنا نمارس القسوة لا غير؟

تيما

-١٠-

To: hanan_82@yahoo.com

From: tayma@hotmail.com

Date: 9-8

Subject: نهايات أم...؟

ما الذي يمكن لفتاة مثلي أن تفعله اليوم، وكل النهايات تفتح أبوابها
وتستقبلنا، جثثًا؟!

مات درويش إذن.

أقل من شهر واحد منذ أول وآخر مرة أراه يحرك يديه وجسده كاملاً مع
القصائد، والموسيقى، ومع رمشة عينيه. لست أدري أي الكلمات أقولها، غير أن
شيئًا خائفًا يزداد الآن.. يزداد.

فكيف لنا أن نحكي عن موته وهو الحي في الكلمات، الباقي في صور الأرض
والحبيبة، وفي هموم الذاهلين الباحثين.

أثناء سيري مع لؤي، كان لدرويش سلطته، قصائد وقصائد تذوقناها معًا،
حتى إذا انتهينا كان درويش أيضًا! فوق سرير علقته: «لا أنام لأحلم/ بل
أنام لأنساك».

كم يبدو آب حزينًا في ذاكرتي، في آب أيضًا كان موعد خطبتي ولؤي.

كان قد حدد مع والدي موعدًا لنا، وحين جاء آب، سألتني أبي عنه.

لم أتكلم يومها، ولم أبك أيضًا، أمام التجريح: كان يتسلى، وضحك عليك!
برافوا!

ما كنتُ لأجد سببًا لفراقنا غير البُعد الشاهق فيما نحن نقترُب حتى نكاد
نلتصق.. وكنتُ مؤمنة أنه لم نكن نستطيع أن نكمل طريقنا بذات المعطيات،
ربما لو جئت بوقت مغاير.

يومها دخلت غرفتي وقصصت شعري، وأظافري وغادرت البيت إلى عرس
خالي فرقصت حتى سحَّ العرق من منابتي كلها. كان الألم كبيرًا وشاسعًا.

محمد أخي أعطاني ورقة كتب فيها: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن
ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن
يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت
الصحف».

فأرخيت رأسي ونمت.

والآن يا حنان، قل لي: أيمن لقلوبنا أن تتجاوز وتنسى؟

ظهري منحني من وقتها، تمامًا كما قال أدونيس في «أول تهجئة»:

نقدر، الآن، أن نتساءل كيف التقينا
نقدر، الآن، أن نتهجى طريق الرجوع
ونقول: الشواطيء مهجورة
والقلوع

خبر عن حطام
نقدر، الآن، أن ننحي، ونقول: انتهينا.

فهل عليّ أن أحمل حزن النهايات-إن كان يوجد نهاية- وقد قال درويش ذات
حين، غامسًا صوته بنكهة الأرض:

يَا أُمَّنَا اِنْتِظِرِي أَمَامَ الْبَابِ. إِنَّا عَائِدُونَ
مَاذَا طَبَخْتَ لَنَا؟ فَإِنَّا عَائِدُونَ
نَهَبُوا خَوَابِي الرَّيْتِ، يَا أُمِّي، وَأَكْيَاسَ الطَّحِينِ
هَاتِي بُقُولَ الْحَقْلِ
هَاتِي الْعُشْبَ
إِنَّا عَائِدُونَ

خُطَوَاتُ أَحِبَّائِي أُنِينُ الصَّخْرِ تَحْتَ يَدِ الْحَدِيدِ
وَأَنَا مَعَ الْأَمْطَارِ سَاهِدُ
عَبَثًا أَحَدُّقُ فِي الْبَعِيدِ
سَأُظِلُّ فَوْقَ الصَّخْرِ.. تَحْتَ الصَّخْرِ.. صَامِدُ
حنان:

سأحب أن أراك غدًا في رام الله كما اتفقنا على الهاتف.

أريد أن أراك دون الدفتر الأسود، إنه مجرد مرحلة لن ينفع أن أخلّدها.. إنها في قلبي وهذا يكفي، يمكنك أن تمزقيه، أو أن تكتبي أنتِ تلك الرواية التي نصحتني أن أخطّها، أمنحك تلك الصلاحية.

أراك إذن.

مَحبة تليق بك.

تيماء

ما بعد البداية.. بقليل

كان يُحدّث نفسه طول الوقت، بدا متوترًا، هائمًا، وقلقًا:

«لديها أعمال إذن

قلتُ لك إنها لا تحبك يا ولد، فقلت إنك تشعر، هاه؟ شعورك مئة بالمئة ما شاء الله!

هل يعقل أنها ستري لؤي؟

أف منك؟

اتق الله!«.

كان يفكر كيف يطفئ هذه النار التي تشتعل في صدره!

إذ كيف بوسعه أن يبني آمالاً عريضة في كل ثانية، ويكبرها كالأطفال؟

الليلة عزم على البوح.. وفعل.

قال لأمه كل شيء. إنه يريد حنان ولن يتزوج غيرها، الكلمات الأخيرة أطلقها
لما أخبرها أن حنان مطلقة، فأخذت تضرب كفاً بكف.

ونشرت الظنون أمامه: ولم يطلقها زوجها؟ أكيد فيه سبب كبير؟ يا ابني اعقل!
حدا بجيب الهم لحجره؟

أكد لها أنه لن يتراجع، وأنه يحبها.

سألته: ولم تحبها؟

فلم يعرف لم!

وترك أمه وغطس في النوم.

ليلتها حلم بها.

كانت جميلة جداً. رأى الحياء الذي يحبه في عينيها، حين غضت طرفها عنه،
ولم تعاود النظر. تمنى أن يسمع صوتها، لكنه اقترب بوجل فقط.

كانت تضع شالاً أخضر فأزاله عنها، ظهر شعرها طويلاً، بلون أسود فاحم. همّ
بتقبيل جبهتها كما تخيل قبل نومه، فاستيقظ.

كان على وشك الاتصال بها، لكنها لم تتعدّ السادسة صباحاً بعد فتراجع.

سيقول لها: شوفي يا بنت الحلال، تقبلي في؟

عزم على ذلك.

وحين تقول نعم، سيخبرها بالحلم كاملاً.

لا، هو ينوي أن يخبرها بعد كتب الكتاب فوراً.

هي خجلى؛ فكر.

اتصلت به، ففرح.

أراد أن يكلمها في الأمر، فسارعت بالاعتذار عن الحضور. قالت «لديها أعمال»، فأتسعت خيبته.

هل يجوز أن يتصل بأخيها ويطلبها وانتهى؟

سيصبح الأمر في يد صاحبه ولن يرفضه.

بدا قصي متأكداً من ذلك.

وهي؟

ما لك يا قصي؟ أخذ يلوم نفسه على استعجاله.

«أف، لقد تعبت يا أنا. تعبت من كثرة الاحتمالات، ومن صمتها، وجفائها، وخوفي».

أمه نظرت إليه صباحاً واعتذرت.

قالت: هي حياتك. درست وعملت وتزوجت وأنجبت طفلة، ولم أتدخل في شيء.. ولن أتدخل الآن، حقك وحياتك. وانسحبت متبرمة إلى المطبخ.

لحقها وقبّل رأسها فاتسعت ابتسامتها الدافئة الحنونة، وألقت دعاء طويلاً، وباركته.

أمه وافقت، فرح، وتمتم: «بقيت تلك المجنونة، التي عندها أعمال».

ثم ماذا؟

«اتصل يا رجل. امنح نفسك وامنحها هذه الفرصة الأخيرة. قوّ قلبك، وحدثها من جديد. وسّع صدرك، ولا بأس يا قصي في أن يكون لها أعمال خارج العمل، لها أهلها أيضاً، وصديقاتها، وعالمها.

اتصل، هيا.. استمع لقلبك».

وفعل:

- مرحباً حنان. ممكن تسمعي لي للنهاية؟

- تفضل. أسمعك.

- أنا قصي عثمان الجمل، عمري ثلاثون عاماً، أرمل، ولديّ ابنة اسمها صبا. أعمل محامياً في مدينة نابلس التي أسكنها. أصلي من بير زيت قرب رام الله. أحمل رسالة الماجستير في القانون المقارن. لديّ بيت منفصل في المخفية ووالدتي تعيش في شارع القدس، في بداية مدينة نابلس. أنا أصغر إخوتي،

ولا أخوات لديّ. كما أنني صديق أخيك أسامة، وكان والدك -رحمه الله- صديق والدي، كانا معًا في كل الخطوات.

- ما لك يا قصي؟ أعرف كل هذا.

- أقول ما أقوله لأنني.

لأنني أريدك زوجة لي، فهل أطلبك من أسامة الآن؟

- ...

- حنان؟ قل لي أي شيء، سأسمعك.

ونشرت ضحكة صغيرة في الفراغ.

الضحكة التي سيبقى يتذكرها طول العمر.

سيسترجعها كثيرًا، وسيذكر مشاعره كلها، ورجفته وشوقه ولهفته وصوته وجنونه ودعائه وأحلامه...

سيذكر ما قالته بعدها:

- أنا حنان جرير العيسى، خمسة وعشرون عامًا، مطلقة، وأسكن وحدي في رفيديا في مدينة نابلس، خريجة علوم إدارية من جامعة النجاح، أصلي من قرية تل اللوز، أخي أسامة، صديق قصي الجمل، وأبي هو جرير العيسى صديق عثمان الجمل، و...

أقول ما أقوله، لأنني...

كنتك منذ الأزل.

أرسل إليها قائلاً: «مات درويش، لكنه ترك لنا: يولد الآن طفل، وصرخته في شقوق المكان.. أترأك سمعتني؟».

رنت بعدها رسالتها التي سيتنفس بها عمراً آخر:

«لأول مرة أشعر بما كتبه تيماء في دفترها الأسود، هو ذات الدفتر الذي رأيتني أقرأه وأزيد في قراءته.

وها أنا أكررها

ليس تقليدًا، بل هو شعور بأني لن أجد كلمات أصدق منها لأتدفق بها.

كتبت تذكر كلمات لؤي:

إليك..

أكثر من حلم، وأكبر من أمل.

حالة امتلاء لم أتخيلها، لأنني لم أعشها إلا بك.

كل أحلامي كذبت، لأن حقيقتك تجاوزتها تمامًا.

أعلم أنك أنا.

إن شاء الله دوماً.

**** اعتراف ****

كُنتني وقد صرْتُك.

صرتني وقد كُنتُك.

إنه الجوهر..

الجوهر..

الجوهر.

انتهت.

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..

بالفصحى، بالعامية أو حتى بالإنجليزية ..

بتحب تكتب ، أو تعرف حد ييحب يكتب ، كلمنا ..

هنعمل كل اللي نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب ..

لأن في كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :



Kayan.publishing



kayan_publishing



Kayanpublishing



kayanpublishing



+KayanPublishing



KayanPublishing